





الحلية المفقودة

مجموعة قصصية مختارة



تأليف: غي دو موباسان

ترجمة: أنطون موسى عرار

الخطة الوطنية للترجمة

(٧)

الحليــة المفقــودة

مجموعة قصصية مختارة

تأليف : غي دو موباســان

ترجمة: أنطون موسى عرار

قدّم لها وراجعها: الدكتور جمال شحيّد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٤م

الحلية المفقودة

العنوان الأصلي للكتاب باللغة الفرنسية:

LA PARURE

Guy De Maupassant

الحلية المفقودة/ مجموعة قصصية مختارة / تأليف غي دو موباسان؛
ترجمة أنطون موسى عرار؛ قدم لها وراجعها جمال شحيّد .- دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٤ .- ٢٢٤ ص؛ ٢٤ سم

(الخطة الوطنية للترجمة؛ ٧)

١- ٨٤٣ ف م و ب ح ٢- العنوان ٣- موباسان ٤- عرار
٥- السلسلة

مكتبة الأسد



غي دي موباسان والإبداع القصصي

ما يستغربه قارئ الأدب الفرنسي أن النوع القصصي في فرنسا قد تأخر في الظهور، وعرف طفرة لافتة مع موباسان (١٨٥٠ - ١٨٩٣) ثم خبا بريقه حتى نهاية القرن العشرين تقريباً، عكس ما حدث في كثير من الآداب الأخرى، والملاحظ أن دفق القصة عند موباسان قد غيّب طول باعه في الرواية. فقد كتب ست روايات وسبع عشرة مجموعة قصصية. ووقّع أعماله الأولى بأسماء مستعارة، ربما لأنه لم يكن واثقاً من نفسه تمام الثقة. فما بين ١٨٨١ و١٨٩٠ كتب أكثر من ٣٠٠ قصة قصيرة استرعت اهتمام القراء الأجانب بخاصة، ولاسيما الروس منهم. لقد قال ليون تولستوي بعد أن قرأ كتاب «حياة» *(Une Vie)* (١٨٨٠) لموباسان: «إنه أعظم رائعة في الأدب الفرنسي، بعد رواية البؤساء لفيكتور هوغو». وخلال عقد من الزمن خلّف لنا موباسان هذا النهر الغزير من القصص، مما دفعه إلى أن يقول لصديقه جوزيه ماريا دي هيريديا: «دخلت إلى الأدب كالشهاب وأغادره كالصاعقة». وكان يطيب له أن يقول: إن كبار الفنانين هم الذين يفرضون أوهامهم الخاصة على البشرية.

إن موباسان، خلال حياته القصيرة (٤٣ سنة) وبعد أن استقر في باريس، كان صديقاً لكبار كتّاب زمانه، لا سيما أولئك الذين طوروا التيارين الواقعي والطبيعاني في الأدب، من أمثال فلوبير وتورغينييف وزولا والأخوين غونكور، وهم الذين قدّموه إلى رؤساء تحرير بعض الصحف الكبرى كـ *Le Figaro*، و*Gil Blas*، و*Le Gaulois*، و *L'Écho de Paris* التي نشر فيها بعض قصصه فعرفه الجمهور العريض من القراء.

تتميّز قصص موباسان بأنها ارتبطت بالحياة الاجتماعية اليومية وبحياة الكاتب نفسه. ومن المواضيع الأثيرة في هذه الأعمال لابد من ذكر المنطقة التي ولد فيها الكاتب وهي النورماندي بسهولها وبحرها ومدنها وسكانها الذين ينتمون إلى الطبقتين الشعبية والبورجوازية. ولكن باريس تبقى المحطة الثانية الأثيرة لديه. وتوقف موباسان طويلاً عند صغار الموظفين فيها وبسطاء الطبقات الشعبية، وما عرفته المدينة من أحداث سياسية، لاسيما الاحتلال الألماني على يد بسمارك وثورة الكومونة. وأعجب موباسان بجزيرة كورسيكا وأهلها وعاداتهم. فنجد مجموعة من القصص تتكلم عن الثأر والانتقام. وفضّل الفلاح الكورسيكي على الفلاح النورماندي لسخائه وكرمه. ولكن المرأة تشغل الحيّز الأكبر في أعمال موباسان القصصية، ولاسيما المرأة التي تقع ضحية الرجال/ الذئاب أو تلك التي تمتهن الدعارة. وأعار اهتماماً خاصاً بالأم والعائلة والطفل، متوقفاً في قصص كثيرة عند مسألة الأبوة.

لقد كان موباسان معجباً بالفيلسوف الألماني شوبنهاور «القاصف الأكبر لأحلام البشر على وجه الأرض»، كما قال. فازداد تشاؤمه من غباء الناس ونفاقهم وخداعهم، ومن رجال الدين، لاسيما المتاجرين بالطوباويات لمآرب خسيسة في غالب الأحيان.

وتبقى مسألة الموت والجنون والأمراض النفسية من المواضيع التي شكّلت محطات رئيسية في أدبه. فتبدأ قصة «الآنسة هيرميه» مثلاً بهذه العبارة: «يجذبني المجانين إليهم». ومن سخريات القدر أن موباسان، بعد أن أصيب في آخر سنوات حياته بعدد من الأمراض العصبية أفقدته وعيه لمدة سنة ونصف فطار صوابه ومسه الجنون وشُلَّ جسمه كله، فحاول أن ينتحر بمسدس أفرغ خادمُه منه طلقاته. ووافته المنيّة وقد ناهز فقط الثانية والأربعين.

لقد دأب موباسان في أدبه على مقولة التخطّي والانتهاك. لقد كان انعتاقاً متعوياً من أنصار الفيلسوف اليوناني أبيقور. كان يكره النفاق والسلطة الاستعمارية والوصولية والفساد والتهافت على المال والكلبية. وأخذ على عاتقه السخرية من الأخلاق الزائفة التي تفصم بين الظاهر والباطن وتخلق زمراً بشرية مصطنعة، لا تمت بصلة إلى الطيبة والشرف والنقاء لدى الإنسان الذي حلم بأنه موجود على هذه الأرض.

صحيح أن كتّاب المدرسة الواقعية الفرنسية كانوا يميلون في رواياتهم إلى التطويل لرسم لوحة متكاملة عن المجتمع، لوحة مليئة بالتفاصيل والجمل الطويلة. ولكن موباسان اختار التكثيف: اختار أولاً النوع السردي الاختزالي المتمثل بالقصة القصيرة، واختار ثانياً الجملة القصيرة الرشيقة الدقيقة، تيمناً بالمأثور المعروف «خير الكلام ما قلَّ ودَلَّ». وليكون أقرب إلى الصدقية، يلجأ كثيراً إلى ضمير المتكلم، في حين أن الرواية الكلاسيكية كانت تعشق الضمير الغائب الذي يُخفي الكاتب وراء خشبة المسرح. ولا يخشى موباسان أن يقحم شخصيته في عدد من هذه القصص: كنّا مع بعض الأصدقاء نتكلم في أحد المقاهي عن الموضوع الفلاني، فإذا بأحد الحاضرين يتدخل ويروي لنا ما حدث له أو ما سمعه من شهود عيان...

عندما طلب مني الصديق أنطـون عـرار أن ألقـي نظـرة عـلى القـصص التـي ترجمها، وأن أكتب مقدمة لها، طلبت منه الأصل الفرنسي كي أكون على بيّنة من دقـة الترجمة. واتضح لي بعد المقارنة بين الأصل والمترجَم أن الدقة الترجمية كانت هـاجس أنطون عرار. يضاف إلى ذلك أنه من عـشاق الـنص العـربي الناصـع والبهـي الـذي سيعجب القراء المغرمين بجمال الأسلوب وطلاوته. فأتى المتن العربي مضاهياً للمتن الفرنسي؛ وهنا يكمن سر الترجمة الناجحة والسلسة في آن.

دمشق في ٧ حزيران ٢٠١٣

د. جمال شحيّد

إلى القارئ العزيز

لست في موقع الناقد لأدلي برأيي في قصص قرأتها بالفرنسية. ولم أكن يوماً عارفاً أو خبيراً في أذواق الناس الأدبية، لكنني كقارئ حسبتني كبقية البشر أتذوق، أحب، وأعجب أو على العكس، أكره أمج واحتقر ما كتبه فلان من الناس أو ما نشره في كتاب أو مجلة أو صحيفة.

ما أود قوله هنا في هذا المجال هو أنني أعجبت أشد الإعجاب بما كتبه الروائي الفرنسي في قصصه القصيرة التي نقلت بعضاً منها إلى اللغة العربية، ولن أثقل على القارئ برأيي، لكن عليَّ أن أعرفه بمن يقرأ مؤلفاته من خلال خلاصة ما كتب عن حياته وعن كتاباته باختصار شديد:

غي دو موباسان Guy de Maupassant(*)، كاتب وروائي فرنسي، ولد عام ١٨٥٠. أمضى طفولته وشبابه في كنف والدته، كمهر طليق، في أجواء ريفية أثرت فيما بعد في كتاباته، وأنهى دراسته في ثانوية مدينة «روان».

تطوع في الجيش أثناء هزيمة فرنسا في حربها مع ألمانيا عام ١٨٧٠، وقد ذكر ذلك في العديد من أقاصيصه، لكنه في عام ١٨٧١ قبل بوظيفة كاتب في إحدى الوزارات، هناك عاين بأم عينه ذلك المجتمع البيروقراطي فكان ذلك أيضاً أحد المواضيع التي رواها في قصصه وحكاياته.

(*) هذه المعلومات مأخوذة عن كتاب «المجموعة الأدبية للقرن التاسع عشر» Lagarde Et Michard.

عاصر موباسان الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبيروتأثر به تأثراُ كبيراً، مؤلف رواية «مدام بوفاري» الشهيرة، إذ كان فلوبير صديق طفولة والدة موباسان، وهو الذي جعله ينظر ويراقب الواقع برؤية جديدة، وفرض عليه تدريبات وتمارين في أساليب الكتابة، إضافة إلى ملاحظاته، كمعلم خبير، كان يلقيها على مسامعه. في نفس الفترة تعرف على الكاتب الفرنسي أميل زولا.

بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩١ نشر حوالي ثلاثمئة أقصوصة وست روايات طويلة، كان نجاحها عظيماً إذ فتح له أبواب المجتمع الرفيع: رواياته الأخيرة تصور حياة المجتمع، وهي مستوحاة مباشرة من المعاناة المفروضة على «قلبه المسكين» من جهة علاقاته النسائية.

عانى بشكل مبكر من آلام عصبية وقد ازداد مرضه عام ١٨٨٤ بسبب تأثير الإرهاق الفكري والإفراط الجسدي في جنات خلبيَّة. أضف إلى ذلك الهلوسات والتخيلات البصرية التي زادت في قلقه: كان لديه وهمٌ بأن هناك كائناً عدائياً قابعٌ بالقرب منه. كانت فكرة الموت تلازمه إلى أن أصيب بالجنون عام ١٨٩١. وبعد محاولة فاشلة للانتحار توفي في مصح دون أن يسترد صفاءه.

وهنا لابد لي من أن أقدم كلمة شكر وعرفان للأستاذ **الدكتور جمال شحيد.** وقد تفضل بمراجعة وتدقيق الترجمة باذلاً الجهد الكبير لكي تكون في أبهى حلة لها.

أنطون عرار

* * *

الحلية المفقودة؟

كانت من أجمل الفتيات اللواتي ولدن، بسبب هفوة من هفوات القدر، في أسرة موظفين. لم تكن لها بائنة، ولا آمال ولا أية وسيلة لِتُعرَف وتُعْشَق وتتزوج رجلاً مميزاً وغنياً؛ أخيراً اقترنت بموظفٍ بسيطٍ في وزارة المعارف.

ظهرت بِزَيٍّ بسيط لأنها لم تستطع أن تتزيّن كما كانت تشتهي؛ وكُنتَ تقرأ البؤس في عينيها كامرأة انخفضت مكانتها، إذ ليس للنساء طبقات ولا أجناس، فالسحر والجمال والأناقة لديهن كل ذلك يقوم مقام أصولهن ورفعة محتدهن. النعومة الفطرية، وغريزة الأناقة، ودماثة الروح هي حدود مراتبهن الوحيدة، وتجعل من بنات الشعب منافسات ومساويات لأنبل السيدات.

كانت تتألم باستمرار لإحساسها بأنها ولدت لتستمتع بالطيبات وكل مراتب الترف. كانت تعاني من فقر منزلها، وبؤس الجدران واهتراء المقاعد وبشاعة قماشها. كل هذه الأشياء التي لم تكن ذات بال بالنسبة لامرأة من طبقتها، كانت تعذبها وتغضبها. كان مرأى الفتاة القروية التي تهتم بالمنزل يوقظ فيها حسراتٍ مكدّرة وأحلاماً هائمة. كانت تفكر في غرف الانتظار الخرساء المبطنة بالسندس الشرقي تنيرها شمعدانات برونزية، وبخادمين طويلي القامة ويرتديان سروالين قصيرين، يغفوان على مقاعد عريضة وقد غلب عليهما نعاس حرارة المدفأة. كانت تحلم بالردهات الواسعة المدثّرة بالحرير القديم، وبالأثاث الأنيق تعلوه قطع الزينة التي لا تقدر بثمن، وترنو إلى الصالونات الصغيرة الأنيقة المعطرة والتي صممت لأحاديث الساعة الخامسة، مع الأصدقاء الأكثر حميمية، ومع رجال معروفين ومرغوبين، تتمناهم كل النساء، وينشدن إثارة انتباههم.

عندما كانت تجلس لتتعشى أمام الطاولة المستديرة المغطاة بقماش عتيق، مقابل زوجها الذي كان يرفع غطاء وعاء الحساء معلناً بصوت مفتون: «آه! كم هو لذيذ.. أنا ما عرفت قط حساءً أفضل»، كانت هي تحلم بحفلات عشاء أكثر أناقة، وبأدوات سفرة فضية تلمع، وبستائر تملأ الجدران بصور شخصيات قديمة، وطيور رائعة وسط غابة من السحر والفتنة؛ كانت تذهب بخيالها إلى أطباق طعام لذيذة تقدم في أوانٍ جميلة، ثم إلى كلمات الغزل المهموسة التي يصغى إليها بابتسامة أين منها ابتسامة أبي الهول، وهي تأكل لحم الترويت الوردي أو أجنحة الدجاج المسمَّن.

لم يكن لديها زينة، ولا مجوهرات، لاشيء على الإطلاق. وهي لم تكن تهوى إلاّها. كانت تحس بأنها خلقت لها. كم ودت أن تثير إعجاباً، أن تُحسد، أن تكون مغرية ومرغوبة.

لها صديقة غنية، رفيقة دير لم تعد ترغب في رؤيتها لكثرة ما كانت تتألم كلما عادت من زيارتها. وكانت تبكي لأيام تندب حظها العاثر وتحزن ويملؤها الأسى واليأس.

* * *

مساء أحد الأيام عاد زوجها وعلى وجهه أمارات الاعتزاز وقد أمسك بيده مغلفاً عريضاً.

وقال لها: «إليك هذا!»..

وبسرعة مزقت المغلف وأخذت منه بطاقة مطبوعة عليها هذه الكلمات:

«وزير التعليم والسيدة جورج رامبونو يتشرفان بدعوة السيد والسيدة لوازيل إلى سهرة في قصر الوزارة، يوم الاثنين ١٨ كانون الثاني».

بدلاً من أن تجن فرحاً، كما كان يأمل زوجها، رمت الدعوة على الطاولة وتمتمت: «ماذا تريدني أن أفعل بهذا؟».

- لكن يا عزيزتي، اعتقدت أنه سيملأ قلبك سروراً، فأنتِ لا تخرجين مطلقاً، وهذه مناسبة جميلة! لقد تعبتُ جداً لأحصل عليها. الكل يبتغي ذلك، وسهرة كهذه يبحث عنها الجميع، ولا يحصل الموظفون كثيراً على دعوات كمثلها. ستشاهدين فيها جميع الرسميين.

نظرت إليه بعين غاضبة وقالت متبرّمة:

- وماذا تريدني أن أرتدي من ثياب كي أذهب إلى هناك؟.

لم يكن قد فكر في ذلك فتمتم قائلاً:

- الفستان الذي ترتدينه حين تذهبين إلى المسرح، يبدو لي ممتازاً...

صمت مذهولاً مضطرباً حين رأى زوجته تبكي، وقد سالت من مؤقي عينيها دمعتان كبيرتان نحو زاويتي فمها؛ فقال متلعثماً:

- ماذا بك؟ ماذا بك؟

بجهد كبير كبحت ألمها وأجابته بهدوء وهي تمسح خديها المبتلَّين:

- لا شيء، لا زينة لديَّ وبالتالي لا أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة. أعطِ بطاقة الدعوة هذه لزميل لك، قد تكون زوجته مجهزة أكثر مني..

حزن، غير أنه قال:

- هدئي من روعك، يا متيلدا. كم ستكلف زينة مناسبة يمكن أن تفيدك في مناسبات أخرى، أعني شيئاً شديد البساطة؟

فكرت بضع ثوان لتدقق في حسابها حالمة بالمبلغ الذي يمكنها طلبه دون أن ينتج عنه رفض فوري أو صيحة استهجان من ذلك الموظف المقتصد.

أخيراً أجابت مترددة:

- لا أعرف تماماً، لكن يبدو لي أن أربعمئة فرنك قد تفي بالغرض.

شحب لونه قليلاً، لأنه كان قد حجز هذا المبلغ ليشتري بندقية كي يشترك في رحلات صيدِ الصيفَ التالي، في سهل نانتير مع بعض الأصدقاء الذين كانوا سيصطادون القُبَّرات هناك أيام الأحد.

لكنه أردف:

- فليكن، سأعطيك أربعمئة فرنك، لكن حاولي شراء فستان جميل..

***

يوم الحفلة كان يقترب، لكن الحزن والقلق والانشغال كل ذلك كان يملأ قلب السيدة لوازيل. بيد أن ثيابها كانت جاهزة. قال لها زوجها في مساء أحد الأيام:

- ما بالك؟ يا ترى أنتِ تبدين غريبة منذ ثلاثة أيام.

أجابت:

- إن ما يزعجني هو أنني لا أملك مجوهرات أتجمّل بها. سأبدو بائسة تماماً، حتى أنني أفضل ألا أذهب إلى تلك السهرة.

قال لها:

- ستضعين زهوراً طبيعية، وهذه قمة الأناقة في هذا الفصل من السنة. بعشر فرنكات ستحصلين على وردتين أو ثلاث وردات رائعة.

غير أنها لم تقتنع.

- لا.. ما من شيء أشد مهانة من أن تبدو المرأة فقيرة وسط نساء ثريات.

لكن زوجها صاح:

- كم أنتِ غبية! اذهبي إلى صديقتك السيدة فوريستييه واطلبي منها أن تعيرك بعض مجوهراتها. فعلاقتكما متينة تسمح بأن تلتمسي منها طلباً كهذا.

أطلقت صرخة نمَّت عن فرحها:

- هذا صحيح!.. لم يخطر ذلك ببالي.

في اليوم التالي ذهبت إلى صديقتها وروت لها سبب تكدرها.

اتجهت السيدة فوريستييه إلى خزانتها، وأخذت منها علبة كبيرة أتت بها ثم فتحتها وقالت للسيدة لوازيل:

-اختاري يا عزيزتي.

رأت في أول الأمر أساور، ثم عقداً من اللؤلؤ وصليباً من صنع مدينة البندقية وذهباً وأحجاراً كريمة دقيقة الصنع. وراحت تجرب كل تلك الحلي عليها أمام المرآة، وتتردد فلا تستطيع اتخاذ قرار في تركها وردّها. كانت دوماً تسأل صديقتها:

- ألم يبقَ لديك أي شيء آخر؟

- بَلَى، ابحثي فأنا لا أعرف ما يمكن أن يثير إعجابك.

فجأة اكتشفت في علبة من الحرير الأسود عقداً ماسياً؛ فطفق قلبها يدق برغبة عارمة؛ وارتجفت يداها لملامسته. ربطته حول عنقها فوق أعلى صدرها وبقيت مذهولة أمام صورتها، ثم سألت صديقتها وقد ملأ قلبها القلق:

- أيمكنك إعارتي هذا، لا شيء غير هذا؟

- بالتأكيد.

قفزت وعانقت صديقتها بشدة ثم انطلقت عائدة بكنزها.

***

جاء يوم الحفلة وكانت السيدة لوازيل محط الأنظار، إذ كانت أجمل النساء، بأناقتها، ورقتها وابتسامتها ومرحها. صار كل الرجال يرمقونها، يسألون عن اسمها ويحاولون التعرف إليها. كل أمناء مكتب الوزير كانوا يريدون مراقصتها، ولاحظ الوزير وجودها.

كانت ترقص بنشوة واندفاع وقد أسكرتها المتعة، ولم تعد تفكر في شيء بعدما شعرت بانتصار جمالها وعظمة فوزها، وهي تهيم في سعادة إعجاب وتقدير من حولها، وبكل رغباتها التي أفاقت بعد سبات، وبهذا النصر الكامل والعزيز على قلب كل امرأة.

غادرت حوالي الرابعة صباحاً، كان زوجها قد غط في نوم عميق منذ منتصف الليل، في غرفة جرداء مع ثلاثة رجال آخرين، كانت نساؤهم يمرحن بشغف.

وضع على كتفيها الرداء الذي كان قد اشتراه من أجل السهرة. هو رداء متواضع يصلح للأيام العادية، ويتنافر مع أناقة ثياب الحفل، شعرت بذلك وأرادت الفرار حتى لا تلاحظها السيدات الأخريات اللواتي كنَّ يتدثرن بالفراء الباهظ الثمن.

حاول السيد لوازيل منعها.

- انتظري قليلاً. سوف تتعرضين للبرد، سأستدعي عربة.

لكنها لم تصغِ إليه، إذ نزلت الدرج بسرعة. عندما صارا في الشارع لم يجدا عربة، وجعلا يبحثان ويصيحان بكل سائس يريانه.

سارا باتجاه نهر السين يائسين، مرتجفين من البرد. أخيراً وجدا أمام الرصيف عربة قديمة لا تُرى في باريس إلا ليلاً وكأنها تخجل من بؤسها لو شوهدت نهاراً.

أوصلتها العربة إلى المنزل في شارع الشهداء، فصعدا والحزن يغمرهما.

انتهى كل شيء بالنسبة إليها. أما هو فكان يفكر بأن عليه التواجد في الوزارة الساعة العاشرة.

خلعت أمام المرآة عنها الثياب التي غطت كتفيها لكي ترى نفسها ثانية في أبهتها، ولكنها صاحت فجأة، فالعقد قد اختفى من جيدها!..

سألها زوجها الذي كان قد خلع نصف ثيابه:

- ما الأمر؟..

استدارت نحوه مذعورة:

- لقد اختفى عقد السيدة فورستييه.

انتصب والإرباك يملؤه:

- ماذا؟.. كيف؟... غير معقول!..

وبحثا في ثنايا الفستان والمعطف، في الجيوب، في كل مكان ولم يجداه. سألها:

- هل أنتِ متأكدة من أنه كان معك وأنت تغادرين الحفلة؟

- نعم لمسته حين كنت في رواق الوزارة.

- ولكن لو أنك أضعتِه في الطريق لكنا سمعناه يسقط. إنه في العربة دون شك.

- نعم، على الأرجح، هل أخذت رقمها؟

- لا، وأنتِ، ألم تنظري إليه؟

- لا.

حدق واحدهما في الآخر.. أخيراً ارتدى السيد لوازيل ثيابه وقال:

- سأسير المسافة التي قطعناها، على الأقدام، لعلني أجده.

ثم خرج. أما هي فبقيت بثياب السهرة، غير قادرة أن تنام، محطمة على كرسي بلا حيوية ولا تفكير..

ذهب إلى قسم الشرطة، وإلى الصحف ووعد بمكافأة، وإلى شركات العربات الصغيرة وإلى كل مكان فيه بارقة أمل علّه يجده.

أما هي فقد انتظرت النهار كله وهي على حالها من الانسحاق أمام تلك المصيبة.

عاد السيد لوازيل مساءً بوجه كالح شاحب؛ لم يكن قد اكتشف شيئاً فقال لزوجته:

- يجب أن تكتبي لصديقتك أنك كسرتِ قفل العقد وأنك أرسلته للإصلاح، فهذا سيعطينا بعض الوقت لكي نتدبر أمرنا.

فكتبت ما أملاه عليها.

* * *

بعد مضي أسبوع، فقد السيد لوازيل كل أمل فأعلن، وقد شاخ عدة سنين:

- يجب أن نفكر في استبدال هذا العقد.

في اليوم التالي أخذا العلبة التي كانت تحتويه وذهبا إلى الجواهري الذي كان اسمه عليها. راجع دفاتره وقال:

- لست أنا من باع هذا العقد، لقد قدمت العلبة فقط.

وذهبا يزوران جواهرياً بعد آخر، ويبحثان عن حلية تشبه ذلك العقد، يسبران أعماق ذاكرتيهما اللتين أجهدهما الأسى والقلق.

وجدا أخيراً، في دكان يقع في شارع بور روايال، لدى أحدهم سُبحة من الماس بدت لهما شبيهة تمام الشبه بما يبحثان عنه، بسعر أربعين ألف فرنك، يخفض إلى ستة وثلاثين.

توسلا إلى الجواهري ألا يبيع تلك القطعة قبل ثلاثة أيام. واشترطا أن يرداها إليه بأربعة وثلاثين ألفاً إذا وجدا العقد المفقود قبل نهاية شباط.

كان لدى السيد لوازيل ثمانية عشر ألف فرنك ورثها عن أبيه، أما الباقي فسيستدينه.

استدان ألفاً من هنا وخمسمئة من هناك، خمس ليرات ذهبية من هذا وثلاثاً من ذاك. حرر سندات وكتب تعهدات باهظة الثمن، وتعامل مع مرابين وكل أنواع الدائنين. عَرَّض نهاية حياته للخطر وجازف بتوقيعه دون أن يعرف إذا كان سيبرُّ بتعهداته. اعتراه القلق من المستقبل والبؤسِ المتربص به، واحتمالات الحرمان، ومن كل اللواعج المعنوية. ثم ذهب واشترى العقد الجديد واضعاً على طاولة الجواهري ستة وثلاثين ألف فرنك.

لما أخذت السيدة لوازيل الحلية إلى مدام فورستييه، قالت لها هذه الأخيرة بوجه ممتعض:

- لِمَ لَمْ تعيديه قبل الآن، كان من الممكن أن أحتاجه.

لم تفتح العلبة، وهذا ما كانت تخشاه صديقتها، فماذا بوسعها أن تفعل لو اكتشفت صديقتها التبديل الحاصل. ماذا ستعتقد وماذا ستقول؟.. ألن تعتبرها سارقة؟!..

***

عرفت السيدة لوازيل حياة الفقر المريعة. لكنها اتخذت قرارها فجأة، قراراً بطولياً: يجب تسديد هذا الدين المرعب. ستدفع.. سُرِّحَتْ الخادمة؛ وانتقلت هي مع زوجها إلى مسكن آخر؛ استأجرا سقيفة تحت سطح أحد الأبنية.

خبرت في تلك الأثناء الأعمال المنزلية، وشغل المطبخ. غسلت الصحون والآنية، وعرضت أظافرها الوردية للحت على الأواني الفخارية وأجزائها السفلية. نظفت بالصابون الغسيل الوسخ، القمصان والخرق التي كانت تجففها على حبل؛ أنزلت القمامة إلى الشارع، كل صباح، وحملت ما تحتاجه من ماء إلى بيتها وكانت تتوقف عند كل طابق لتلتقط أنفاسها، وتذهب إلى باعة الخضار والفواكه واللحم وغير ذلك، مرتدية ثياباً رخيصة، تناقش الأسعار وتتلقى الشتائم، وتحمي مالها التعيس فلساً فلساً.

كل شهر كان عليهما دفع سندات وتجديد أخرى لكسب الوقت.

كان الزوج يعمل مساءً كمحاسب لدى تاجر، وفي الليل كان يعمل بالنسخ ويكسب خمسة فلوس عن كل صفحة.

استمرت حياتهما هكذا مدة عشر سنين.

في نهايتها كانا قد سددا كل ما ترتب عليهما من ديون وقروض مع الربا والفوائد المركبة.

بدت على السيدة لوازيل علائم الشيخوخة. صارت ربة بيت قوية، وقاسية وخشنة، بشعر كث بلا هندام، وثياب غير مناسبة ويدين محمرتين.

كانت تتكلم بنبرة عالية، وتشطف أرض الغرف بالماء. ولكن حين كان زوجها يعمل في المكتب، كانت تجلس أمام النافذة وتفكر في تلك السهرة العتيدة، وفي ذلك الحفل الراقص حين كانت جميلة تتلقى التهاني والإطراء.

ماذا كان سيحصل لو أنها لم تفقد تلك الحلية؟.. من يعلم؟.. من يعلم؟.

كم هي الحياة غريبة ومتغيرة! كيف أن شيئاً ضئيلاً قد يميت أو يحيي!

***

في يوم من أيام الآحاد ذهبت تتمشى في الشانزيليزيه لترتاح من أشغال أيام الأسبوع، لمحت فجأة امرأة تصحب طفلاً في نزهة، تلك كانت السيدة فوريستييه، دائمة الشباب والجمال والجاذبية.

اضطربت السيدة لوازيل! هل تكلمها؟.. نعم، بالتأكيد، الآن وقد سددت ما عليها ستخبرها بكل شيء ولِمَ لا؟..

دنت منها وقالت:

- صباح الخير يا جان.

لم تعرفها جان، غير أنها تعجبت من تلك المرأة التي نادتها بلا تكلف، فتمتمت:

- لكن... يا سيدتي.. من المؤكد أنك مخطئة.

- لا، أنا متيلدا لوازيل.

فندَّت عن صديقتها صرخة:

- آه.. يا متيلدا المسكينة! كم تغيرت!..

- نعم، لقد واجهت أياماً عسيرة منذ انقطاعي عن رؤيتك. وكثيراً من المصائب.. وكل ذلك بسببك.

- بسببي أنا؟ كيف حصل ذلك؟

- هل تذكرين ذلك العقد الماسي الذي استعرته منك للذهاب إلى حفلة الوزارة؟

- نعم، وماذا عن ذلك العقد؟

- لقد أضعته.

- كيف ذلك، وأنت قد أرجعته لي؟

- أعدت عقداً آخر يشابهه تماماً. وها قد مرت عشر سنوات ونحن ندفع ثمنه. وأنتِ تدركين أن ذلك لم يكن بهذه السهولة بالنسبة إلينا، إذ لم نكن نملك شيئاً.. أخيراً انتهى الأمر وأنا في غاية السرور.

- تقولين إنك اشتريت عقداً ماسياً بدلاً من حليتي؟.

- نعم، أنتِ لم تلاحظي ذلك، لقد كانا متشابهين جداً.

قالت ذلك وهي تبتسم ابتسامة فرح ساذجة.

أما السيدة فورستييه فقد تأثرت جداً وأمسكت كلتي يديها وقالت:

- آه.. أيتها المسكينة، لقد كان عقدي مزيفاً ولا يساوي أكثر من خمسمئة فرنك!..

١٧ شباط ١٨٨٤

حيلـة

حول المدفأة كانا يتسامران: طبيب هَرِم ومريضة شابة، شكواها كانت طفيفة من تلك التوعكات الأنثوية التي تشكو منها النساء: فقر دم بسيط، أعصاب، إرهاق يشك بأمره، إرهاق يصيب أحياناً حديثي الزواج في الشهر الأول من قرانهم حين يكون زواجهم عن حب.

كانت ممددة على كرسيها وتتحدث:

- لا يا دكتور، لن أتمكن أبداً من إدراك أن امرأة تخدع زوجها. أقبل فكرة كونها لا تحبه وأن لا تقيم وزناً لوعودها وأيمانها! لكن كيف تجرؤ أن تسلم نفسها لرجل آخر؟.. كيف تخفي ذلك عن عيون المجتمع؟.. كيف يمكن أن تحب كذباً وخيانة؟

ابتسم الطبيب وقال:

- من هذه الناحية، هذا في منتهى السهولة. أؤكد لك بأن المرء نادراً ما يفكر في كل هذه الدقائق عندما تتملكه الرغبة في الزلل، حتى إنني متأكد من أن المرأة لا تنضج للحب الحقيقي إلا بعد أن تمر بكل الاختلاطات والنفور من الزواج، الذي هو في نظر رجل شهير، ليس سوى تبادل لطباع سيئة نهاراً وروائح كريهة ليلاً. وهذا صحيح، فإن المرأة لا تستطيع أن تحب بعواطفها إلا بعد زواجها. لو استطعت مقارنتها بمنزل، فإنني أقول إنها غير قابلة للسكن إلا بعد أن يَمْسَحَ الزوج جدرانه الجبصينية.

أما بالنسبة للمواربة والكتمان فلدى النساء فائض يبعنه في مناسبات كهذه. أكثرهن بساطة رائعات ويتملصن بدهاء من أشد الحالات صعوبة.

إلا أن الشابة بدت وكأنها لم تصدق ما ذكره الطبيب فقالت:

- لا يا دكتور، لا يمكن أن نتنبه مطلقاً، إلا بعد فوات الأوان، لما كان يتوجب القيام به في المناسبات الخطيرة؛ والنساء، فعلاً، أكثر عرضة من الرجال لفقد صوابهن.

رفع الطبيب ذراعيه وأجاب:

- تقولين، بعد فوات الأوان! نحن معشر الرجال لا نستعيد الرشد إلا بعد فوات الأوان، أما أنتنَّ!.. مهلاً سأروي لك قصة قصيرة حدثت لإحدى مريضاتي التي لم أكن أفكر يوماً إلا في أن سلوكها لا تشوبه شائبة.

* * *

حدث هذا في مدينة ريفية.

مساء أحد الأيام، وكنت أغطُّ في نوم عميق، مستغرقاً في حلم غامض، خيّل إلي أنني سمعت نواقيس المدينة تدق إنذاراً بحريق.

استيقظت فجأة: كان الجرس الخارجي في بيتي يدق بإلحاح. وبما أن خادمي لم يرد، هززت بدوري الحبل المعلق عند سريري، سمعت بعدها صوت أبواب وخطوات عكرت سكون منزلي الغافي؛ ثم ظهر «جان» خادمي وقد أمسك برسالة جاء فيها:

- السيدة لوليفر ترجو بإلحاح السيد الدكتور سيمون أن يوافيها فوراً.

فكرت بضع لحظات وقلت:

- نوبة أعصاب، أبخرة(*)، إلى ما هنالك. أنا مرهق.

فأجبت:

- الدكتور سيمون مريض ويرجو السيدة لوليفر، أن تستدعي زميله السيد بونيه.

ثم أعطيت البطاقة مع الظرف وتابعت نومي.

بعد نصف ساعة تقريباً، رن جرس البيت ثانية، وجاءني جان ليقول:

- إنه شخص، رجل أو امرأة (لا أعرف تماماً لشدة تخفّيه)، يود التكلم بسرعة معك يا سيدي، يقول إن الأمر يعرض للخطر حياة شخصين.

(*) اضطرابات وانحراف مزاج.

نهضت وقلت:

- أدْخِلْهُ.

انتظرت جالساً في سريري.

ظهر أمامي شكل شبح أسود، وما إن خرج سيمون حتى كشف عن نفسه، كانت السيدة لوليفر بذاتها، امرأة شابة تزوجت منذ ثلاث سنين تاجراً كبيراً في المدينة، قيل حينذاك إنه اقترن بأجمل فتاة في المقاطعة.

كان شحوبها مرعباً، ووجهها يحمل تشنجات إنسان دب الذعر في أوصاله. يداها ترتجفان؛ حاولت أن تتكلم مرتين لكن لم يخرج من فمها أي كلام.

أخيراً تمتمت:

- بسرعة.. بسرعة يا دكتور، مات عشيقي في غرفتي.

سكتت وهي تكاد تختنق ثم استأنفت:

- زوجي سوف.. سيعود من النادي.

قفزت على قدمي دون تفكير بأنني في ثياب النوم؛ ارتديت ثيابي في ثوانٍ ثم سألتها:

- هل جئت بنفسك منذ قليل؟..

تمتمت وهي واقفة كالتمثال مذهولة قلقة:

- لا، لا.. كانت خادمتي.. وهي على علم.

وبعد صمت تابعت:

- بقيتُ إلى جانبه.

ونَدَّت عنها صيحة ألم مرعبة، وبعد غصة انهمرت دموعها بنحيب وحرقة لدقيقة أو اثنتين، ثم جفت دموعها فجأة، وكأنها نضبت بفعل نار قلبها المشتعلة وقالت بهدوء:

- هيا بنا يا دكتور...

كنت مستعداً لكنني صرخت:

- يا الله، لم آمر بتجهيز عربتي.

أجابت:

- لدي واحدة، لديَّ عربته التي تنتظره.

تلفعت حتى شعرها وانطلقنا.

لما جلست بجانبي في ظلمة العربة، أمسكت فجأة بيدي وكادت تسحقها بأصابعها الناعمة، وهمستْ بصوت مرتجف ينم عن قلب مجروح:

- آه.. لو تعلم كم أتألم! منذ ستة أشهر أحببته بجنون من فقدت رشدها.

سألتها:

- هل من في البيت مستيقظون؟.

أجابت:

- لا أحد ما عدا روز التي تعرف كل شيء.

توقفنا أمام بابها؛ الكل كانوا بالفعل نائمين، دخلنا بلا ضجيج بمفتاح خاص وسرنا على أطراف أصابعنا، كانت الخادمة جالسة على الأرض في أعلى الدرج مرتعبة، وإلى جانبها شمعة مضيئة، فهي لم تجرؤ على البقاء بجانب الميت.

دلفتُ إلى الغرفة التي كانت مقلوبةً رأساً على عقب وكأن معركة نشبت فيها. السرير مدعوك وبلا ترتيب؛ وكان أحد الشرشفين ساقطاً على الأرض فوق السجادة؛ وكانت هناك خرق مبلولة، استخدمت في مس صدغي الميت علَّه يستفيق، موضوعة على الأرض مع طشت وكأس. وقد فاحت بعد فتح الباب رائحة غريبة لخل الطعام ممزوجة مع رائحة أخرى كريهة.

كانت الجثة ممددة بطولها على أرض الغرفة.

دنوت وتأملتها، ثم جسستها وفتحت العينين، ولمست اليدين، ثم استدرت نحو المرأتين اللتين كانتا ترتعشان وكأنهما متجمدتان من البرد، وقلت:

- ساعداني على حمله إلى السرير.

مددناه بتؤدة، وتسمعت إلى قلبه ثم وضعت مرآة أمام فمه، وتمتمت:

- انتهى، فلنلبسه بسرعة.

عملية جرت بشكل مريع!.

كنت أمسك بأطرافه واحداً فواحداً كأطراف دمية ضخمة، ثم أمدها نحو الثياب التي تقدمها المرأتان. ألبسناه جواربه وثيابه الداخلية ثم سترته وبدلته وعانينا الكثير في إدخال ذراعيه.

عندما حاولنا ربط الحذاء ركعت المرأتان بينما كنت أضيء لهما، لكن بما أن أقدامه كانت منتفخة قليلاً وجدنا صعوبة فائقة في ذلك، وحين لم تجدا ماسك الأزرار استخدمنا دبابيس شعرهما.

ما إن انتهت عملية إلباسه حتى تفحصت ما قمنا به وقلت:

- يجب أن نمشط شعره.

ذهبت الخادمة لتجلب مشط سيدتها الكبير وفرشاة شعرها، ولكن بما أنها كانت ترتجف وتقتلع، عن غير عمد، مع كل ضربة مشط، شعره الطويل والمشبوك، فقد أخذت السيدة لولييفر المشط من يدها بعنف ورتبت الشعر بنعومة وكأنها تداعبه. أصلحت مفرق شعره وسرحت لحيته ورتبت شواربه بإصبعها كما اعتادت أن تفعل ذلك بلاشك، كلفتة حب ومودة.

فجأة أفلتت ما كان بين يديها وأمسكت برأس عشيقها الساكن وحدقت طويلاً، وبيأس، في ذلك الوجه الميت الذي لم يعد يبتسم لها؛ ثم انحنت عليه وضمته بذراعيها تقبله بجنون. قبلاتها كانت تقع كالضربات على ذلك الفم المغلق وعينيه اللتين انطفأ نورهما، على صدغيه وجبينه. ثم اقتربت من إحدى أذنيه وكأنه سيسمعها؛ لتهمس الكلمة التي تجعل العناق أشد اضطراماً، رددت عشر مرات بصوت يذيب الصخر:

- وداعاً يا حبيبي.

لكن الساعة دقت منتصف الليل.

انتفضتُ:

- تباً منتصف الليل!.. إنها ساعة إغلاق النادي، هيا يا سيدتي! أريد نشاطاً!.

انتصبَتْ. فأعطيت الأمر:

- لنحمله إلى غرفة الاستقبال.

حملناه معاً وأوصلناه فأجلستهُ على مقعد ثم أشعلتُ الشمعدان.

- فتح باب الدار وأغلق بقوة، إنه هو؛ صحت:

- يا روز بسرعة أعطني المناشف والوعاء ورتبي الغرفة، أسرعي بالله عليك! هوذا السيد لوليفر قد عاد.

سمعت خطوات صاعدة تقترب، وأيدٍ في الظل تجس الجدران، حينئذ ناديته:

- من هنا يا عزيزي، لقد وقع حادث.

وظهر الزوج عند العتبة مذهولاً وفي فمه سيكار، سأل بلهفة:

- ماذا؟ ما الذي حصل؟.. ما هذا؟.

اتجهت نحوه وقلت:

- يا عزيزي.. ترانا في إرباك لا نحسد عليه، فقد أطلت المكوث لديكم أتحدث مع حرمكم، وصديقنا الذي كان قد أقلني في عربته. وما لبث أن انهار فجأة، ومنذ ساعتين، بالرغم من عنايتنا، فقد بقي في غيبوبة. لم أرد أن أستدعي غرباء، أرجوك ساعدني بإنزاله، وسأعتني به بشكل أفضل في منزله.

فوجئ الزوج لكن بدون أن يرتاب، خلع قبعته وأمسك بذراعي خصمه الذي صار غير قادر على الأذى من بعد، وأمسكت بساقيه وصرت كحصان مربوط بين عارضتين ثم نزلنا الدرج والمرأة تنير لنا الطريق.

عندما صرنا أمام الباب، أنهضت الجثة وصرت أحادثه مشجعاً كي أخدع السائس:

- هيا تشجع، لا تهتم، ابذل جهداً بسيطاً وينتهي الأمر.

بما أنني شعرت بأنه سيقع وينزلق من بين يدي، وجهت إليه ضربة بكتفي دفعته إلى الأمام وجعلته يتأرجح في العربة، ثم صعدت خلفه.

كان الزوج يسألني بقلق:

- هل تعتقد أن الأمر خطير؟..

فأجبته مبتسماً:

- لا.

وألقيت نظرة على المرأة، كانت قد عقدت ساعدها تحت ساعد زوجها الشرعي لتغور بنظرها في عتمة العربة.

شددت على أيديها وأمرت السائس بالتحرك.. على مدى الطريق كان المتوفى يقع على أذني اليمنى.

لما وصلنا إلى منزله أعلنت أنه غاب عن الوعي في الطريق.

ساعدت في إيصاله إلى غرفته وهناك أثبتُّ الوفاة، وقد لعبتُ دوراً في ملهاة جديدة أمام أهله الواجمين، أخيراً عدت إلى سريري وقد أشبعت العشاق من لعناتي.

صمت الطبيب وما زال يبتسم.

سألته المرأة الشابة مكشرة:

- لماذا رويت لي هذه القصة المريعة؟

حياها بأدب جم وقال:

- لأقدم لك خدماتي وقت الحاجة.

٢٥ أيلول ١٨٨٢

الحــارس

كنا مجتمعين بعد العشاء في سهرة نتسامر ونروي مغـامرات وحـوادث صـيد، وذلك بعد العشاء.

السيد «بونفاس» الذي يعرفه الجميع، هو صـياد شرس ومعـاقر خمرة كبـير، قوي البنية مرح الطبع راجح العقل والإدراك، وذو فلسفة ساخرة وقانعة تتجلى عبر الدعابات اللاذعة التي لم تكن يوماً حزينة، قال فجأة:

- أعرف حكاية صيد، أو بالأحرى فاجعة صيد غريبة تماماً، فهي لا تشبه أبداً كل ما عُرف في هذا الشأن؛ وأنا لم أروها بعد لمخلوق، معتقداً أنها لن تسلي أحداً.

هذه الفاجعة ليست باللطيفة، أعني أن ليس لها ذلك التشويق الذي يـستهوي أو يسحر أو يحدث تأثيراً ممتعاً. على كل حال، إليكم ما حدث.

كنت حينها في الخامسة والثلاثين من عمري، وكنت أمارس الصيد بجنون.

في ذلك الوقت كنت أمتلك أرضاً منعزلة بالقرب من «جـومييج»، تحـيط بهـا الغابات وكانت تعج بالطرائد. كنت أذهب لأمضي فيها وحدي أربعة أو خمسة أيـام فقط كل سنة، لأن المقام لم يكن يسمح أن أصطحب صديقاً.

وظفت هناك كحارس، دركياً متقاعـداً، رجـلاً شـهماً، عنيفـاً قاسـياً في تطبيـق التعليمات ورهيباً بالنسبة للصيّادين الدخلاء، ولم يكن يهاب شيئاً، كان يسكن وحـده، بعيداً عن القرية، بيتاً أو بالأحرى كوخاً مؤلفاً من غرفتين في الأسفل مع مطبخ وقبـو، وغرفتين في الطابق الأول؛ إحداهما عبارة عن زاوية تكاد لا تتـسع إلا لـسرير وخزانـة وكرسي، وقد خُصصتْ لي. أما الثانية فكان يشغلها العم «كافالييه» الحارس.

حين قلت إنه كان وحيداً في البيت، أخطأت في التعبير، فقد كان ابن أخيه معه وهو من معشر الأوغاد لا يتجاوز عمره أربعة عشر عاماً وكان يذهب إلى القرية لجلب التموين ويساعد العم في الأعمال اليومية.

كان فتىً نحيل الجسم، طويلاً مع انحناءة، شعره ذو لون أصفر خفيف جداً كوبر دجاجة منتوفة الريش، وهو بالأصلع أشبه. إضافة إلى ذلك كانت قدماه هائلتين، ويداه يدي عملاق جبار. فيه حَوَل، لذا لم يكن ينظر إلى أحد. بالنسبة للجنس البشري كان يعطيني انطباعاً بأنه أحد الوحوش الكريهة، وفيه شبه لابن عرس أو لثعلب. ينام فيما يشبه الكوة عند أعلى الدرج الذي يوصل إلى الغرفتين.

لكن خلال إقاماتي القصيرة في الجناح - كنت أسمّي الكوخ جناحاً - كان ماريوس الفتى يتخلى عن تلك الكوة لامرأة عجوز من «إيكورشفيل»، تدعى «سيلست» كانت تأتي من أجل أعمال الطبخ، لأن أطباق العم «كافاليه» لم تكن كافية.

عرفتم الأشخاص والمكان. والآن إليكم الحكاية كما حدثت:

كان ذلك عام ١٨٥٤م في الخامس عشر من تشرين الأول - فأنا أتذكر تماماً ذلك التاريخ ولن أنساه أبداً.

ذهبت من روان على حصاني، يتبعني كلبي «بوك»، ذو الصدر العريض والشدق المتين، يتغلغل بين أشواك العليق دون صعوبة، كأحد الكلاب الإسبانية في «بون اوديمير».

خلفي على الحصان، وضعت حقيبة السفر والبندقية؛ كان البرد قارساً في ذلك اليوم والريح تعصف، والغيوم الداكنة تجري في كبد السماء.

لدى مروري في ساحل «كانتلو» كنت أملأ عيني بمنظر وادي السين الذي يعبره النهر حتى الأفق ويتلوى فيه كالأفعى. إلى اليسار، كانت روان ترفع قباب أجراسها نحو السماء؛ وإلى اليمين، كان النظر يقف عند الساحل البعيد المغطى بالأحراش، ثم عَبَرْتُ غابة «رومار»، تارة بسرعة وأخرى متمهلاً، فوصلت حوالي الساعة الخامسة أمام «الجناح» حيث كان العم كافاليه وسيلست في انتظاري.

منذ عشر سنوات، وفي نفس الفترة، كنت أحضر على المنوال نفسه، وكانت الأفواه نفسها تحييني بالكلمات ذاتها:

- مرحباً سيدنا، هل الصحة على ما يرام؟

لم يكن كافالييه قد تغير، كان يقاوم الزمن كشجرة عنيقة؛ أما سيلست، وعلى الأخص منذ أربع سنوات، فقد تغيرت بشكل كبير، كانت شبه مكسورة إلى جزأين، هذا بالرغم من نشاطها المستمر، وكانت تسير وجذعها منحنٍ إلى الأمام ليشكل زاوية قائمة مع ساقيها.

بدت العجوز متأثرة لرؤيتي، بسبب تفانيها. كانت تقول لي حين مغادرتي:

- علينا أن نفكر، فقد تكون هذه المرة هي الأخيرة، يا سيدي العزيز.

هذا الوداع الحزين، وخوف تلك الخادمة واستسلامها اليائس أمام الموت المحتم والذي يقترب منها بالتأكيد، كان يهز كياني بشكل غريب كل عام.

ترجلت عن حصاني، وبعد أن صافحت كافالييه، أخذ مطيتي إلى المبنى الصغير الذي كان يستخدم كإسطبل؛ دخلتُ وتبعتني سيلست إلى المطبخ وكنا نستخدمه كغرفة طعام. ثم لحق بنا الحارس، فلفت انتباهي فوراً أنه ليس على ما يرام، فقد بدا مشغول البال وقلقاً، فقلت له:

- حسناً يا كافالييه، هل الأمور كما تتمنى؟

فتمتم قائلاً:

- هناك إيجابيات وهناك سلبيات، هناك أمور لا تعجبني البتة.

سألته:

- ما الأمر يا رجل؟ هاتِ حدثني بها لديك.

لكنه هز رأسه وقال:

- لم يحن الوقت بعد يا سيدي، فأنا لا أريد أبداً أن أزعجك بمشاكلي هكذا فور وصولك.

ألححت، لكنه رفض أن يعلمني بأي شيء قبل العشاء. إلا أن منظر رأسه أوحى لي بأن الأمر كان خطيراً.

ولأنني لم أكن أدري ما يجب عليَّ قوله، سألته:

- والطرائد، هل هي متوفرة؟.

- أوه، بالنسبة للطرائد فهي موجودة، هناك الكثير، حمداً لله فعيني لا تغمض عنها.

قال ذلك بكثير من الوقار الحزين الذي بدا مضحكاً، كان شارباه الرماديان وكأنهما على وشك الإفلات عن شفتيه.

فجأةً، تنبهت إلى أنني لم أرَ بعد ابن أخيه، فسألته:

- وأين هو ماريوس؟ لماذا لم يظهر بعد؟

انتفض الحارس وقال وهو يحدق في وجهي:

- حسناً يا سيدي! أفضِّل أن أروي لك الأمر مباشرة؛ نعم أفضل؛ فبسببه هناك ما يحز في نفسي.

- آه! آه! أين هو إذاً؟

- إنه في الإسطبل يا سيدي، وكنت أنتظر ظهوره.

- ماذا فعل؟

- إليك يا سيدي الحكاية...

كان الحارس لا يزال متردداً، لكنه قال بصوتٍ يرتجف وقد تغيرت نبرته؛ أما وجهه فقد ازدادت أخاديده عمقاً:

- رأيت بأم عيني، هذا الشتاء. أن أحداً يقنص في حرش «روزريه» لكنني لم أستطع الإمساك بالجاني. قضيت ليال وليال متربصاً لكن دون جدوى. وخلال تلك الفترة، بدأ القنص أيضاً ناحية «إيكورشفيل». كنت أفقد صحتي غيظاً، إذ استحال عليَّ الإمساك باللص، كأن أحداً كان يبلغ ذلك الحقير بخطواتي ونواياي.

لكن في أحد الأيام، وكنت أنظف بنطال ماريوس، بنطال يوم الأحد، وجدت أربعين فلساً في جيبه، من أين حصل عليها الغلام؟.

فكرت في ذلك ملياً مدة ثمانية أيام، ورأيت أنه كان يخرج بالضبط حين أعود لأرتاح؛ نعم يا سيدي.

راقبته دون أن أشك بالأمر؛ نعم دون شكوك. وحين عدت في أحد الأيام لآخذ قسطاً من الراحة، نهضت فوراً وتبعته. بالنسبة لأمر كهذا، ما من أحد يبتزني، يا سيدي.

أمسكت به، نعم أمسكت بماريوس ينصب الفخاخ على أراضيك يا سيدي، هو ابن أخي أنا الحارس لديك.

فار دمي وكدت أقتله لكثرة ما ضربته، نعم ضربته ووعدته بأنه سيتلقى نفس التأديب على يدي بحضورك، كدرس له.

وها أنا قد وهنت من الحزن، فأنت تعلم ما يحدث للمرء حين يتعرض للمعاكسات هكذا. لكن ماذا كنت ستفعل؟ قل لي. فالغلام قد فقد أباه وأمه ولم يبقَ له سواي من الأقارب؛ آويته. ولم يكن بإمكاني أن أطرده، أليس كذلك؟

غير أني قلت له بأنه لو عاد لنفس السلوك فستكون النهاية بالنسبة إليه، إذ لا مجال للرأفة! هذه هي المشكلة؛ أتراني أحسنت التصرف يا سيدي؟

أجبته ماداً إليه يدي:

- حسناً فعلت يا كافالييه؛ أنت رجل طيب وشهم.

نهض وقال:

- شكراً يا سيدي. سأذهب الآن لآتي به. التأديب واجب لكي يتعلم.

كنت أعلم أن من المستحيل ثنيه عن عزمه؛ فتركته يتصرف على سجيته.

ذهب وأحضر الصبي وقد أمسكه بأذنه. أما أنا فكنت جالساً على كرسي من القش ووجهي متجهم كوجه قاض.

بدا لي أن ماريوس قد كبر وصار أبشع مما كان عليه العام الماضي بوجهه العابس الماكر أما يداه فكانتا يدي وحش.

دفعه عمه أمامي وقال له بصوت آمر عسكري:

- أُطلُب العفو من صاحب الملك.

لم ينبس الصبي ببنت شفة.

حينئذ أمسكه الدركي السابق تحت إبطيه ورفعه عن الأرض وجعل يكيل له الضربات بعنف شديد على قفاه حتى إنني نهضت لأوقفها عنه.

بدأ الولد حينذاك بالصياح:

- الرحمة! الرحمة! أعِدُ...

وضعه كافالييه على الأرض وأجبره، بضغط على كتفيه، أن يركع وقال:

- أُطلُب المغفرة، هيا...

فتمتم الصبي وعيناه مغمضتان:

- أطلب المغفرة.

أنهضه عمه وطرده بكف على وجهه كاد أن يرميه أرضاً.

فهرب ولم أره في السهرة. لكن كافالييه بدا منذهلاً وقال لي:

- إنه ذو جبلّة شريرة.

وكان طوال فترة العشاء يردد:

- هذا ما يحزنني يا سيدي، أنت لا تعرف كم إن هذا نغّص حياتي.

حاولت أن أطيب خاطره لكن دون جدوى.

أويت إلى فراشي باكراً لأنطلق إلى الصيد مع أول ضوء.

نام كلبي على الأرض الخشبية قرب سريري، وأطفأت المصباح.

حوالي منتصف الليل أيقظني نباح بوكْ المهتاج. ولاحظت فوراً أن غرفتي ملأى بالدخان. قفزت من السرير وأشعلت القنديل وهرولت نحو الباب وفتحته، وإذا بإعصار من اللهب يجتاح الغرفة. كان البيت كله يحترق.

أغلقت الباب وارتديت بنطالي بسرعة وأنزلت كلبي أولاً عبر النافذة بواسطة حبل صنعته من الشراشف، وبعد أن ألقيت ثيابي وجعبة الصيد وبندقيتي، أسرعت نازلاً بنفس الطريقة؛ وطفقت أصيح بكل قوة:

- كافالييه!.. كافالييه!..

لكن الحارس لم يستيقظ لأن نومه كان ثقيلاً كما ينام الدرك.

بيد أنني كنت أرى كل الطابق الأرضي، عبر النافذة، تأكله نيران أتونٍ مضطرم؛ ولاحظت أنه قد مُلِئَ بالقش لإذكاء الحريق.. إذاً، كان حريقاً مفتعلاً.

عدت إلى الصياح ثانية:

- كافالييه!

حينئذ خطر في ذهني أن الدخان كان يخنقه، فعنَّ لي أن أحشو بندقيتي بطلقتين وأطلقت واحدة في منتصف نافذته.

تحطمت ألواح زجاج النافذة الستة وتناثرت كالغبار. هذه المرة سمع العجوز وظهر مرتبكاً بقميص نومه، وقد جن من وميض اللهب الذي أضاء واجهة المنزل؛ صحت به:

- بيتك يحترق، اقفز من النافذة، بسرعة، بسرعة!

اندلعت النيران فجأة من الفتحات السفلية ودنت من الجدران فوصلت إليه وكادت تحبسه.. فقفز وسقط كهرٍّ على رجليه.

أخيراً.. انهار سطح القش عند منتصفه فوق الدرج الذي كان يشكل، نوعاً ما، مدخنة للنار المنبعثة من الأسفل، وارتفعت حزمة لهب متوهجة في الهواء وهي تزداد ضخامة وتمطر الشرار الملتهب حول البيت الذي صار كتلة من النار في بضع ثوان.

استفسر كافالييه عما يجري وقد غلبه الذهول:

- كيف اشتعلت النيران؟

فأجبته:

- لقد أشعلت النار في المطبخ.

- ومن الذي أشعلها؟

أجبته بعد أن حزرت فجأة من الفاعل:

- ماريوس.

فهم العجوز فتمتم:

- يا إلهي، لهذا لم يعد إلى المنزل.

لكن فكري اتجه فجأة نحو شيءٍ مريع فصحت:

- وسيلست؟ سيلست؟

لم يجبني، لأن البيت انهار أمامنا وأصبح كتلة من الجمر، تنفجر وتعمي وتدمي؛ كانت محرقة مريعة حيث لم يبقَ فيها من تلك العجوز إلا فحمة حمراء، فحمة من اللحم البشري.

لم نكن قد سمعنا ولا حتى صرخة واحدة.

لكن بما أن النار اشتعلت في العنبر المجاور، فطنت فجأة لحصاني، فطار كافاليه لإنقاذه.

وما إن فتح باب الإسطبل، حتى مَرَّ بين ساقيه جسم مرن وسريع وأوقعه أرضاً على أنفه. كان ماريوس فاراً بكل ما أوتي من عزم.

نهض الرجل في غضون ثانية، وأراد أن يجري ليمسك بذلك التعيس، لكنه قدَّر أنه لن يتمكن من ذلك، فانتابه غضب شديد، وقد استسلم دون تفكير لحركة عفوية، مؤقتة، لا يمكن توقعها ولا إيقافها، وإذا به يمسك بندقيتي التي كانت لا تزال على الأرض بالقرب منه، وصوَّب قبل أن آتي بحركة وأطلق النار دون أن يعرف إن كان السلاح محشواً أم لا.

إحدى الطلقات التي وضعتها للإنذار بقيت في البندقية، أطلقها فأصابت الهارب في ظهره ورمته على وجهه مغطى بالدم. جعل يخدش الأرض بأظافره وركبه وكأنه أراد أن يركض على أربع قوائم، مثل أرنب أصيب بجرح مميت وهو يرى الصياد آتٍ نحوه.

انطلقت. كان الصبي في نزاعه الأخير، ولفظ أنفاسه قبل أن تطفأ النار ودون أن يتفوه بكلمة.

بقي كافاليبه واقفاً قربنا بلا حراك وقد أخذه الذهول.

حين وصل أهل القرية، اصطحبوا الحارس وهو بينهم كمن أصيب بالجنون.

استدعيت إلى المحكمة كشاهد، ورويت الأحداث بالتفصيل دون أن أغيِّر منها شيئاً. برئت ساحة كافاليبه، لكنه اختفى في اليوم ذاته مغادراً المنطقة.

ها هي ذي حكايتي عن الصيد أيها السادة.

* * *

الآنسة بيرلا

١

حقاً، يا لها من فكرة غريبة راودتني في ذلك المساء، وهي أن أختار الآنسة بيرلا ملكة.

كل عام أذهب، للمشاركة في احتفال يوم الملوك أو عيد الغطاس[1]، إلى صديقي شانتال. أبي، الذي كان صديقه الحميم، اعتاد أن يأخذني إليه لما كنت صبياً. تابعت، وسأستمر في زيارته بلا شك طالما أنا على قيد الحياة، وطالما هناك واحد من عائلة شانتال في هذه الدنيا.

آل شانتال يعيشون على نحو خاص بهم؛ يقطنون باريس وكأنهم يعيشون في غراس[2]، أو إيفتو[2] أو بونتاموسون[2].

فهم يمتلكون قرب شارع المرصد بيتاً محاطاً ببستان، ويعيشون هناك وكأنهم في الريف. أما عن باريس، أي باريس الحقيقية، فهم لا يعلمون شيئاً، ولا يبالون بشيء، فهم بعيدون عنها كل البعد! مع ذلك يسافرون إليها أحياناً سفراً يعتبرونه طويلاً، فالسيدة شانتال تذهب من أجل التزود بالمؤن كما يقال في العائلة. وإليكم ما يقومون به إبان موسم المؤن الكبرى.

---

(١) يوم تعمَّدَ السيد المسيح على يد النبي يوحنا المعمدان وذلك في نهر الأردن.

(٢) بلدات فرنسية بعيدة عن باريس.

الآنسة بيرلا التي تحتفظ بمفاتيح خزائن المطبخ (لأن خزائن الثياب والغسيل تديرها سيدة المنزل بنفسها)، تُنبّه إلى أن السكر قد شارف على النفاد، وأن علب الأطعمة المحفوظة قد استهلكت ولم يبق الشيء الكثير في قعر كيس القهوة.

وهكذا إذ تُحَذِّرُ السيدة شانتال من المجاعة فإنها تراقب وتفتش عما تبقى وتكتب ملاحظاتها على مفكرة. وحين تكون قد دونت أرقاماً عديدة، فهي تكب على حسابات طويلة ومناقشات عديدة مع الآنسة بيرلا. وأخيراً يتم الاتفاق وتثبيت كمية كل مادة سيتزودون بها لثلاثة أشهر: سكر، رز، خوخ مجفف، قهوة، مربيات، علب بازلاء، وفاصولياء، سرطان البحر، سمك مملح أو مدخن، إلخ.

بعد ذلك يحدد يوم التسوق وتخرجان في عربة ذات صندوق للحقائب إلى بقال معتبر يسكن فيما وراء الجسور في الأحياء الحديثة.

السيدة شانتال والآنسة بيرلا تقومان بهذا السفر معاً بشكل سري، وتعودان ساعة العشاء مرهقتين لتأثرهما بارتجاجات العربة التي امتلأ سقفها بالرزم والأكياس كعربة نقل أثاث المنازل.

بالنسبة لآل شانتال، كل أجزاء باريس الواقعة في الجهة الأخرى من نهر السين تؤلف الأحياء الحديثة التي يقطنها سكان غرباء، صاخبون، ذوو سيرة غير مشرفة، ويمضون أيامهم في المجون ولياليهم في الحفلات ويرمون الأموال من النوافذ. على أن آل شانتال كانوا يصطحبون بنتيهما إلى المسرح أو الأوبرا الهزلية أو إلى المسرح الفرنسي من وقت لآخر حين تكون الصحيفة التي يقرؤها السيد شانتال قد أوصت بمسرحية ما.

يبلغ عمر الفتاتين اليوم تسعة عشر وسبعة عشر عاماً، وهما آيتان في الجمال والطول وغضتا الإهاب؛ قمتان في الأدب والتربية، ولشدة تربيتهما كانتا تمران كدميتين جميلتين دون أن يلحظهما أحد. ولم تراودني يوماً أية رغبة لأن أبدي اهتماماً بأي منهما أو أغازلهما، إذ يكاد المرء لا يجرؤ على الكلام معهما لشدة إحساسه بطهارتهما؛ ويكاد يخشى أن يكون غير لبق عندما يحييهما.

أما الأب فكان رائعاً، كثير الثقافة ومنفتحاً، طيب القلب ولكن ممن يحبون قبل كل شيء الراحة والهدوء والسكينة، وقد ساهم بشكل كبير في تحنيط عائلته ليعيش كما يشاء في جمود مستمر. يقرأ كثيراً، يتحدث بطيب خاطر ويتأثر بسهولة. ولبعده عن الاتصال والاحتكاك بالناس فقد صار جلده، كما هو حال بشرته المعنوية، مرهفاً. اقل شيء يثير عاطفته ويحركه ويؤلمه.

على أنه كانت لعائلة شانتال علاقات لكنها ضيقة، اختيرت بعناية بين الجيران. ويتبادلون أيضاً زيارتين أو ثلاث كل عام، مع أقارب يعيشون بعيداً.

بالنسبة لي فإنني أزورهم في ١٥ آب وفي يوم الملوك. وهذا جزء من واجباتي وهو عندي كفرض الصلاة في عيد الفصح عند المسيحيين.

في ١٥ آب، يدعون بعض الأصدقاء، ولكنني المدعو الوحيد عندهم في يوم الملوك.



٢

إذاً، في تلك السنة كما في سابقاتها، ذهبت للعشاء عند آل شانتال لنحتفل بعيد الغطاس، أو يوم الملوك.

كالعادة عانقت السيد والسيدة شانتال والآنسة بيرلا ووجهت تحية حلوة للآنستين لويز وبولين. وانهمرت عليّ الأسئلة عن أحداث الشارع والسياسة، وما تفكر فيه العامة بأمور طونكين[1] وعن ممثلينا. السيدة شانتال، وهي امرأة مكتنزة، وكنت دائماً أتخيل أفكارها كمربعات من الحجارة المنحوتة، اعتادت قول الجملة التالية كاستنتاج لكل حديث سياسي: «كل هذا بذار سَيِّئ لما سيأتي فيما بعد». لماذا تخيلت دائماً أن أفكار السيدة شانتال مربعة الشكل ومحدودة؟ لست أدري، لكن كل ما تقوله يأخذ هذا الشكل في مخيلتي؛ مربع.. مربع كبير بأربع زوايا متناظرة. هناك أشخاص آخرون تأخذ أفكارهم شكل دائرة تتدحرج كالإطارات. فما إن يبدؤوا

---

(١) طونكين: منطقة في فيتنام الشمالية كان لها شأن في تلك الحقبة.

بجملة عن شيء ما حتى تتدحرج وتسير وتخرج بعشرات من الأفكار المستديرة، الكبيرة منها والصغيرة فأراها تجري الواحدة بعد الأخرى حتى حدود الأفق. وآخرون أيضاً لديهم أفكار حادة الرؤوس... في النهاية، لا أهمية لهذا الأمر.

جلسنا إلى الطاولة كالمعتاد، وانتهى العشاء دون شيء يذكر.

عند تقديم الحلوى، أتوا بقالب كاتو الملوك. والحال أنه في كل عام كان السيد شانتال هو الملك. هل كان ذلك نتيجة صدفة مستمرة أو تقليد عائلي، لست أدري، لكن السيد شانتال كان يجد دوماً حبة الفول في الحلوى التي يأكلها، ومن ثم يعلن السيدة شانتال ملكة. وقد دهشت حقاً حين أحسست بشيء قاسٍ جداً كاد يكسر إحدى أسناني. سحبت هذا الشيء ببطءٍ فرأيت لعبة صغيرة من الخزف بحجم حبة فاصولياء. المفاجأة جعلتني أقول: «آه!». توجهت إليَّ الأنظار وصاح السيد شانتال وهو يصفق بيديه: «إنه غاستون. إنه غاستون. عاش الملك! يحيا الملك!».

كرر الجميع بصوت واحد: «يحيا الملك!» فذاب وجهي من الخجل، كما يحمرُّ الإنسان، دون سبب، في مواقف غبية. بقيت خافضاً بصري وممسكاً بين أصبَعَيَّ بتلك الحبة الخزفية، وقد حاولت أن أبتسم وأنا لا أعرف ماذا أقول ولا ماذا أفعل. حينذاك قال السيد شانتال: «أما الآن فعليك اختيار الملكة».

صعقت آنذاك. وخلال ثانية مرت برأسي ألف فكرة وألف افتراض. هل كانوا يرغبون أن أسمِّيَ إحدى الفتاتين؟ هل كان ذلك أسلوباً يدفعني لأن أقول من منهما أفضل؟ هل كان ذلك ضغطاً لطيفاً مهذباً من قبل الأهل باتجاه زواج محتمل؟ فإن فكرة الزواج تجول دون توقف في كل المنازل التي فيها فتيات بالغات، وتأخذ كافة الأشكال والأقنية والوسائل... اجتاحني خوف عظيم مع خجل، أمام الموقف السليم الثابت للآنستين لويز وبولين. بدا لي أن انتخاب واحدة على حساب الأخرى، أشد صعوبة من الاختيار بين نقطتي ماء؛ ثم إن خوفي من مغامرة في قصّة أجد نفسي فيها مدفوعاً إلى الزواج بالرغم مني، بشكل ناعم، وبطرق رزينة، وهادئة لا تلفت الانتباه، مثل هذه الملكية التي لا معنى لها، كان يقلقني بشكل مريع.

بغتة، خطرت ببالي فكرة، وقدمت للآنسة بيرلا اللعبة الرمزية. فوجئ الجميع في بادئ الأمر، ثم قَدَّروا بلا شك لفتتي حق قدرها ومن ثم فطنتي، لأن الكل صفقوا بحمية وكانوا يصيحون: «تحيا الملكة! تحيا الملكة!».

أما هي، العانس المسكينة، فقد اضطربت وارتبكت؛ كانت ترتجف مذعورة وتتمتم قائلة: «لا لا لا! أنا لا، أرجوك أرجوك...».

حينها، ولأول مرة في حياتي، التفت إلى الآنسة بيرلا وتساءلت عمن تكون.

لقد اعتدت رؤيتها في هذا البيت كما يرى أي منا مقاعد قديمة موشاة نجلس عليها منذ الطفولة دون أن نوليها أي اهتمام. وفي يوم من الأيام، ولا نعرف سبباً لذلك، نقول وقد سقطت أشعة الشمس على المقعد: «عجباً! إنه لغريب جداً هذا الأثاث»؛ ونكتشف أن أحد الفنانين قد أنجزه، وأن قماشه متميز. فالآنسة بيرلا لم تُثر انتباهي من قبل أبداً!

كانت جزءاً من عائلة شانتال، وهذا كل شيء؛ ولكن كيف؟ وبأية صفة؟ كانت امرأة طويلة القامة، نحيلة، تجهد نفسها كي تمر دون أن يكترث بها أحد، لكنها لم تكن غير ذات شأن. كانوا يعاملونها بمودة، أكثر من مدبرة منزل، وأقل من قريبة. حينها بدأت أفهم بعض التفاصيل، ولم تكن قد أثارت انتباهي سابقاً! السيدة شانتال كانت تناديها: «بيرلا»، أما الفتاتان فتناديانها: «آنسة بيرلا»، بينما السيد شانتال فكان يناديها بالآنسة، ربما بطريقة أكثر وقاراً.

حدقت فيها - كم كان عمرها؟ أربعون عاماً؟ نعم، أربعون عاماً - لم تكن هذه الفتاة عجوزاً، لكنها كانت تتقدم في السن. صدمتني فجأة تلك الملاحظة. كانت ترتب شعرها وتلبس وتتزين على نحو مضحك، وبالرغم من كل شيء لم تكن أبداً ذات مظهر مضحك لكثرة ما كانت تكن في نفسها من جمال بسيط، طبيعي؛ جمال مغطى، مستور بعناية. حقاً، يا لها من مخلوق طريف! كيف لم ألاحظها أبداً من قبل؟ كانت ترتب شعرها بطريقة مزرية، بخصلات امرأة مسنة تبعث على الضحك، وتحت ذلك الشعر كنت ترى جبينها الهادئ يقطعه أخدودان عميقان ينمّان عن حزن دفين، وبعينيها الزرقاوين الكبيرتين الناعمتين كنت تقرأ الوجل والفزع والتواضع؛

عينان حافظتا على البساطة وفيهما دهشة فتاة صغيرة، وأحاسيس فتيَّة حزينة قد عَبَرَتْهما لتزرع فيهما الحنان دون تعكير لصفائهما.

كل وجهها كان ناعماً ورزيناً، وهو من تلك الوجوه التي انطفأت دون أن تكون قد استهلكت أو ذبلت من الإرهاق أو انفعالات الحياة.

يا للفم الجميل! يا للأسنان الحلوة! ولكن قد يقال إنها لا تجرؤ أن تبتسم! بغتةً قارنتها بالسيدة شانتال! أجل، كانت الآنسة بيرلا أفضل، بل مئة مرة أجمل، وأكثر نعومة ونبلاً وأكثر أنفة.

صعقتني ملاحظاتي... كانوا يسكبون الشمبانيا، فمددت كأسي نحو الملكة وأنا أشرب نخبها مع تهنئة منمقة. ودَّت، كما لاحظت، أن تخبئ وجهها بفوطة السفرة، ثم بلَّلتْ شفتيها بالخمر الصافي فصاح الجميع: «الملكة تشرب! الملكة تشرب!». حينها ازداد احمرارها وكادت أن تختنق. كانوا يضحكون، لكنني لمست أن كل أهل ذلك البيت يحبونها كثيراً.



ما إن انتهى العشاء حتى أخذني السيد شانتال من ساعدي، فتلك كانت ساعة سيكاره، ساعة مقدسة. حين يكون وحده فهو يدخنه في الطريق؛ وحين يتواجد هناك ضيف على العشاء، كان يصعد بصحبته إلى قاعة البلياردو فيدخن وهو يلعب. في ذلك المساء كانوا قد أوقدوا ناراً في غرفة البلياردو لأجل يوم الملوك، وأخذ صديقي عصاه الدقيقة الناعمة ففرك رأسها بمادة بيضاء بعناية واضحة ثم قال:

- إليك يا بني!

وكان يخاطبني بكاف المخاطب مع أنني كنت في الخامسة والعشرين من عمري. فهو قد عرفني مذ كنت طفلاً.

بدأت اللعبة، تصادمت الكرات وفشلتُ في كرات أخرى؛ لكن بما أن ذكر الآنسة بيرلا كان يجول في ذهني، سألته بغتة:

- قل لي يا سيد شانتال، هل الآنسة بيرلا قريبتكم؟

توقف عن اللعب ونظر إليَّ بدهشة.

- كيف تسألني؟ ألست تعرف؟ ألست تعرف قصة الآنسة بيرلا؟

- لا.

- ألم يروِ لك والدك قصتها؟

- أبدا!.

- عجباً عجباً، هذا غريب، هذا عجيب! أوه! لكن ذلك بالفعل كان مغامرة مثيرة.

سكت ثم استأنف قائلاً:

- آه لو تعرف كم هو مثير أن تطرح عليَّ هذا السؤال اليوم وهو يوم الملوك.

- لماذا؟

- آه، تقول لماذا. اسمع. ها قد مضى على ذلك واحد وأربعون عاماً، واحد وأربعون عاماً حتى هذا اليوم، يوم عيد الغطاس. كنا في حينه نسكن «رووي - لو - تور» على الأسوار؛ لكن يجب أولاً أن أشرح لك وضع ذلك البيت حتى تتفهم تماماً. «رووي» مبنية على ساحل أو بالأحرى على أكمة تطل على حقول واسعة. كنا نملك هناك بيتاً مع بستان جميل معلق تحمله في الهواء الأسوار الدفاعية القديمة. إذاً كان البيت في المدينة، في الشارع أما البستان فكان يطل على السهل. كان هناك أيضاً باب للخروج من البستان إلى الحقول، في نهاية درج سري ضمن الأسوار، كأمثاله في القصص والروايات. هناك أيضاً طريق يمر أمام ذلك الباب الذي كان مزوداً بجرس ضخم، لأن القرويين، كي يتجنبوا دورة طويلة، كانوا يجلبون مؤنهم من هناك.

أصبح لديك تصور عن المكان، أليس كذلك؟ في تلك السنة، حين جاء يوم الملوك، انهمر الثلج مدة أسبوع، حتى كدنا نظن أن نهاية العالم تقترب. لما كنا نذهب نحو الأسوار لنلقي نظرة على السهول كان البرد يجتاح أرواحنا في ذلك البلد الأبيض الواسع المتجمد، والذي كان يلمع كالطلاء؛ حتى قيل إن الله قد غلف الأرض ليرسلها إلى أهراء العوالم القديمة. أؤكد لك أن الوضع كان يبعث على الحزن.

كنا مجتمعين اجتماعاً عائلياً حينها، وكان عددنا كبيراً: أبي، أمي، عمي، خالتي وأخواي وبنات خالتي الأربع وكنَّ فتيات جميلات؛ وقد تزوجتُ الصغرى. من كل هؤلاء لم يبق سوى ثلاثة أحياء: زوجتي وأنا وزوجة أخي التي تقطن مرسيليا. يا الله كيف ينفرط عقد العائلة! هذا يجعلني أرتجف حين أفكر في ذلك! أما أنا فكنت أبلغ من العمر خمسة عشر عاماً لأنني الآن في عامي السادس والخمسين.

إذاً كنا على وشك الاحتفال بعيد الملوك وكان السرور يملؤنا! كان الجميع في انتظار العشاء في البهو حين قال أخي البكر جاك: «هناك كلب ينبح في السهل منذ عشر دقائق؛ لابد وأنه حيوان مسكين تائه».

لم يكد ينتهي من كلامه حتى رن جرس البستان. كان صوت ذلك الجرس ضخماً كصوت ناقوس الكنيسة الذي يذكرٍّ بالموتى. سرت القشعريرة فينا جميعاً. نادى والدي الخادم وقال له بأن يذهب ويرى ما الأمر. وانتظرنا صامتين. كنا نفكر بالثلج الذي يغطي الأرض كلها. عندما عاد الرجل، أكد أنه لم ير شيئاً. لكن الكلب كان مستمراً بنباحه دون توقف، وصوت نباحه ظل يصلنا من مصدر واحد لم يتغير.

جلسنا إلى الطاولة؛ غير أننا كنا متأثرين قليلاً، وبخاصة نحن صغار السن. سارت الأمور حتى وقت الشواء، وإذا بالجرس يرن ثلاث مرات متتالية، بضربات قوية وطويلة هزت كياننا حتى نهايات أناملنا وقطعت أنفاسنا فجأة، وبقينا يحدق بعضنا في بعض وقد شلت أيدينا ونحن نصغي ويسودنا خوف غير طبيعي.

أخيراً تكلمت والدتي: «من الغريب أنهم انتظروا طويلاً حتى عادوا؛ يا «باتيست» لا تذهب وحدك؛ أحد هؤلاء الشباب سيرافقك».

نهض عمي «فرنسوا». لقد كان بالعملاق أشبه، مُعْتدّاً بقوته ولم يكن يخاف شيئاً في الدنيا. قال له أبي: «خذ بندقية؛ نحن لا نعلم ما قد يحصل».

لكن عمي لم يأخذ سوى عصا وخرج فوراً مع الخادم.

أما نحن فبقينا واجفين من الرعب والقلق، وتوقفنا عن الطعام والكلام. حاول والدي طمأنتنا فقال: «سترون أنه أحد المتسولين أو عابر سبيل تائه في هذه

الثلوج. فبعد أن قرع الجرس أول مرة ورأى أنّ الباب لم يفتح فوراً، حاول الاهتداء إلى طريقة، غير أنه حين لم يتوصل لذلك عاد نحو بابنا».

غياب عمي بدا وكأنه دام ساعة. أخيراً عاد غاضباً وهو يشتم: «لا شيء، وحق السماء، لابد وأنَّ شخصاً يمازحنا! لا شيء سوى ذلك الكلب اللعين الذي ينبح على بعد مئة متر من السور؛ لو أخذت بندقية لقتلته وأسكته».

عدنا إلى العشاء لكن الجميع كانوا متوجسين؛ كنا نشعر أن الأمر لم ينته بعد. وأن شيئاً ما سيحدث، وأن الجرس سيرن عما قريب.

بالفعل قرع لحظة تقطيع حلوى الملوك. نهض الرجال كلهم معاً. وعمي فرنسوا الذي كان قد شرب الشمبانيا، أكد أنه سيذبحه، وقد أخذه الغضب، حتى إن والدتي وزوجته ألقتا بنفسيهما عليه لمنعه. أما أبي، مع أنه كان هادئاً وعاجزاً قليلاً، (كان يجر ساقه بعد أن كسرت لسقوطه عن ظهر حصان) أعلن بدوره أنه يُريد معرفة ما يجري وأنه سيذهب. وهرع أخواي، وكانا في الثامنة عشرة والعشرين من عمرهما، ليجلب كل منهما بندقيته؛ وبما أن الجميع تغافلوا عني فقد أخذت بندقية وتهيأت لمرافقة تلك الحملة.

سرنا فوراً، أبي وعمي في المقدمة مع باتيست الذي كان يحمل قنديلاً، تلاهم أخواي جاك وبولس وكنت أنا خلفهم بالرغم من توسلات والدتي التي بقيت مع أختها وبناتها على عتبة البيت.

كان الثلج ينهمر منذ ساعة فغطى كل شيء، وأشجار السرو قد انحنت تحت ذلك الثوب الثقيل الشاحب، وكأنها أهرامات بيضاء أو قوالب مخروطية من السكر؛ كنا نرى بصعوبة، عبر غلالة الثلج المنهمر بسرعة، تلك الشجيرات المتناثرة الشاحبة. كان الثلج يسقط بغزارة ويحجب الرؤية على بعد عشر خطوات، لكن القنديل كان يرسل ضوءاً قوياً أمامنا. وعندما بدأنا النزول على الدرج الدوار المبني في السور، انتابني الخوف. فقد خيل إلي أن هناك من يسير خلفي وأن أحداً ما سيمسكني من كتفيَّ ويأخذني؛ وانتابتني رغبة في العودة؛ ولكن بما أنه كان عليَّ أن أجتاز البستان بأكمله مرة أخرى، فإنني لم أجرؤ.

سمعتهم يفتحون الباب المطل على السهل؛ وعاد عمي يسب ويشتم: «اللعنة! لقد اختفى ثانية. لو أنني لمحت ظله فقط فإنني لن أخطئه.. ذاك اللعين!».

كان منظر السهل كئيباً، أو بالأحرى إحساسي بأنه أمامي، لأنه كان غير مرئي. لم أكن أرى سوى غلالة من الثلج في كل الاتجاهات.

قال عمي: «ها هو الكلب ينبح من جديد، سأعلمه كيف أسدد أنا، فإننا سنكسب هذا على الأقل».

لكن أبي الذي كان عطوفاً رد بقوله: «يحسن بنا أن نأتي به، هذا الحيوان المسكين الذي يصرخ من الجوع، إنه ينبح طالباً الغوث؛ هذا البائس ينادي كإنسان وقع في شدَّة. هيا بنا».

تابعنا مسيرنا عبر ذلك الثلج الكثيف المتساقِط والمستمر، وعبر تلك الرغوة المتناثرة التي ملأت الليل والجو متحركة وطافية ومن ثم كانت تسقط مجمدة أجسادنا بذوبانها، مشعلة إياها بألم حاد سريع عند كل لمسة ثلج.

أقدامنا كانت تغوص حتى الركب في ذلك الثلج الرخو والبارد، وكنا نضطر لنرفع كل ساق عالياً حتى نستطيع السير. وكلما تقدمنا كان نباح الكلب يتوضح ويقوى... صاح عمي: «ها هو!» فتوقفنا لنراقبه كما يراقَب عدو يصادَف ليلاً.

أما أنا فلم أكن أرى شيئاً إلى أن انضممت إلى الآخرين ولمحته؛ كان منظر ذلك الكلب مخيفاً ورائعاً: كلب كبير اسود، كلب راعٍ ذو وبر كثيف ورأس ذئب، وقد انتصب على قوائمه عند نهاية خط ضوء قنديلنا على الثلج. لم يكن يتحرك؛ لقد صمت ووقف يحدجنا بنظره.

قال عمي: «هذا غريب، فهو لا يتقدم ولا يتراجع، أود أن أطرحه برصاصة». رد أبي بصوت حازم: «لا! يجب أن نأخذه».

أضاف أخي جاك: «لكنه ليس وحده. هناك شيء إلى جانبه».

بالفعل كان خلفه شيء أغبر لم نميزه. تابعنا السير بحذر.

حين رآنا الكلب نتقدم نحوه أقعى. لم يبد شريراً بل أظهر سروره بأنه استطاع لفت انتباه الناس.

اتجه أبي نحوه وداعبه فلعق الكلب يديه؛ وعرفنا أنه كان مربوطاً بعجلة عربة صغيرة أقرب إلى لعبة أولاد مغطاة بكاملها بثلاث أو أربع أغطية صوفية، فأزيحت بعناية؛ وعندما قَرَّبَ باتيست القنديل من باب تلك العربة التي كانت إلى حجرة صغيرة أقرب، لمحنا في داخلها طفلاً صغيراً نائماً.

عقدت الدهشة ألسنتنا. كان أبي أول من ثاب إلى رشده، وبما أنه كان صاحب قلب كبير وروح تمتاز بالحماس، مد يده فوق سطح العربة وقال: «أيها المسكين اللقيط، ستكون واحداً منا!» وأمر أخي جاك أن يجر أمامنا لقيتنا.

استأنف أبي مفكراً بصوت عالٍ:

«طفل هو ثمرة حب، جاءت أمه تقرع بابي في ليلة عيد الغطاس هذه مذكّرة بالطفل الإله».

توقف من جديد وبكل ما أتاه الله من قوة، صاح أربع مرات في تلك العتمة نحو الجهات الأربع: «لقد وجدناه» ثم تمتم وقد وضع يده على كتف أخيه: «لو أنك أطلقت النار على الكلب. يا فرانسوا؟...».

لم يجب عمي لكنه رسم إشارة الصليب في العتمة، لأنه كان دَيِّناً بالرغم من تَبَجُّحِه.

حُلَّ رباط الكلب الذي راح يتبعنا.

ما كان أجمل عودتنا إلى البيت. في أول الأمر وجدنا صعوبة كبيرة في حمل العربة على درج السور، لكننا نجحنا أخيراً وجُرَّت إلى المدخل.

كم كانت والدتي طريفة، مسرورة وحائرة! وبنات عمي الصغيرات (كان عمر الصغرى ست سنوات) بَدَوْنَ كالدجاجات حول الخم... أخيراً أخرج الطفل من عربته وكان ما يزال نائماً.. كانت طفلة لا يتجاوز عمرها ستة أسابيع. ووجدنا بين ثيابها عشرة آلاف فرنك ذهباً، نعم، عشرة آلاف وظفها أبي لتكون بائنة لها. إذاً لم تكن ابنة فقراء... لكن ربما طفلة أحد النبلاء من فتاة من سكان المدينة.. أو ربما.. وضعنا عدة افتراضات لكننا لم نعرف يوماً أي شيء.. لا شيء مطلقاً.. حتى الكلب

لم يتعرف عليه أحد. فقد كان غريباً عن المنطقة. في كل الأحوال من جاء يقرع ثلاث مرات بابنا كان يعرف أهلي حتى يختارهم بالذات.

هكذا إذاً دخلت الآنسة بيرلا بيت آل شانتال، وعمرها ستة أسابيع.

لم تعطَ اسم بيرلا إلا فيما بعد. وسميت لدى عمادتها: «ماري، سيمون، كلير»، كلير، ليكون اسم عائلتها.

أؤكد لك أن عودتنا إلى غرفة الطعام كانت بمنتهى الطرافة، مع تلك الطفلة التي استيقظت وبدأت تنظر إلى الناس من حولها بعينيها الزرقاوين نظرة غموض واضطراب.

جلسنا إلى المائدة ووزع قالب الكاتو. يومها كنت الملك واتخذت بيرلا ملكة، كما فعلت أنت منذ ساعة، وهي لم تشك يومذاك مطلقاً بالشرف الذي نالته.

إذاً تبنينا الطفلة وتربت مع العائلة، وكبرت؛ ومضت السنون. كانت لطيفة ورقيقة ومطيعة. أحبها الجميع وكان من الممكن أن تفسد تربيتها لو لم تتدخل أمي وتمنع حصول ذلك.

كانت أمي امرأة تحب النظام والتراتبية. وافقت على معاملة كلير الصغيرة كأولادها. لكنها كانت مع ذلك تصر على إبقاء المسافة التي تفصل بيننا واضحة، وعلى توضيح الأمور.

وما إنْ بدأت الطفلة تدرك، عَرَّفتها بقصتها وأدخلت في نفسها بلطف وحنان أنها بالنسبة لآل شانتال، ابنة بالتبني، استقبلت لديهم لكنها تبقى غريبة.

تفهمت كلير هذا الوضع بذكاء غريب وغريزة مدهشة؛ وعرفت كيف تأخذ وتحتفظ بالمكان الذي أفرد لها بلباقة لا مثيل لها وفطنة ولطف، حتى إنها كانت تؤثر في والدي فتجعله يبكي.

تأثرت والدتي أيضاً بعرفان الجميل والإخلاص المشوب بقليل من الخوف لدى تلك المخلوقة الناعمة الغضة حتى صارت تناديها: «يا ابنتي». أحيانا حين كانت الفتاة تقوم بعمل جيد ودقيق، كانت ترفع أمي نظاراتها إلى جبينها، وهذا كان دليلاً منها على تأثر لديها، وكانت تكرر: «إن هذي الفتاة دُرَّةٌ، درة حقيقية هذه البنية!» وبقي اسمها بيرلا (أي دُرَّة) بالنسبة لنا جميعاً منذ ذلك الوقت.

٤

صمت السيد شانتال، وكان جالساً على طاولة البلياردو مؤرجحاً قدميه ممسكاً بكرة بيده اليسرى ويُقَلِّبُ بيمناه قطعة قماش تستخدم لمحو النقاط من لوح الأردواز، وكنا نسميها خرقة الطبشور. بدأ يتكلم وحده حينها، بصوت عميق وقد احمرَّ قليلاً؛ غار بعيداً في ذكرياته بتمهل عبر أشياء قديمة وأحداث كانت تستيقظ في أفكاره، كما يسير المرء في بساتين العائلة القديمة حيث تربى، وحيث كل شجرة وكل درب وكل نبتة، شوكية كانت أم غاراً ذا رائحة زكية، أو شجر الزينة الذي تسحق حباته الحمراء المكتنزة بين الأصابع، تُبْرِزُ أمامه، عند كل خطوة، حدثاً من حياته الماضية، واحداً من تلك الأحداث الضئيلة اللذيذة والتي تشكل العمق بالذات ونسيج الوجود.

بقيتُ أمامه مستنداً إلى الجدار ويداي متكئتان على عصا البلياردو.

بعد دقيقة استأنف قائلاً: «يا إلهي، كم كانت جميلة في سن الثامنة عشرة.. رشيقة.. كاملة... آه كم كانت مليحة وطيبة وساحرة!.. كانت لها عينان زرقاوان شفافتان يشع منهما النور. أنا لم أرَ قط في حياتي لهما شبيهاً!.

صمت ثانية فسألته: «لمَ هي لمْ تتزوج؟».

أجاب، غير موجه جوابه لي وإنما لكلمة «تتزوج».

– لماذا؟ لماذا؟ هي رفضت... رفضت. مع أنها كانت تملك ثلاثين ألف فرنك كبائنة. وقد طُلِبَتْ يدها عدة مرات.. رفضت! بدت حزينة في تلك الفترة. ذلك كان حين تزوجت ابنة عمي شارلوت الصغيرة، زوجتي التي خطبتها مدة ست سنوات».

حدَّقتُ بالسيد شانتال فبدا لي أنني أخترق روحه، أنني أدخل بغتة في كارثة أليمة متواضعة لقلوب شريفة، مستقيمة، قلوب لم تعرف مثلبة، في قلب غير معترف به وغير مُكْتَشَف ولم يعرفه أحد حتى ضحاياه الخرساء المستسلمة.

فجأة وجدتني مدفوعاً بفضول جريء فقلت:

- كان من المفترض أن تتزوجها أنت يا سيد شانتال؟
ارتعش، ونظر إلي ثم قال:
- أنا؟ أتزوج من؟
- الآنسة بيرلا.
- ولماذا؟
- لأنك كنت تحبها أكثر من ابنة خالتك.
حدجني بنظرة غريبة وعينين مستديرتين من الدهشة، ثم همس:
- أنا أحببتها؟ كيف؟ ومن قال لك ذلك؟...
- بالله عليك، هذا واضح، حتى انك بسببها تلكأت طويلاً لتتزوج من ابنة خالتك التي انتظرتك ست سنين».

أفلت الكرة من يده اليسرى وأمسك بكلتي يديه خرقة الطبشور، وغطى بها وجهه وشرع ينتحب. كان يشهق ويبكي بطريقة محزنة مزرية، كإسفنجه تعصرها، كانت دموعه تسيل من عينيه وفمه وأنفه. كان يسعل ويبصق وينفّ في تلك الخرقة، ويمسح عينيه ويعطس وتسيل دموعه مدراراً على وجهه ويخرج أصواتاً من حنجرته.

أما أنا فقد كنت خجلاً ووددت لو أهرب إذ لم أعد أعرف ما أقول، وما أفعل وماذا عليَّ أن أحاول فعله.

فجأة وصلنا صوت السيدة شانتال عبر الدرج: «هل سينتهي تدخينكم قريباً؟».

فتحت الباب وصحت: «نعم سيدتي، ها نحن قادمون».

ثم هرعتُ نحو زوجها وأمسكتُ بساعديه قائلاً: «سيد شانتال، يا صديقي أصغِ إليّ، زوجتك تناديك، هيا عد لهدوئك، يجب أن تنزل، تماسك!».

قال متلعثماً: «نعم، نعم، أنا آتٍ... يا للفتاة المسكينة.. قل لها إني آتٍ».

ثم بدأ يمسح وجهه بدقة بتلك الخرقة التي كانت، مدة سنتين أو ثلاث تمسح العلامات عن لوح الأردواز، ثم بدا، نصف أبيض ونصف أحمر؛ جبينه فمه، خداه وذقنه غطاها الجير وعيناه متورمتان تملؤهما الدموع.

أخذته من يديه إلى غرفته وأنا أتمتم: «استميحك عذراً، أعتذر بشدة يا سيد شانتال لأنني كدّرتك.. لكنني لم أكن أعرف..».

شد على يدي وقال: «نعم... نعم... هناك أوقات صعبة..».

ثم غطّس وجهه في وعاء الماء، ولما رفعه لم يكن قد عاد لحالته الطبيعية. خطرت لي فكرة، إذ كان قلقاً لما شاهد نفسه في المرآة، فقلت له: «يكفي أن تروي لهم أن عينك قد تعرضت لذرة غبار ويمكنك أن تبكي أمام الناس جميعاً قدر ما شئت».

نزل بالفعل وهو يفرك عينيه بمنديله، فسادهم القلق، وكل واحد منهم كان يريد البحث عن ذرة الغبار التي لم يجدوها أبداً؛ ثم رووا حالات مشابهة اضطرت الناس لاستدعاء طبيب.

أما أنا فقد ذهبت إلى الآنسة بيرلا لأراها، وقد أقلقني فضول شديد، فضول تحول إلى عذاب. من المؤكد أنها كانت حقاً جميلة بعينيها الحلوتين الواسعتين، يشع منهما الهدوء وكأنهما لم يسدل عليهما جفن كما يفعل باقي البشر. هندامها كان بلا ترتيب كهندام عانس ليس بلائق غير أنه لم يؤثر في تصرفها الرزين.

بدا لي أنني كنت أرى فيها، كما رأيت قبل ذلك بقليل، في روح السيد شانتال حياتها المتواضعة البسيطة والمخلصة من أولها حتى آخرها. لكن رغبة كانت على شفتي في أن أسألها هي أيضاً إن كانت قد أحبته. أو كانت قد تعذبت مثله عذاباً مكبوتاً، طويلاً وحاداً، لا يراه أحد ولا يعلم به أحد ولا يمكن لأحد أن يكشفه، لكنه يفلت من عقاله ليلاً في عزلة ظلام الغرفة. كنت أنظر إليها وأرى قلبها يدق تحت ثيابها وأتساءل إن كان ذلك الوجه البريء يئن كل مساء متكئاً على وسادة رطبة ويجهش بالبكاء ويهتز جسمها وينتفض مذعوراً من حرارة السرير المحرقة.

قلت لها هامساً، كما يفعل الأولاد وقد كسروا حلية ليروا ما بداخلها: «لو أنك رأيت السيد شانتال وهو يبكي منذ قليل لامتلأ قلبك شفقة عليه».

ارتجفت ثم قالت: «كيف، هل كان يبكي؟».

- نعم، كان يبكي!

- وما سبب بكائه؟

بدت متأثرة جداً، فأجبتها:

- بسببك!.

- بسببي أنا؟

- نعم. لقد روى لي كم كان يحبك فيما مضى، وكم عانى حين تزوج زوجته بدلاً منكِ.

بدا وجهها الشاحب وكأنه استطال قليلاً، وعيناها المفتوحتان الهادئتان أغمضتا فجأة وبسرعة حتى كدت اعتقد أنها أغمضتهما إلى الأبد.. انزلقت عن كرسيها إلى أرض الغرفة وانهارت عليها بهدوء مثلما يقع شال على الأرض.

صحت: «النجدة! النجدة! الآنسة بيرلا قد أغمي عليها».

هرعت السيدة شانتال مع بناتها، وفيما هنَّ يجلبن الماء والمنشفة والخل، أخذت قبعتي وانسللت.

سرت بخطوات واسعة وقلبي يهتز وروحي ملأى بالندم. لكنني كنت أحياناً أشعر بالسرور واعتقدت بأنني قمت بعمل ضروري يستحق المديح.

كنت أتساءل: «هل أخطأت؟ هل أصبت». كانا يحتفظان بهذا في روحيهما كما يحفظ الرصاص في جرح ملتئم. ألن يكونا الآن أكثر سعادة؟ لقد تأخر الوقت حتى يعود عذابهما، لكنه حان لكي يتذكراه بحنو وعاطفة.

ربما في إحدى أمسيات الربيع التالي، وقد تأثرا بشعاع من ضوء القمر سقط على العشب عند أقدامهما بين الأغصان، سيتصافحان إحياءً لذكرى عذابهما المكتوم والأليم؛ ربما سيمرر هذا العناق القصير، في عروقهما الرعشة التي لم يعرفاها يوماً، ويرمي لهذين المائتين، اللذين رُدَّت إليهما الحياة، خلال ثانية واحدة، ذلك الإحساس السريع الإلهي بتلك النشوة وذاك الجنون الذي يهب المحبين، عبر رعشة، سعادة أعظم مما يمكن أن يحصل عليه باقي البشر خلال حياتهم.

العم ميلون

منذ شهر والشمس ترسل أشعتها اللاهبة على الحقول، والحياة الجميلة تتفتح تحت ذلك الوابل من اللهب. الأرض بثوب أخضر على مرمى النظر؛ والسماء بزرقة البحر حتى الأفق. المزارع النورمندية المتناثرة في السهل تبدو من بعيد كغابات صغيرة تحدق بها أشجار الزان الباسقة. عن كثب، حين يزاح الحاجز الخشبي المنخور، تخال نفسك أمام بستان عملاق، لأن أشجار التفاح القديمة القاسية كأيدي القرويين، قد غطاها الزهر. والأغصان التي شاخت، اسودَّت وكثرت فيها النتوءات، ونمت في صفوف، رافعة قممها البهية البيضاء والوردية، نحو السماء. وعطرها الناعم بعد تفتحها يمتزج بروائح الإسطبلات المشرعة الأبواب وبخر الأسمدة المتفاعلة التي يعلوها الدجاج.

الوقت ظهر، والعائلة تتناول طعام الغداء في ظل شجرة الإجاص التي غُرست أمام الباب: الأب والأم والأولاد الأربعة مع خادمتين وثلاثة أُجَرَاء. كلامهم قليل، يأكلون الحساء ثم يكتشفون قصعة اليخنة المليئة بالبطاطا المغمسة بشحم الخنزير. ومن وقت لآخر تنهض خادمة لتملأ الوعاء بالسيدر[1].

الرجل في الأربعين من عمره، يحدِّق في دالية أمام الباب وقد تسلقت ساقها عارية متعرجة على طول الجدار.

أخيراً قال: «برعمت دالية الوالد قبل الأوان هذه السنة، وربما ستحمل بوفرة».

التفتت الزوجة وألقت نظرة دون أن تتفوه بكلمة.

---

(١) خمر التفاح.

هذه الدالية زرعت حيث قتل الوالد رمياً بالرصاص.

حدث ذلك إبان حرب ١٨٧٠ حين احتل الألمان كل المنطقة، وقد صمد أمامهم الجنرال «فيدرب» مع جيش الشمال.

على أن هيئة الأركان الألمانية قد تمركزت في مزرعة العم «بيير ميلون» الذي استقبلهم فيها قدر ما استطاع.

مضى شهر وطلائع الألمان تراقب بحذر في تلك الدسكرة بينما لم يحرك الفرنسيون ساكناً وهم على بُعد عشرة فراسخ من هذا المكان، ومع ذلك، كل صباح كان بعض فرسان الألمان يختفون.

كل دوريات الاستطلاع المؤلفة من جنديين أو ثلاثة كانت تذهب بلا عودة.

كانت جثث الرجال تلتقط هنا وهناك في شعاب الوادي أو في ثنية من ثنايا النهر، أو في حفرة، إلى آخر ما هنالك من أمكنة.. حتى الخيول، كانوا يجدونها فوق الطرقات مذبوحة بحد السيف.

بدا وكأن هذا القتل الجماعي كان عمل أشخاص معينين لم يستطع أحد اكتشاف هوياتهم.

عَمَّ الهلع البلاد وأعدم أناس كثيرون لمجرد وشاية، وسجنت النساء، فقد أراد الألمان أن يتوصلوا بالإرهاب، إلى اعترافات من الأولاد لكن دون جدوى.

صباح أحد الأيام وجد العم ميلون ملقى في إسطبله وقد شَجَّ وجهه جرح عميق. كما وجد اثنان من الجنود الألمان وقد بقرت أحشاؤهما، على بعد ثلاثة كيلو مترات من الدسكرة. أحدهما كان لا يزال ممسكاً بسيفه المدمى، مما يدل على أنه حاول الدفاع عن نفسه.

عقد مجلس حربي فوري في الهواء الطلق أمام المزرعة واستدعي العجوز.

كان له من العمر ثمانية وستون عاماً، صغير القد نحيلاً، وفي جسده بعض اعوجاج، يداه كبيرتان، هما بملاقط السرطان المائي أشبه؛ شعره القليل الأغبر كأنه

زغب بطة صغيرة ظهر تحته لحم جمجمته. جلد عنقه البني كـان يغطـي أوردة كبـيرة تختفي خلف فكيه ثم تظهر ثانية عند صدغيه. كان معروفاً في المنطقة ببخله وبصعوبة التعامل التجاري معه.

وقف بين أربعة من الجنود أمـام طاولـة المطـبخ التـي جُـرَّت لهـذا الغـرض، وجلس قبالته خمسة ضباط يرأسهم عقيد.

ابتدره العقيد بالفرنسية قائلاً:

«أيها العم ميلون، منذ أن وصلنا هذا المكان، لم يكن لدينا إلا الإطراء عـلى معاملتك التي لا غبار عليها، فقد كنت دائماً لطيفاً، لا بل مجاملاً لنا؛ أما اليوم فإن تهمة خطيرة تثقل كاهلـك ويجـب إيـضاح كـل لُـبْس. كيـف ولمـاذا جرحـت في وجهك؟».

لم يجب القروي بشيء، فتابع العقيد:

«إن صمتك يدينك يا عم ميلون، لكن أريد أن تجيبني. أتـسمع؟ هـل تعـرف من قتل الجنديين اللذين وجدا هذا الصباح قرب كالفير؟»

أجابه العجوز بوضوح: «أنا».

صعق العقيد فصمت برهة وهو يحدق بالسجين. وبقـي العـم ميلـون هـادئ الأعصاب، ساهماً كالفلاحين، خافضاً بصره وكأنه يكلم كاهن القريـة. شيء واحـد كان ينم عن اضطرابه، فقد كان يحاول ابتلاع لعابه بجهد كبير لأنه كاد أن يختنق.

كانت عائلته، المؤلفة من ابنه جان وكنته وحفيديه، تقـف عـلى بعـد خطـوات خلفه وقد تملكهم الذهول لهول ما رأوا.

تابع العقيد: «هل تعرف من قتل كل جنـود الاسـتطلاع الـذين كنـا نجـدهم موتى كل صباح منذ شهر، في أنحاء هذه الأرياف؟»

أجاب العجوز دون ارتباك: «أنا».

- أنت قتلتهم جميعاً؟

- كلهم على الإطلاق، نعم أنا.

- أنت وحدك؟

- أنا وحدي.

- قل لنا كيف كنت تقوم بذلك.

هذه المرة بدا على الرجل التأثر فقد تخيل أنه سينزعج من طول الشرح والتفاصيل فقال: «لا أعرف، فكل هذا حدث تلقائياً».

- أحذرك بأن عليك الإقرار بكل شيء، ويحسن بك أن تقرر ذلك فوراً، كيف بدأت؟

ألقى الرجل نظرة توجس وقلق على عائلته المصغية خلفه.. تردد برهة ثم قرر فجأة أن يتكلم: «كنت عائداً في المساء والساعة تقارب العاشرة، وذلك غداة يوم مجيئكم؛ أنتم ومن ثم جنودكم كنتم قد استوليتم على ما تربو قيمته على خمسين درهماً من العلف والكلأ، وبقرة وخروفين. قلت لنفسي: «سيدفعون بقدر ما يأخذون مني». ثم إنه كان في قلبي أشياء كثيرة أخرى سأقولها فيما بعد.. رأيت حينئذ أحد فرسانكم يدخن قرب الساقية خلف أهرائي. استللت منجلي وسرت إليه بخفة النسيم بحيث لم يشعر بوجودي. وبضربة واحدة فصلت رأسه عن جسمه حتى إنه لم يجد الوقت ليقول «أف»، وما عليكم إلا أن تبحثوا في قعر المستنقع وسوف تجدونه في كيس فحم مع حجر من الحاجز في القاع.

بعد تفكير أخذت كل حاجياته، من حذائه حتى عمرته وخبأتها في مطفأة الكلس عند الغابة الصغيرة خلف فناء الدار.

صمت العجوز، أما الضباط فكان يتطلع بعضهم ببعض حيارى، مذهولين. وعاد العقيد ليتابع الاستجواب، وهذا ما علموه:

ما إن أتم العجوز فعلته رسخت فكرة في ذهنه، وهدف هو «قتل الألمان». فقد كان يمقتهم ويبغضهم بضراوة في سره، بُغْضَ فلاح جشع لا يخلو من روح وطنية. لقد نضجت خطة في رأسه، كما قال. وانتظر عدة أيام.

في تلك الفترة ترك له الألمان الحبل على الغارب، فكان يغدو ويؤوب كلما راق له ذلك، لأنه أبدى لهم كل خضوع واتضاع وتفان. كل مساء كان يرى السعاة

يتوجهون إلى أماكن مختلفة.. في إحدى الليالي خرج بعد أن سمع اسم البلدة التي اتجه إليها السعاة، ولما كان قد تعلم من الألمانية بضع كلمات، فقد تبعهم لينفذ مخططه.

تسلل من بيته عبر الفناء الخلفي إلى الغابة ونحو مطفأ الكلس، وانسل داخل ممشى طويل. هناك أخذ ثياب الألماني فارتداها، ثم بدأ يزحف في الحقول، متستراً خلف التلع والمنحدرات، مرهفاً السمع لكل نأمة والقلق يملأ قلبه كصياد خالف القانون.

عندما رأى أن الوقت حان، اقترب من الطريق واختبأ خلف دغل وانتظر. أخيراً، عند منتصف الليل، سمع وقع حوافر حصان على أرض الطريق الصلبة، فألصق أذنه بالأرض ليتأكد من أن فارساً واحداً كان يقترب، فاستعد.

دنا الساعي على حصانه ومعه برقيات. وفي عيونه حذر وأذناه تنصتان. ما إن صار على بعد بضعة أمتار، زحف العم ميلون إلى الطريق وهو يئن طالباً النجدة باللغة الألمانية، فتوقف الخيال ورأى أمامه ألمانياً أعزلاً فظنه جريحاً. ترجل عن فرسه وتقدم دون أن يرتاب في أمره. ولما انحنى نحو ذلك الغريب تلقى ضربة سيف وسط أحشائه فتدحرج ميتاً دون احتضار، تهزه بعض ارتعاشات فراق الروح.

نهض النورماندي وأشرق وجهه الفلاّحي بسرور صامت ثم قطع حنجرة الألماني ليتم فرحته، وجره نحو حفرة قريبة وألقاه.

أما الحصان فكان ينتظر سيده بهدوء فامتطاه العم ميلون وسار بين السهول.

بعد ما يقارب الساعة، شاهد اثنين من السعاة عائدين إلى الثكنة، فتوجه نحوهما صارخاً «النجدة! النجدة». انتظره الألمانيان دون ارتياب لأنه ما زال مرتدياً الزي العسكري... مر بينهما العم ميلون كالقنبلة، مجندلاً الواحد بالسيف والآخر بالمسدس. ثم ذبح الخيول، الخيول الألمانية! وعاد بتؤدة إلى مطفأ الكلس في الغابة القريبة حيث ترك الحصان في أقصى الممر وخلع البزة العسكرية وارتدى ثيابه وعاد فنام حتى الصباح.

لم يخرج بعد ذلك مدة أربعة أيام منتظراً نهاية التحقيق. وفي اليوم الخامس غادر منزله وقتل جنديين لاجئاً إلى الأحبولة نفسها، ومنذ ذلك الحين لم يتوقف أبداً؛ في كل ليلة كان يهيم على وجهه في السهول والأدغال، وكلما صادف ألمانيا قتله وترك جثته هنا أو هناك، وما إن كان ينهي مهمته حتى يعود إلى مخبئه تاركاً فيه الحصان والبزة العسكرية.

عند الظهر كان يذهب بكل هدوء حاملاً الشعير والماء لحصانه القابع في المخبأ، مظهراً له الكرم والسعة لأنه كان يطلب منه عملاً عظيماً.

ولكن واحداً ممن هوجموا في الأمس، جرح وجه القروي العجوز وهو يدافع عن نفسه.

على أن العجوز تمكن من قتل الاثنين معاً ورجع كالمعتاد وخبأ الحصان ثم ارتدى ثيابه. غير أنه خلال عودته، أحس قواه تخور فسقط أرضاً وزحف نحو الإسطبل لأنه لم يكن في وسعه أن يعود إلى البيت.

وجدوه هناك والدم ما زال ينزف من جرحه فوق القش.

لما انتهى من روايته، رفع رأسه فجأة ونظر إلى الضباطِ الألمان بكبرياء، فسأله العقيد وهو يفتل شاربيه:

- أليس لديك شيء آخر تضيفه؟.

- لا، لا شيء، لقد أنهيت مهمتي، الحساب دقيق، فقد قتلت ستة عشر بدون زيادة ولا نقصان.

- أتدري أنك ستموت.

- لم أطلب منك الرحمة أو العفو.

- هل خدمت في الجيش؟

- نعم، واشتركت في القتال قديماً؛ ثم إنكم قتلتم والدي الذي كان جندياً زمن الإمبراطور الأول، بالإضافة إلى أنكم قتلتم ابني الأصغر «فرنسوا» الشهر الماضي قرب «إيفرو». إن كنت مديناً فقد دفعت ونحن متخالصون.

نظر الضباط بعضهم إلى بعض. وتابع العجوز.

«ثمانية من أجل أبي، وثمانية من أجل ابني، لذا أنا بريء الذمة نحوكم. أنا لم آتي إليكم متعمداً قتالكم، وأنا لا أعرفكم ولا أعرف من أين أنتم، وها أنتم في بيتي تأمرون فيه وتنهون كأنكم في بيوتكم. انتقمت من الآخرين ولست على ذلك نادماً».

ثم رفع صدره المتيبس وصالب يديه في وقفة بطل متواضع.

تهامس الألمان طويلاً، ثم تصدى من بينهم نقيب، كان قد فقد ابناً له في الحرب منذ فترة وجيزة، ليدافع عن العم ميلون.

حينئذ نهض العقيد واقترب من العم ميلون وقال له هامساً:

«اسمع أيها العجوز، من الممكن أن نجد وسيلة لإنقاذ حياتك بأن...»

لكن الرجل لم يكن مصغياً وعيناه تحدقان بوجه الضابط المنتصر، بينما كان الهواء يداعب بقايا الوبر على جمجمته، عبس عبسة هائلة تجعد من جرائها وجهه المجروح، وأخذ نفساً عميقاً ثم أراق على وجه الضابط ما احتوى فمه. رفع الضابط المهتاج يده لكن العجوز عاجلة بالبصاق على وجهه مرة أخرى.

انتفض الضباط كلهم وبدؤوا بإعطاء الأوامر حانقين.

في أقل من دقيقة صار العجوز، الذي بقي غير مكترث، مشدوداً إلى الجدار. وانهمر عليه الرصاص وهو يرسل ابتسامة لابنه البكر جان وكنته والصغيرين اللذين كانا ينظران برعب إلى ما يجري.

* * *

الصعلوك

كان قد عرف أياماً أفضل بالرغم من بؤسه وعاهته.

في الخامسة عشرة من عمره سحقت عربة ساقيه على طريق «فارفيل»، منذ ذلك الوقت وهو يتسول جاراً قدميه على الطرقات بين دروب المزارع، يتأرجح على عكازتين وقد تسببتا بارتفاع في كتفيه لتصلا حتى أذنيه، فبدا رأسه وكأنه قد زرع بين جبلين.

وجده كاهن «بييت» ملقى في حفرة ليلة سبت الأموات، ولذلك فقد دعي «نيقولا توسان[1]» ونشأ بفضل الصدقات والإحسان، وبقي بعيداً عن كل تعليم، ومشوهاً، بعد أن سُقِيَ بضع كؤوس من شراب مسكر قدمها له خباز القرية بهدف الضحك، ومنذ ذلك الحين أصبح متشرداً لا يعرف سوى التسول.

فيما مضى كانت بارونة «آفاري» تتخلى له، لكي ينام، عما يشبه الجحر الممتلئ بالقش، قرب خم الدجاج في المزرعة المتصلة بالقصر: كان على يقين أنه سيجد دوماً قطعة خبز وكأساً من «السيدر»[2] عندما يفتك به الجوع. وغالباً ما كان يجد هناك بضعة قروش ألقتها السيدة العجوز من أعلى درج المدخل أو من نوافذ غرفتها.. لكنها توفيت.

في القرى لم يكن أحد يعطيه شيئاً، مع أنهم كانوا يعرفونه تمام المعرفة، وقد عيل صبرهم من رؤيته مدة أربعين عاماً، وهو ينقل بين المساكن المتداعية جسده الرث المشوّه المرتكز على قوائم خشبية. على أنه لم يكن يريد المغادرة فهو لا يعرف

---

(١) جميع القديسين.

(٢) عصير كحولي مصنوع من التفاح.

شيئاً في الدنيا إ لاهذا الركن من البلاد، هذه الدساكر التي لا يتجاوز عددها الثلاث أو الأربع حيث أمضى حياته البائسة. لقد رسم حدوداً لمنطقة تسوله اعتاد ألا يتجاوزها أبداً.

كان يجهل إن كان العالم ممتداً أبعد من الأشجار التي حَدَّت من رؤيته. لم يكن ليتساءل عن ذلك. وإذ كلَّ القرويون من مصادفته عند أطراف حقولهم أو بمحاذاة حفراتهم صاروا يصيحون به:

- لماذا لا تفارقنا أبداً إلى القرى الأخرى بدلاً من تنقلك على عكازيك؟

لم يكن يجيب بل يبتعد وقد تملكه الخوف الغامض من المجهول، خوف فقير مسكين يهاب بشكل مشوش آلاف الأشياء، والوجوه الجديدة، والإهانات، ونظرات الارتياب التي يوجهها إليه الناس الذين لا يعرفونه، والدرك الذين كانوا يسيرون اثنين اثنين على الطرقات، هم كانوا يجعلونه يغطس، غريزياً، في أي دغل يصادفه أو خلف كومة حصى.

عندما كان يلمحهم من بعيد يلمعون تحت أشعة الشمس، كانت تعتريه فجأة خفة في الحركة نادرة، خفة وحشية كي يبلغ مخبأ. لقد كان يتدحرج مفلتاً عكازيه ليسقط كخرقة، ويلتف على ذاته ليصبح كرة صغيرة غير مرئية وقد سوَّى نفسه بمأواه واختلطت أسماله الرثة مع تراب الأرض.

ومع أنهم لم يتعرضوا له يوماً، لكنه كان يحمل ذلك الخوف في دمه كما لو أنه أخذه مع هذه الحيلة كإرث عن أهله الذين لم يعرفهم قط.

لم يكن يملك مأوى ولا سقفاً أو كوخاً، أو ملجأ. كان ينام في أي مكان صيفاً، وفي الشتاء كان يندس تحت مخازن الحبوب أو في الإسطبلات بمهارة لافتة. وكان يفر هارباً دون أن ينتبه لوجوده أحد. كان يعرف الأمكنة المثقوبة لكي يلج منها إلى الأبنية؛ واستخدامه الدائم لعكازيه أضفى على ساعديه قوة مدهشة، إذ كان يتسلق بقوة قبضتيه فقط، إلى مخازن العلف العالية في المنازل حيث كان يمضي أربعة أو خمسة أيام بلا حركة وذلك عندما يكون قد حصل على مؤونة كافيةخلال جولته.

كان يعيش عيشة وحوش الغابة بين البشر، دون أن يعرف أحداً أو يحب أحـداً، ولم يكن يثير لدى القرويين إلا نوعاً من الازدراء والإهمال والعداء. لقبوه «بـالجرس»، لأنه كان يتأرجح بين عكازيه الخشبتين كما يتأرجح الجرس على حوامله.

مضى يومان ولم يذق طعاماً، إذ لم يعد أحد يعطيه شيئاً، وقد لفظه الجميع. على الأبواب كانت النساء يصرخن نحوه وهو آتٍ من بعيد:

- ألن تذهب الآن؟ لقد أعطيتك خبزاً منذ ثلاثة أيام فقط!

ويستدير على دعامتيه ويتجه إلى البيت المجاور حيث يستقبل بنفس الطريقة.

كانت النساء يتناقلن الكلام من باب لآخر:

- لن نستطيع تقديم الطعام لهذا الخامل طوال العام.

لكن الخامل هذا كان بحاجة يومية للطعام.

كان قد جـال في «سـانتيلير»، «فارفيـل» وفي «البييـت» دون أن يظفـر بقـرش واحد أو كسرة خبز، بقي له أمل وحيد في «تورنول»؛ لكن كان عليه أن يجتـاز ميلـين على الطريق العام وهو يشعر بإرهاق بحيث لم يعد بإمكانه أن يجر نفسه لأن بطنه كان فارغاً كجيبه.

مع ذلك فقد مشى.

كان ذلـك في كـانون الأول والـريح البـاردة تجـول في الحقـول وتـصفر عـلى الأغصان العارية؛ والغيوم تعدو سابحة في الـسماء المنخفـضة المعتمـة مـسرعة نحـو المجهول. كان ذلك العاجز يسير على مهل متكئاً على عكازيه ينقل الواحد تلو الآخر وقد أرهقه الجهد مستنداً على ساقه الملتوية الباقيـة والمنتهيـة بقـدم معوجـة مـشوهة مغطاة بمزق من القماش.

من حين لآخر كان يجلس إلى جانب الطريق يأخذ قسطاً مـن الراحـة لـدقائق معدودة. كان الجوع يبعث الحزن في روحه المشوشة المثقلة، وفي رأسه فكرة وحيـدة: «أن يأكل» لكنه لم يكن يعلم بأية وسيلة.

عانى من التعب ثلاث ساعات على الطريق؛ وحين لمح أشـجار القريـة أسرع في تحركه.

أول قروي التقاه وطلب إليه صدقة أجابه:

- هذا أنت ثانية يا ذا السلوك القذر؛ ألن نتخلص منك يوماً!..

ابتعد «الجرس» فقوبل بسوء المعاملة أمام الأبواب وأبعدوه دون أن ينال شيئاً مع ذلك تابع جولته بصبر وعناد ولم يحصل على فلس واحد.

حينئذ جال على المزارع سائراً عبر الأراضي التي جعلتها الأمطار طرية، منهكاً وغير قادر على رفع عكازيه. طرد من كل مكان دنا إليه في ذلك اليوم البارد الكئيب حيث ينقبض القلب وتهتاج النفوس وتسود العتمة على الأرواح حين لا تنفتح الأيدي للعطاء ولا للنجدة.

عندما أنهى زيارته لجميع البيوت التي كان يعرفها، ذهب ليرتمي في زاوية حفرة أمام باحة المعلم «شيكيه». انزلقَ، كما كان يقال للتعبير عن كيفية سقوطه بين عكازيه مزلقاً إياهما تحت ساعديه، وبقي طويلاً بلا حراك، ويتضور جوعاً، ولكن جوعه الوحشي كان شديد الفظاظة على بؤسه اللامحدود.

كان ينتظر المجهول، انتظاراً غامضاً لطالما بقي فينا، انتظر في زاوية ذلك الفناء في الهواء الجليدي، ذلك العون الخفي الذي يرتجى من السماء أو من البشر، دونما استفسار عن مصدره أو كيفية وصوله أو سببه. مجموعة من الدجاجات السوداء كانت تمر باحثة عن لقمة عيشها في الأرض التي تغذي الكائنات جميعاً. في كل لحظة كانت تلتقط بمناقيرها حبوباً أو حشرات غير مرئية، ثم تتابع بحثها البطيء الواثق.

«الجرس» كان يراقبها دون أن يفكر في أي شي؛ ثم راودته فكرة اخترقت معدته بالأحرى دون رأسه، بل إن ما راوده كان إحساساً أكثر منه فكرة، بأن إحدى تلك الدجاجات قد تكون طيبة المذاق لو شويت على نار الحطب.

ما اعتراه أي شك بأنه سيرتكب سرقة. أخذ حجراً كان في متناول يده، ولأنه كان بارعاً فقد قتل فوراً الدجاجة الأقرب إليه. سقطت على جانبها وهي ترف بجناحيها. فرت الدجاجات الأخرى تتأرجح على قوائمها النحيلة، أما «الجرس»، فقد تعمشق ثانية على عكازيه وسار ليلتقط صيده بحركات تشبه حركات الدجاجات.

حين دنا من ذلك الجسم الأسود الملطخ رأسُه بالحمرة، تلقى دفعة هائلة في ظهره جعلته يفلت عصيَّه ويتدحرج بضع خطوات إلى الأمام. استشاط المعلم «شيكيه» غضباً وانقض على هذا الذي أغار قاصداً سلبه دجاجاته فأشبعه ضرباً مجنوناً، كما يضرب الفلاح المسلوب، مستخدماً قبضة يده وركبته على كل أنحاء ذلك المعاق الذي لم يكن يستطيع الدفاع عن نفسه.

بدورهم وصل رجال المزرعة وجعلوا يكيلون اللكمات لهذا المتسول. وبعد أن أنهكهم ضربه، لملموه ثم حملوه إلى مخزن الحطب حيث احتجزوه بينما ذهبوا لاستدعاء الدرك.

بقي «الجرس» ممدداً على الأرض نصف ميت والدم ينزف منه والجوع يعذب جوفه. حل المساء ثم الليل وبزغ الفجر، لكنه لم يكن قد أكل.

عند الظهر وصل الدرك ففتحوا الباب بحذر متوقعين مقاومة، لأن المعلم «شيكيه» كان قد ادعى بأن ذلك المتشرد قد هاجمه وأنه لم يستطع الدفاع عن نفسه إلا بشق النفس.

صاح العريف:

- هيا، انهض!.

لكن «الجرس» ما عاد في استطاعته أن يتحرك، حاول جهده أن يرتفع نحو عكازيه لكنه لم يفلح، فظنوا أنه يتظاهر أو يخادع أو ينوي لهم السوء؛ فعنّفه الدركيان المسلحان بقسوة وأمسكاه ووضعاه عنوة على عكازيه.

غمره الخوف الغريزي من الشرائط الصفراء، ذلك الخوف الذي يعتري الطريدة أمام الصياد، والفأر أمام القط. وبجهود تفوق طاقة البشر استطاع أن يبقى واقفاً.

قال العريف: «هيا». ثم مشى فتبعه سكان المزرعة بأنظارهم، وهم يبتعدون. كانت النساء يهددن بقبضات أيديهن، والرجال يهزؤون به ويشتمونه.

- «أخيراً أخذوه وتخلصنا منه».

ابتعد وهو بين حارسيه، وقد وجد الطاقة اليائسة اللازمة له ليجرجر نفسه حتى المساء تائه العقل لا يدري ما كان يواجهه، مرتاعاً لا يستطيع فهم ما يجري.

حين كان الناس يلتقون بهم، كانوا يتوقفون ليروه وهو يمر، ويتمتمون:

- لابد وأنه أحد اللصوص.

بلغوا مركز المحافظة وكان الليل قد أرخى سدوله، أما هو فلم يكن قد وصل إلى تلك النواحي في حياته، لم يكن يقدر أن يتصور ما يحدث له، ولا ما قد يقع. كل هذه الأشياء المرعبة، غير المتوقعة، هذه السحنات وهذه المنازل الحديثة كانت تصيبه بالذعر.

لم ينبس ببنت شفة، إذ لم يكن لديه ما يقوله، لأنه لم يعد يفهم شيئاً. فمنذ العديد من السنين لم يكن يتوجه بالكلام لأحد، لقد نسي تقريباً استخدام لسانه؛ وفكره كان شديد التشوّش بحيث يعبّر بكلمات.

احتجز في السجن. ولم يفكر الدرك بأنه قد يحتاج إلى طعام، فتركوه حتى اليوم التالي.

لكن حين أتوا ليستجوبوه في الصباح الباكر، كم كان عجبهم كبيراً حين رأوه على الأرض جثة هامدة!!..

* * *

اعترافات امرأة

يا صديقي، طلبتَ مني أن أروي لك أشد ذكريات حياتي ألماً. أنـا قـد هرمـتُ جداً وبقيت دون أهل ولا أولاد؛ لذا أجد نفسي غير مقيدة وأعترف أمامـك. عـدني فقط ألا تكشف عن اسمي.

أحبني رجال كثيرون، وأنت أدرى الناس؛ وغالباً ما وقعت في غرامهم. كنت وافرة الجمال، ويمكنني القول إنه لم يبقَ أثر من ذلك الجمال اليوم. كان الحب عنـدي بمثابة الحياة للروح كما أن الهواء حياة للجسد. كان الموت بالنسبة لي أفضل من حيـاة بلا حنان، ودون أن يفكر الرجال فيّ دائماً. وتزعم النساء أنهن يحببن مرة واحدة بكل ما لديهن من مقدرة في أعماق قلوبهن؛ وحصل لي كثـيراً أن وقعـت في حـب عنيـف وكدت أعتقد أنه من المستحيل وضع حدٍّ لعواطفي المشبوبة. مع ذلك، كانت جذوة هذا الحب تخمد وتخبو بشكل عادي كنار أعوزها الحطب.

سأروي لك اليوم أولى مغامراتي، ولم تكن لي فيها يد، وإنما حـددت فـيما بعـد مغامراتي الأخرى.

إن الانتقام المريع من ذلك الصيدلي المشين «دي بيك» ذكّرني بالمأساة المرعبة التـي عشتها رغم أنفي.

كان قد مضى عام على زاوجي من رجل غني: الكونت «هيرفيـه دي كـير...» وهو رجلٍ عريق المحتد من مقاطعة بريتانيا، غير أني ما أحببته قط، كـما هـو معلـوم. فالحب الصحيح يستلزم، في اعتقادي على الأقل، حرية وعوائق في آن واحد. الحـب المفروض، والممهور بالقانون والذي يباركه القسيس، هل تعتقد بأنه حب؟ إن قبلـة، سَمِّها قانونية، لا تساوي مطلقاً قبلة مختلسة.

زوجي كان ذا قامة طويلة، أنيقاً، ذا مِشْيَةٍ سيِّدية حقَّة. غير أنه كان محدود الذكاء. كلامه قاطع ويدلي بآراء كحد السيف. يخيل إليّ أن روحه كانت ملأى بأفكار جاهزة مسبقاً، وضعت في رأسه كما يوضع قالب الجبن في وعاء ما؛ ذلك كان من تأثره بوالديه اللذين ورثا تلك الأفكار عن أجداده. لم يكن يتردد أبداً بالإدلاء برأيه الفوري والمحدود دونما تحفظ ودون أن يفكر يوماً بوجود وجهات نظر أخرى. كنت أحس أن رأسه كان مغلقاً لا يمكن لأية أفكار أن تجول فيه، من تلك الأفكار التي تبعث الصحة في الروح كما يفعل الهواء النقي بدار أشْرِعت نوافذها وأبوابها.

القصر الذي سكنّاه كان في بقعة جرداء، بناؤه كئيب تحيط به أشجار ضخمة. أما نباتات الطحالب حولها فبدت وكأنها لحية شيخ مسن؛ حديقة القصر كانت أشبه بغابة تحيط بها حفرة عميقة كخندق تسمّى بقفزة الذئب، وعند أطراف ممتلكاتنا مستنقعان كبيران نما فيهما القصب والأعشاب الطافية. وتنساب بينهما ساقية تربط الواحد بالآخر، وقد بنى زوجي قرب تلك الساقية كوخاً كان يطلق منه النار على البط البري.

إضافة إلى الخدام العاديين الموجودين لدينا كان هناك حارس قوي البنية شديد المراس مخلص لزوجي أشد الإخلاص، علاوة على وصيفة شابة، نزلت عندي منزل الصديقة وكنتُ قد اصطحبتها من إسبانيا قبل خمسة أعوام ولازمتني بعدها، وهي، على ما علمت، لقيطة، يظنها المرء غجرية بسبب بشرتها السمراء وعينيها الداكنتين وشعرها الكثيف الشديد السواد والمشعث. كانت حينذاك في عامها السادس عشر، غير أن قدها كان يوحي بأنها ناهزت العشرين.

أطل الخريف، ومعه كان الصيادون يصطادون تارة في أراضي الجيران وتارة في أراضينا. ولفت انتباهي البارون الشاب س... الذي صار يتردد إلينا بشكل حثيث. غير أنه توقف عن زيارتنا ولم أعد أفكر فيه، لكنني أحسست بأن زوجي قد غيَّر نوعية معاملته معي.

بدا محباً للصمت ومهموماً فلم يعد يقبّلني؛ ومع أنه لم يطأ يوماً أرض غرفتي التي أردتها منفصلة عن غرفته لكي أشعر بالانفراد؛ إلا أنني كنت أسمع مراراً وقع خطوات تصل حتى غرفتي ثم تبتعد بعد بضع دقائق.

بما أن نافذتي كانت تطل على الطابق الأرضي، فقد خيل إلي أنني كنت أسمع أحداً يحوم هناك في الظل حول القصر. حاولت لفت انتباه زوجي إلى ذلك، غير أنه حدجني بإمعان مدة ثوان وقال:

- لا شيء.. لا شيء.. إنه الحارس.

مساء أحد الأيام، وكنا قد انتهينا من تناول العشاء، بدت على وجه أمارات الفرح، فرح لئيم، وسألني:

- هل يسرك أن نمضي قرابة ثلاث ساعات من الترصد لنقتل ثعلباً لَـذَّهُ لحم دجاجنا؟.

فوجئت وترددت، لكنه حدّق فيّ ملياً وبشكل غريب، فأجبته:

- بالطبع يا حبيبي.

هنا يجب أن أنوّه بشغفي بالصيد وبراعتي فيه، وقد نافست الرجال في صيد الذئاب والخنازير البرية؛ إذن كان من الطبيعي جداً أن يعرض عليَّ اقتراحاً كهذا.

فجأة، اكفهرَّ وجهه وتغير مزاجه وغدا عصبياً، وتملَّكه اضطراب لم يتمكن من إخفائه طوال ذلك المساء، وأخذ يقوم تارة ويقعد تارة أخرى، ثم يمشي وكأن به حمًّى.

حوالي العاشرة مساءً قال لي:

- هل أنتِ مستعدة؟.

فقمت... ثم إنه ذهب وأحضر لي بندقيتي، فسألته:

- هل أحشوها بالرصاص أم بالخردق؟.

فوجئ بسؤالي، غير أنه أجاب:

- بالخردق فقط، ففيه الكفاية كوني على ثقة.

ثم أضاف بلهجة مريبة:

- يمكنك التفاخر ببرودة أعصابك.

ضحكتُ وقلتِ:

- أنا؟ ما هذا الكلام؟.. هل هناك ضرورة لبرودة الأعصاب لقتل ثعلب؟ بماذا تحلم يا حبيبي؟.

خرجنا من البيت والحديقة وكل شيء فيه قد نام. البدر لوّن البناء المعتم ذا السطح الأغبر بصفرة داكنة. وكانت قمتا برجي القصر تلتمعان، وما من نأمةٍ تكدر صمت وصفو ذلك الليل المنير والحزين، الحلو والثقيل، وكأنه ليل موتى. لا دغدغة هواء، ولا نقيق ضفدع، ولا نعيب بومة، بل خدر مرعب ران على المكان.

حين بلغنا أشجار الحديقة، شعرت برطوبة، ونفذت إليَّ رائحة الأوراق المتساقطة. زوجي لزم الصمت مصغياً متربصاً؛ بدا كأنه يشم في الظلام وقد أخذ منه حب الصيد كل مأخذ.

أخيراً وصلنا إلى حافة المستنقعين وكانت أعشاب القصب فيهما ساكنة، وكانت بعض المويجات تحرك الماء. وكانت أحياناً إحدى النقاط تحرك سطحه، تتشكل بعض الدوائر البسيطة التي هي أشبه بتموجات ضوئية، وكانت تكبر فتكبر إلى ما لا نهاية.

ولمّا بلغنا الكوخ حيث كان علينا أن نتلطى، جعلني زوجي أمّر قبله، ثم عمّر بندقيته بهدوء، وخلقت طقطقة الزناد عندي انطباعاً غريباً. أحسّني أنتفض فسأل:

- هل اكتفيت من هذه التجربة؟. ألا اذهبي.

فأجبته بعصبية:

- كلا، أبداً، فأنا لم آتِ لأعود هكذا. ألست مضحكاً هذه الليلة؟.

فتمتم:

- كما تريدين..

ومكثنا ساكنين.

بعد ما يقارب نصف ساعة، والسكون مازال يهيمن على تلك البقعة، وما من حركة تعكر هدوء ذلك الليل الخريفي، قلت هامسة:

- أمتأكد أنت من مروره هنا؟..

اعترته رعشة وكأنني لدغته، فاقترب مني وهمس في أذني:

- أنا متأكد تماماً. هل تسمعين؟.

ثم عاد السكون.

أعتقد أنني بدأت أغفو عندما شد زوجي على ذراعي وقال بصوت صافر وغريب:

- أترينه؟ إنه هناك تحت الأشجار.

عبثاً حاولت أن أرى لكنني لم أستطع أن أميّز شيئاً.

تنكب زوجي بندقيته ببطء شديد وعيناه مُسمَّرتان عليَّ، وكنت أنا أيضاً قد شرعت في الاستعداد لإطلاق النار.

فجأة، وعلى بعد ثلاثين خطوة إلى الأمام، تقدم رجل نحو الضوء بخطى عاجلة، وجسمه منحن كأنه مزمع أن يفر.

تملكني الذعر فصحت، ولكن قبل أن أتمكن من الالتفات هزت سكون الليل طلقة نارية مرت من أمامي، وأصمَّت أذني، ورأيت رجلاً يتدحرج على الثرى كذئب تلقى رصاصة.

علت صرخاتي الحادة وكنت مذعورة وكأن بي مس، وأحسست بيد حانقة تمسك بعنقي، وغلبت على أمري، ثم حملني زوجي بين ذراعيه وأخذ يجري كالمحموم نحو الجثة الممددة على العشب ورماني فوقها بعنف وكأنه يريد تحطيم رأسي.

شعرت بدوار؛ أوشك أن يقتلني، ولمحت حين كنت مشرفة على الإغماء قدمه وقد رفعها ليدوسني، شيئاً ما قد أمسك به وطرحه أرضاً دون أن أدرك ما حدث.

انتصبت مسرعة فرأيت «باكيتا» وصيفتي جاثية عليـه وقـد أمـسكت بخناقـه كقط بري وجعلت تكيل له الضربات وتنتف شعر لحيته وشاربيه ممزقة جلد وجهـه. ثم نهضتْ كأن تفكيراً آخر تملكها فارتمت فوق الجثة تحتضنها وتقبل العينـين والفـم محاولة عبثاً إعادة الحياة لها بلمسات العاشقين تلك.

نهض زوجي وأخذ ينظر. حينها فهم، فخرَّ عند قدميَّ قائلاً:

- عفوك يا حبيبتي! لقد أسأت فيك الظن وقتلـت حبيـب هـذه الفتـاة، لقـد خدعني حارسي.

أما أنا فكنت أتفرس في قبلات الفتاة عـلى وجنتـي حبيبهـا المـسجى أمامهـا، وأسمع نحيبها البائس، ومنذ تلك اللحظة عرفت أنني سأكون لزوجي خائنة.

٢٨ حزيران ١٨٨٢

بومبــار

غالباً ما تأفف سيمون بومبار من الحياة ومساوئها، فقد جاء للدنيا ولديه موهبة عجيبة تحثه على ألا يقوم بأي عمل، مع رغبة شديدة في ألا يعاكس هذه الموهبة، فكل جهد مادي أو معنوي، لا بل كل سعيٍ أو حركة تؤدي إلى عمل ما، كانت في نظره تفوق طاقته. وما إن يطرق مسامعه حديث عن مشروع فيه شيء من الجدية حتى تراه شارد الذهن غير آبهٍ بما يقال فهو عاجز عن إجهاد فكره بل حتى عن الانتباه لما يقال.

أبوه كان صاحب متجر في مدينة «كان»، وقيل إن سيمون عاش في رغد حتى سن الخامسة والعشرين. لكن إشراف أبيه على الإفلاس آلمه كثيراً بسبب ندرة المال.

أما سيمون فكان ممشوق القامة حلو التقاطيع يزين فوديه شعر أشقر يرسله على أم رأسه، عينا الزرقاوان غبيتان وجذلتان في آن، وبطنه راح في النتوء. أما لباسه فقد تأنق بإفراط كريفي يشارك في احتفال. يضحك ويصيح وتشترك يداه في حديثه، وينشر مرحه طولاً وعرضاً بثقة مندوب دعاية جوال، معتبراً أن الحياةصنعت فقط للتفكه والمزح. وحين كان يضطر لوضع حد لدعاباته، لسبب أو لآخر، فقد كان يقع فريسة شرود لعجزه عن الحزن.

وبما أن حاجته للمال كانت تنهكه وتقض عليه مضجعه، كان يردد عبارة أصبحت مأثورة لدى محيطه:

- لو أُعْطيتُ عشرة آلاف فرنك من العائدات، لما ترددت بقبول وظيفة جلاد!..

اعتاد كل عام أن يمضي أسبوعين في «تروفيل» فسمى رحلته هذه: «الموسم».

هناك في «تروفيل» له أقارب كان يمضي لديهم موسمه هذا بعد أن يفردوا له غرفة في دارهم، ومن حين وصوله وحتى مغادرته كان يتمشى على الألواح الخشبية الممتدة على طول الشاطئ الرملي.

كان يمشي بخطوات ثابتة ويداه في جيبيه أو معقودتان خلف ظهره وهو يرتدي ثياباً من آخر طراز كعادته: صدرية فاتحة اللون وربطة عنق صارخة وقبعة منحنية نحو الأذنين والسيجار في زاوية بين شفتيه.

كان يمشي بمحاذاة الفتيات والنساء الأنيقات مزدرياً الرجال ومستعداً ليأخذ نصيبه من الضرب، وعيناه تجولان وتبحثان دول كلل عن امرأة، معوِّلاً على جمال طلعته، وقائلاً في سره:

- بحق الشيطان، لابد من أن أجد في النهاية امرأة تلبي الغرض من بين جموعهن هذه.

وكان يبحث ويسعى هنا وهناك وكله ثقة بأنه سوف يلقاها بأسهل السبل، تلك التي ستجعل منه رجلاً غنياً.

* * *

كان ذلك ذات يوم اثنين حين تمتم:

- عجباً - عجباً - عجباً..

الطقس كان رائعاً، طقس تموزي أصفر وأزرق وكأنه ينهمر دفئاً، والناس منتشرون على الشاطئ الرحب بثيابهم الزاهية الملونة، فتخاله حديقةً زهورها النساء.

هناك على مقربة من الشاطئ كانت زوارق الصيد بأشرعتها البنية تتهادى على صفحة المياه الساكنة تحت شمس الضحى الرائعة، وخلفها في عرض البحر مراكب أخرى لا تبدي حراكاً، ودب فيها الكسل قبيل توغلها في عرض البحر أو قدومها إلى الميناء، كأن دفء ذلك اليوم أقعدها ساهمة في أماكنها لا تكر ولا تفر. وفي المدى البعيد بدت شواطئ «الهافر» غير واضحة بسبب الضباب، وعلى جانبيها منارتا «سانتا دريس».

قال في نفسه حين التقى بها للمرة الثالثة:

- عجباً، عجباً، عجباً.

وقد أحس بنظراتها، نظرة المرأة الناضجة الخبيرة الجسورة التي تعرض نفسها.

كان قد لمحها قبل أيام لأنها هي أيضاً كانت تبحث عن شخص ما.

هي سيدة بريطانية، فارعة الطول نحيلة القوام، من البريطانيات اللواتي شد من عزيمتهن الترحال والسفر، وجعلت الأسفار منهن رجالاً أو ما يشبه الرجال. كانت تمشي بثبات وبخطوات قصيرة وترتدي ثياباً بسيطة محتشمة. أما شعرها فكان مصففاً بشكل يبعث على الضحك كسائر بنات جنسها. عيناها جميلتان وخداها بارزان وبحمرة واضحة، أما أسنانها فكانت طويلة ودائمة التعرض للهواء.

حين وصل إلى المرفأ كرَّ عائداً ليرى إذا استطاع أن يلقاها ثانية.

التقى بها فرشقها بنظرة ملتهبة، نظرة كانت تقول:

- ها أنا طوع بنانك.

لكن كيف يكلمها؟.. عاد مرة خامسة ولما رآها في مواجهته أفلتت من يدها مظلتها فانحنى والتقطها وقدمها إليها قائلاً:

- هل تسمحين يا سيدتي..

فأجابته بلكنة إنكليزية ظاهرة:

- أنت لتيف شداً..

حدق كل منهما بالآخر فاحمرت خجلاً ولاذ كلاهما بالصمت.

غير أنه تجرأ وقال:

- الطقس لطيف وجميل.

أجابت:

- آوه، رائع.

مكثا متقابلين مرتبكين دون أن يفكر أي منهما في مغادرة المكان، ثم تجرأت وقالت:

- هل تبقى طويلاً في هذه المدينة؟

أجابها مبتسماً:

- نعم، ولأية مدة أريد.

ثم فاجأها باقتراح:

- هل ترافقينني إلى رصيف الميناء، فالمنظر خلاب هناك هذه الأيام!.

أجابت ببساطة:

- بالتبع أريد..

سارا جنباً إلى جنب، هي بمشيتها الرصينة الواثقة وهو يختال كديك رومي قبيل الوصال.

* * *

ثلاثة أشهر مرَّت حين تلقى تجار مدينة «كان» المرموقين بطاقات دعوة بيضاء كتب عليها: «السيد بروسبير بومبار وحرمه يتشرفان بدعوتكم لحضور حفل قران ولدهم سيمون بومبار والسيدة أرملة روبرتسون».

وعلى الصفحة الأخرى: «تتشرف السيدة كيتي روبرتسون بدعوتكم لحضور حفل زفافها إلى السيد سيمون بومبار».

* * *

استقر العروسان في باريس.

ثروة العروس كانت تتجاوز الخمسة عشر ألفاً من العائدات السنوية، وسيمون كان يحتاج إلى أربعمئة منها لتغطية مصاريفه الشهرية. توجَّب عليه أن يبرهن بأن محبته وتودده لها يستحقان هذه التضحية، فبرهن عن ذلك بسهولة ويسر ونال ما تمناه.

خلال الفترة الأولى سار كل شيء على ما يرام، لكن السيدة بومبار الصبية لم تبقَ شابة بالتأكيد لأن نضارتها قد تعرضت لإصابات، غير أنها كانت تستطيع بطريقة أو بأخرى أن تنال ما تريد دون أن يرفض طلبها.

كانت تقول بلكنتها الإنكليزية الواضحة:

- آوه يا سيمون، نهن بدنا نوم.

فتراه كالكلب رهن إشارة سيدته تأمره فيطيع. كانت تعرف تماماً ما تريده، في الليل أم في النهار، بشكل تزول أمامه كل مقاومة.

لم تثر يوماً، ولا تركت لأحد مدعاة للومها؛ عاشت دون صراخ، ولم تبدِ يوماً على وجهها أمارات السخط أو التجريح. كل ما عرفته هو كيف تتحدث وفي الوقت المناسب بلهجة لا تقبل الرد.

سيمون كاد أن يتردد غير مرة؛ لكن أمام الرغبات الملحة والمختصرة لتلك المرأة الفريدة كان لا يملك إلا الانصياع والإذعان.

غير أنه مع تلك القُبلْ الزوجية التي بدأت تفتر وتفرغ من معناها، وبما أنه كان يحتفظ في جيبه بما يمكّنه من الحصول على مداعبات أفضل مما لديه، فهو لم يتردد، ولكن بكثير من الحذر، أن ينهل منها بقدر ما استطاع.

بغريزتها الأنثوية أحست مدام بومبار بما يجري حولها دون أن تلمّح له بذلك. وأعلنت في أحد الأيام أنها استأجرت منزلاً في «مانت» حيث سيستقران في المستقبل.

أصبحت حياته قاسية؛ فحاول بتسليات متعددة أن يعوّض عما فاته من علاقات مع النساء. فكان يذهب للصيد بالشص، وصار يعرف الأعماق التي يحبها سمك الشبوط، والضفاف التي يفضلها الإبراميس والطعوم التي تشتهيها شق الأسماك. وكانت تساوره بعض الرؤى عندما كانت عائمة شصه تختلج، ثم صادق مدير الشرطة وصار يشاطره لعب الورق حيث كانت عينه الحزينة تعري «بنت الديناري أو الكبة» ولكن مشكلة الساقين الغائبتين في تلك الورقات ذات الرأسين تشوش الصور المتفتحة في فكره.

تفتق ذهن بومبار عن خطة خبيثة فيها من دهاء النورمانديين الشيء الكثير، فقد أوعز إلى زوجته أن تتخذ خادمة تناسب أغراضه. لم تكن جميلة، ذات دلال أو متأنقة، بل ممتلئة الجسم وردية الخدين صلبة البنية لا تثير الشبهات، وقد هيأها مسبقاً لإتمام مشروعه المتقن.

وقدمت الخادمة للزوجة وقد أوصى بها مدير مؤسسة كانت تربطه بسيمون أواصر صداقة متينة فجعل نفسه كفيلاً لها. ابتلعت السيدة بومبار الطعم بقلب طيب ونية صادقة ورحبت بذلك «الكنز الثمين».

ملأت السعادة قلب سيمون، سعادة حذرة، واجفة مع صعوبات جمة. فهو لم يكن يغيب عن عيني زوجته إلا هنيهات قصيرة، وصار يبحث عن حيلة أو وسيلة تساعده في مشروعه. أخيراً وجدها وكُللت جهوده بالنجاح.

مدام بومبار ليس لديها ما تفعله في البيت، لذا كانت تأوي إلى فراشها باكراً، بينما كان سيمون يلعب الورق في مقهى «الكوميرس» ويعود إلى البيت كل مساء في التاسعة والنصف بالضبط. فكّر في أن يجعل الخادمة «فيكتورين» تنتظره في الممر المظلم، وكان ينتهي من شأنه معها خلال خمس دقائق، ومن ثم يدس في جيبها قطعة ذهبية، ثم تصعد إلى غرفة الخدم، فقد كان سخياً فيما يتعلق بملذاته.

بعدها كان يضحك في سره، وغالباً ما ردد بصوت مسموع، كما كان يفعل حلاّق الملك ميداس وهو يصطاد السمك الأبيض بين شجيرات القصب:

- إلى الجحيم يا سيدة القصر.

سعادته بأن يخون ويخدع مدام بومبار وفي عقر دارها كانت تعادل شائبة غزوته التي كان يدفع ثمنها.

***

مساء أحد الأيام وجد «فيكتورين» في انتظاره كالمعتاد في الممر، لكنها في تلك الليلة كانت أشد حرارة وشبقاً واستمر ليلتها أكثر من عشر دقائق في لقائه، وحين دلف إلى غرفة نومه لم تكن مدام بومبار في فراشها، فأحس بقشعريرة تسري في أوصاله وتهاوى على كرسيه فريسة للقلق والحيرة.

ثم ظهرت من فتحة الباب وبيدها قنديل فسألها وهو يرتجف:

- هل كنت خارج البيت؟.

أجابته بهدوئها المعتاد:

- كنت في المطبخ أشرب كأس ماء.

حاول عبثاً أن يهدئ من روعه ويضع حداً لشكوك قد تساور رأس زوجته، لكن هدوءها وثقتها اللذين لم يفارقاها طمأناه.

في اليوم التالي، حين دخلوا غرفة الطعام للغداء وضعت فيكتورين اللحم على الطاولة، ولما همّت بمغادرة الغرفة، مدت مدام بومبار يدها وقدمت لها قطعة ذهبية وقالت لها بهدوء:

- خذي يا بنتي نهن يعيد إليك ما حرمتِ منه أنت مساء أمس.

أخذت الفتاة القطعة وقد شرد ذهنها وذهب عقلها، بينما جحظت عينا سيمون وفغر فاه، وقد جمد الدم في عروقه..

٢٨ تشرين الثاني ١٨٨٤

انتقــام أم

أرملة «باولو سافيريني» تسكن مع ابنها بيتاً فقيراً على سور مدينة «بونيفاشيو» المبنية على امتداد مرتفع يطل على البحر، وتبدو في بعض مناطقها وكأنها معلقة فـوق مضيق كثير التضاريس يفصل بينها وبين جزيرة «سردينيا». أما الـسفح مـن الناحيـة الأخرى فتحيط به كتل صخرية ملساء، وعند أسفلها ميناء صغير، تغدو فيه وتـروح زوارق الصيد الإيطالية والسردينية، ويأتي مركب بخاري عتيق كل خمسة عشر يومـاً ليؤمّن خدمة أجاكسيو.

هناك على التل الأبيض بنيت مجموعـة بيـوت أشـد بياضـاً، يـوحي مظهرهـا بأعشاش الطيور البرية، تتدلى فوق الصخور حيث تهيمن من هناك على تلك المنطقـة التي لا يجرؤ أي زورق على الاقتراب منها. الرياح ترهق الشاطئ الأجرد دون كلل. وتعريه من كل أخضر، ثم تمر عبر المـضيق مكتـسحة كـلا جانبيـه، رافعـة الأمـواج المتلاحقة فوق نتوءات كأنها الأسمال البالية تطفو على صفحة المياه.

بيت الأرملة «سافيريني» الملتحم بطرف الجـرف يطـل بنوافـذه الـثلاث عـلى الأفق الموحش الكئيب. هنـاك عاشـت مـع ابنهـا «أنطـوان» وكلبتهـا «سـميلانتي» الضخمة النحيلـة ذات الـوبر الطويـل الخـشن، وهـي مـن سـلالة كـلاب حراسـة القطعان، وكان انطوان يستخدمها في الصيد.

مساء أحد الأيام قتل «انطوان سافيريني» غدراً بمدية إثر مشاحنة مع «نيقـولا رافولاتي» الذي غادر المدينة في الليلة ذاتها إلى سردينيا ليتوارى عن الأنظار.

عندما استقبلت الأم العجوز جثة ولدها وقد حملها بعض المارة، لم تبكِ بل بقيت ساهمة بلا حراك فترة طويلة، وعيناها مشدودتان إلى ابنها، ثم مدَّت يدها المجعدة على جثته وأقسمت أن تثأر.

لم ترد أن يواسيها أحد، فسجنت نفسها مع الجثة وكلبتها التي أقعت وراحت تنبح دون توقف قرب سرير معلمها رافعة رأسها نحوه لم تبدِ حراكاً وصارت كأم «انطوان» التي حين رأت أن الجميع قد غادروا، أخذت تذرف الدمع بصمت وقد أكبت على جثة ابنها تشبع منه ناظريها.

كان الشاب ملقى على ظهره كالنائم، سترته السميكة مثقوبة عند الصدر، والدم يغطي كل جسمه: فوق قميصه المفتوح بسبب العلاجات الأولى، وعلى صدريته وسرواله ووجهه ويديه. وبعض قطرات الدم تجمدت على شعره ولحيته.

راحت الثكلى تناجيه وإذا بالكلبة تكف عن النباح.

- إيه يا صغيري.. سأثأر لك يا ولداه، يا ابني المسكين. نم، نم، سأنتقم.. أتسمع؟ إنه وعد الأم، والأم تفي بوعدها، وأنت بذلك أدرى.

وبهدوء انحنت فوقه لاصقة شفتيها الباردتين على شفتيه وقد فارقتهما الحياة..

عادت الكلبة للنباح، كانت تصدر أنات رتيبة هي أشبه بالنواح الذي يمزق نياط القلب.

بقيت الأم على حالها حتى الصباح، وبعد ذلك ووري «انطوان سافيريني» التراب.. وبعدها بقليل لم يعد أحد يذكر اسمه في «بونيفاشيو».

* * *

رحل انطوان دون أن يكون له أخ يثأر له، وما عرف له قريب أو ابن عم ليقوم بهذه المهمة، كان وحيداً، لذلك بقيت أمه العجوز وحدها تفكر بالانتقام.

هناك على الشاطئ الآخر للمضيق كانت بقعة بيضاء تشد إليها نظر الأم فتحدِّق بها بلا انقطاع. لم تكن تلك البقعة سوى قرية سردينية يلجأ إليها قطاع الطرق

الكورسيكيون الملاحقون، فهم كثر يقبعون فيها في انتظار العودة إلى مواطنهم، ثم الاختفاء. علمت الأم أن «نيقولا رافولاتي» قاتل ابنها قد لجأ إلى تلك القرية.

وعلى مر الأيام كانت الأرملة الحزينة تقبع أمام نافذتها وحيدة ترنو بنظرها إلى البعيد وقد شحن ذهنها بهاجس الثأر. ولكن ما العمل وما من أحد يمد لها يد المساعدة؟ هي عاجزة، وعلى حافة قبرها. غير أنها وعدت وأقسمت على الجثة ولم تستطع أن تنسى وأن تنتظر. ماذا ستفعل؛ فارقها النوم وما كانت لترتاح أو تهدأ. ظلت تبحث بعناد والكلبة إلى جانبها تغطُّ وتبعث أحياناً بنباح نحو البعيد البعيد. فمنذ أن اختفى سيدها كانت تطلق نواحاً على هذا النحو وكأنها تناديه، وكأن روحها الحيوانية ترفض العزاء، وتحتفظ بذكرى لم تستطع نسيانها.

ذات ليلة، ما إن شرعت الكلبة بأنينها الرتيب حتى برقت في ذهن المرأة فكرة، فكرة شرسة بربرية. أشبعتها تمحيصاً حتى الصباح، وما إن لاح أول بارق فيه حتى ذهبت إلى الكنيسة. هناك جثت محطمة خاشعة على الرخام أمام الله تطلب إليه العون ليمسك بيدها ويعطي جسدها الضعيف المتهدم القوة اللازمة لتثأر لابنها.

ثم عادت. كان لديها برميل قديم في دارها قلبته على عقبه وثبتته إلى الأرض بأوتاد وحجارة ثم ربطت الكلبة به ودخلت منزلها.

صارت تغدو وتؤوب أمام نافذتها وعينها على تلك القرية النائية على شاطئ سردينيا.. إنه هناك، قاتل ابنها.

تركت الأرملة كلبتها تنبح اليوم كله وقد عضها الجوع بنابه، وفي صباح اليوم التالي قدمت لها الأرملة ماءً فقط. ومر اليوم التالي وإذا بالكلبة تنام مرهقة وقد أشرفت على الهلاك..

في اليوم الثالث كان صبر الكلبة قد عيل، فأخذت تنبح بصوت أجش. وانقضى الليل. تركتها الأرملة حتى صباح اليوم الرابع، حين ذهبت إلى جيرانها تطلب قشاً عادت به إلى البيت، هناك أخذت أسمال زوجها البالية وحشتها بالقش حتى أخذت شكل جسم بشري، ثم نصبت في باحة البيت عصاً شدت إليها ذلك الجسم حتى بدا واقفاً، وسوَّت الرأس بخرق قديمة كانت عندها.

دهشت الكلبة وأخذت تحدق بذلك التمثال وسكتت عن النباح بالرغم من جوعها. ثم ذهبت الأرملة إلى السوق واشترت قطعة نقانق سوداء طويلة وقفلت عائدة إلى بيتها حيث أضرمت ناراً قرب الكلبة وشوت عليها قطعة النقانق فما إن شمت الكلبة رائحة الشواء حتى جن جنونها، وأخذت ترغي وتزبد وتقفز لاهثة نابحة حتى كادت تقطع سلاسلها.

نضج اللحم فأخذته الأرملة ووضعته مشدوداً على عنق التمثال وأحكمت ربطه، وما إن انتهت حتى أفلتت الكلبة التي قفزت قفزة هائلة وانقضت ناشبة أنيابها في رقبة التمثال وأشبعته تمزيقاً ونهشاً وطفقت تلتقط قطع اللحم المتناثرة ثم عادت لتنشب أنيابها مرة بعد مرة في عنق التمثال فلم تتركه حتى صار نتفاً وأصبح رأسه أثراً بعد عين.

الأرملة كانت هناك واقفة تنظر بارتياح إلى نتيجة تجربتها، ثم عادت وشدت وثاق الكلبة إلى البرميل لتكرر فيها بعد ذلك التمرين الغريب.

بعد ثلاثة أشهر من التدريب، اعتادت الكلبة أن تكسب قوتها من تلك الوجبة الشهية بقوة أنيابها، لكن الأرملة لم تعد تربطها كالسابق إذ صارت تنطلق نحو التمثال بإيماءة من يد سيدتها التي علمتها أن تمزقه وتفترسه حتى لو لم يكن عليه أي طعام فكانت تكافأ بقطعة النقانق المشوية التي أُعِدَّتْ لها.

ما إن كانت الكلبة تبصر الرجل حتى تروح ترتجف ثم تلتفت إلى معلمتها التي تصرخ فيها «هيا!» بصوت صافر وبإصبع مرفوع.

* * *

عندما رأت الأرملة أن الوقت قد حان، ذهبت إلى الكنيسة صباح الأحد واعترفت وتناولت القربان، ثم تنكرت بزي رجل عجوز مسكين واتفقت مع صياد لينقلها مع كلبتها إلى الشاطئ الآخر للمضيق.

حملت في جعبتها قطعة نقانق مشوية، والكلبة لم تذق طعاماً منذ يومين. بين الحين والآخر كانت تدني الجعبة من أنف الكلبة لتشم رائحة الشواء فتهيجّها.

وصلت هي وكلبتها إلى قرية لونغوساردو فرأت كورسيكا بتعاريجها فاستفسرت من أحد الخبازين عن منزل «نيقولا رافولاتي» الذي عاد يعمل نجاراً كما في سابق عهده وكان وحده في منجرته.

دفعت الأرملة الباب فوجدت غريمها في ركنه يعمل.

نادته:

- نيقولا!..

التفت نحوها فأفلتت الكلبة صائحة.

- هيا!.. هيا!.. انقضي.. افترسي، افترسي!

جنّ جنون الكلبة فانطلقت وانقضت على الرجل ناشبة أنيابها في عنقه وألقته أرضاً. لم تدم المعركة سوى بضع ثوان تقلص بعدها جسم نيقولا وبقي بلا حراك والكلبة ما تزال تنهش عنقه.

تذكر اثنان من الجيران أنهما شاهدا فقيراً معدماً يخرج بصحبة كلب أسود كان يأكل وهو يمشي شيئاً ما من يد صاحبه.

في المساء عادت العجوز إلى دارها ونامت تلك الليلة ملء جفنيها.

١٤ تشرين الأول ١٨٨٣

وجـدت أبـاً

الوقت ظهر، والصِّبية يتدافعون أمام باب المدرسة لينـصرفوا بـسرعة كـلٌّ إلى داره، لكن بدل أن يتفرقوا بسرعة ويعودوا لتناول طعام الغداء كما هي عادتهم، فقـد تحلَّقـوا جماعـات وراحـوا يـصخبون، لأن «سـيمون» ابـن «لا بلانـشوت» يـأتي إلى المدرسة للمرة الأولى.

كلهم سمعوا في منازلهم أحاديث تدور حول «لا بلانشوت»، وعلى الرغم من الاحترام الظاهر الذي كان يبديه الأهالي تجاهها، فإن الأمهـات عامَلْنَهـا بـشيء مـن الشفقة المشوبة باحتقار انتقل إلى الأولاد، دون أن يعرفوا لذلك سبباً.

أما «سيمون» فلم يعرفـوه لأنـه كـان لا يخـرج مـن بيتـه ولا يعـدو معهـم في طرقات القرية ومنعطفاتها، ولا قرب النهر، أضف إلى ذلك كرههم له؛ وحَدِّث عـن فرحتهم الممتزجة بالاستغراب، حين ردد بعضهم لبعض عبارة أطلقها كبيرهم سـناً بلغ الرابعة أو الخامسة عشرة:

- أتدرون؟.. إن سيمون هذا لا أب له!

خرج ابن «لابلانشوت» الذي لم يكن يتجاوز عمره سبع أو ثماني سنوات مـن باب المدرسة وعليه إمارات الوجل والارتباك، والشحوب يعلو وجهه. خطـا بـضع خطوات ليسير في طريقه إلى البيت، لكن الصِّبْية أحاطوا به إحاطة الـسوار بالمعـصم وهم يتهامسون ويرشقونه بنظرات خبيثة وقاسية وكـأنهم يخططـون لمـؤامرة ضـده. وقف بينهم وأخذ يجيل الطرف وقد عقدت الدهشة لسانه، فهو لم يكن يدري عَـلامَ سيُقدمون. أما الفتى الذي سبق الجميع إلى معرفة سره فتقدم منه وسأله بعنجهية:

- ما اسمك أنت؟.

- اسمي سيمون.
- سيمون ماذا؟.
فأجابه بوجل:
- سيمون.
صاح الولد في وجهه قائلاً:
- يجب أن يكون اسمك سيمون ويليه شيء ما، أما اسم سيمون وحده فليس اسماً على الإطلاق.
فأجاب للمرة الثالثة وقد اغرورقت عيناه بالدموع:
- اسمي سيمون.
ضج الأولاد بالضحك، فقال المنتصر بينهم رافعاً صوته:
- ترون تماماً أنه بلا أب.
وساد على المجموعة صمت، إذ لم يفهموا هذا الأمر الغريب والمستحيل والمرعب - ولدٌ ليس له أب - أخذوا ينظرون إليه وكأنه أعجوبة زمانه أو كائن خرج عن نطاق طبيعتنا، بدؤوا يحسون فجأة باحتقار أمهاتهم نحو لا بلانشوت، دون إعرابهنَّ عنه.
أما سيمون فقد اتكأ على شجرة كي لا يقع، وبقي مذهولاً من جراء كارثة لا يمكنه تلافيها. حاول أن يُفهمهم، لكنه لم يجد شيئاً ليرد عليهم ويُكذب ذلك الشيء الفظيع وهو أنه بلا أب. أخيراً وقد امتقع لونه وصاح فيهم، وليحدث ما يحدث:
- بلى لدي أب.
- أين هو، سأله الولد.
صمت سيمون؛ لم يكن يعرف. أما الأولاد فراحوا يضحكون مهتاجين، وأولاد الحقول هؤلاء الذين هم إلى الحيوانات أقرب، كانوا يشعرون بتلك الرغبة الطاغية التي تدفع الدجاجات في فِناء الدواجن، للإجهاز على واحدة منها ما إن تُجرَح. لمح سيمون جاراً صغيراً، وهو ابن أرملة، وكان يراه دوماً مثله وحيداً مع أمه، فقال:
- وأنتَ أيضاً، ليس لك أب.

فأجابه الصغير:

- بلى، لديَّ أب.

- وأين هو؟

- لقد توفي، إنه في المقبرة.

أعلن الولد ذلك بفخر كبير.

وسرت همسات استحسان بين الأولاد، كما لو أن وجود أب ميت في المقبرة قد جعل رفيقهم يكبر ويسحق ذلك المحروم من الأب. هؤلاء العفاريت الذين كان أغلبية آبائهم من الأشقياء ومعاقري الخمرة، واللصوص والقساة على زوجاتهم، كانوا يتدافعون متراصين أكثر فأكثر، كما لو أنهم، وهم الشرعيون، قد أرادوا أن يخنقوا بضغطهم من كان خارجاً على القانون.

فجأة، مد واحد منهم لسانه وكان واقفاً قبالة سيمون، هازئاً به:

- لا أب لك! لا أب لك.

أمسك سيمون بيديه شعر الصبي وجعل يكيل له الضربات بقدمه على جنبيه، بينما عضه عضةً هائلة في خده، فتدافع الأولاد وفصلوا ما بين المتقاتلين، ووجد سيمون نفسه يُضْربُ ويُمزَّق ويتألم، ويُدحرَجُ على الأرض وسط دائرة من الصبية الوقحين المصفقين. حين نهض وهو ينظف بحركة آلية من يده قميصه الصغير الذي ملأه الغبار، صاح به أحدهم:

- اذهب وأخبر أباك.

أحس سيمون بانهيار في قلبه الصغير. كانوا أقوى منه فضربوه، ولم يكن باستطاعته الرد عليهم، فهو يعرف حق المعرفة بأن لا أب له، حاول لبضع لحظات أن يحبس دمعه بكبرياء حتى كاد يختنق فانفجر باكياً وصار يهتز كورقة يابسة في مهب الريح.

ساد خصومه هرج وضحك ومرح، وعلى غرار المتوحشين تماسكت أيديهم وجعلوا يرقصون في دائرة حوله مرددين لازمةً:

- بلا أب، بلا أب.

فجأة توقف سيمون عن النشيج وكأنما أصيب بمس من جنون، انحنى يلملم حجارة كانت عند قدميه، وأمطر جلاديه القساة فتفرقوا وكل منهم يحاول اتقاء ذلك الوابل من الحجارة، أصيب إثر ذلك الهجوم المباغت ولدان أو ثلاثة فروا باكين. كان شكل سيمون رهيباً حتى إن الرعب قد دب في بقية الأولاد الجبناء كما تكون الجماهير أمام رجل حانق متوحش.

حين بقي من لا أب له وحده، جعل يركض نحو الحقول، لأن ذكرى مرت في رأسه فجعلته يتخذ قراراً خطيراً، كان يريد الانتحار في النهر.

تذكر بالفعل فقيراً معدماً كان قد رمى نفسه في الماء قبل ثمانية أيام، لأنه لم يبقَ في جيبه غير صفير الريح. كان سيمون موجوداً حين انتشل؛ ولما كان يتخيل أن ذلك المتسول المسكين ذو سحنة مزرية وبشعة، فإن دهشته كانت كبيرة لذلك الهدوء والاطمئنان على وجه ذلك التعيس. قيل حينذاك:

- لقد مات.

وأضاف أحدهم:

- إنه سعيد الآن.

سيمون بدوره قرر أن يغرق نفسه لأنه كان بلا أب، مثلما كان ذلك التعيس بلا مال.

وصل قرب النهر فرأى الماء يجري، بعض الأسماك تمرح وتسبح بسرعة وتقفز أحياناً فوق سطح الماء لتلتقط الذباب أو البعوض. توقف عن البكاء ليراها، لأن حركاتها أعجبته كثيراً. ولكن أحياناً، كما يحدث أثناء هدوء العاصفة فإن هَبَّاتٍ نشطة تحدث هزات في أغصان الشجر ثم تضمحل في الأفق، فإن فكرة الانتحار كانت تعاوده وتصيبه بألم شديد:

- سأغرق نفسي، لأن لا أب لي.

كان الطقس حاراً جداً، ولطيفاً جداً. الشمس تبعث الدفء في العشب والمياه تلمع كمرآة؛ اجتاحت سيمون دقائق من الغبطة والوهن الذي يلي البكاء حتى تملكته رغبة شديدة في النوم هناك على العشب، في الدفء.

قفزت تحت قدميه ضفدعة صغيرة، حاول الإمساك بها، أفلتت، تابعها وفشل في التقاطها ثلاث مرات متتالية. أخيراً أمسك بنهاية قوائمها الخلفية وجعل يضحك وهو يراقب الجهود التي كانت تبذلها للإفلات. كانت تنكمش عند ساقيها، ثم بعد ارتخاء سريع كانت تمدهما فجأة ليتصلبا كقضيبين؛ وفيما عينها مستديرة ومحاطة بحلقة ذهبية، كانت تعارك الهواء بقوائمها الأمامية التي كانت تهتز كالأيدي. تذكر حينها لعبة مصنوعة من ألواح خشبية صغيرة مثبتة بشكل متعرج بمسامير، وبحركة مماثلة لحركة الضفدع كانت تقوم بتدريب العساكر الصغار المثبتة فوقها. حينها فكر في بيته ثم بأمه، بعد ذلك أخذته موجة من الحزن فعاد يبكي. كان يحس بقشعريرة تنسل في أعضائه؛ ركع وتلا صلاة ما قبل نومه غير أنه لم يستطع أن يتمها لأن نحيباً شديداً وصاخباً غلبه على أمره فلم يعد يفكر أو يرى ما حوله وما كان شيء يشغله سوى البكاء.

فجأة، إذا بيد ثقيلةعلى كتفه، وصوت قوي يسأله:

- ما الذي يحزنك إلى هذا الحد يا صبي؟

التفت سيمون وإذا بعامل ضخم الجثة ذي لحية وشعر أسود مجعد، ينظر إليه بحنو، فأجابه والدموع تملأ عينيه:

- لقد ضربوني.. لأنني .. أنا .. أنا لا أب لي.. لا أب لي..

- كيف ذلك، أجاب الرجل مبتسماً، فلكل واحد من الناس أب.

أجاب الولد بألم بين تشنجات حزنه:

- أنا.. أنا ليس لدي أب.

حينها بدا الجد على العامل، فقد تذكر ابن لابلانشوت، ومع أنه حديث الإقامة في القرية، كانت لديه فكرة غامضة عنها، فقال للصبي:

- هيَّا، أبشر يا ولدي وتعال معي لنذهب إلى والدتك، وسنعطيك أباً.

سارا معاً وقد أمسك الكبير بيد الصغير، كان الرجل يبتسم، إذ كان مسروراً لأنه سيرى عن كثب لابلانشوت التي كانت من أجمل فتيات المنطقة. ربما كان يفكر في أعماقه بأن شابة سقطت مرة قد تعيد الكرَّة.

وصلا إلى بيت صغير أبيض، شديد النظافة، فقال الصبي:

- هنا، ثم صاح:

- أمي!..

ظهرت امرأة ، فكف العامل فجأة عن الابتسام، لأنه فهم على الفور أنه لا يمكن العبث مع تلك الفتاة الطويلة الشاحبة التي تسمرت أمام الباب بملامح قاسية وكأنها وقفت هناك لمنع الرجل من تخطي عتبة ذلك البيت حيث تعرضت فيما مضى لخيانة رجل آخر، فتمتم خجلاً:

- تفضلي يا سيدتي، ها أنا أعيد إليك ولدك الصغير الذي كان تائهاً قرب النهر.

غير أن سيمون تعلق بعنق أمه وقال لها وهو يبكي ثانية:

- لا، يا أمي، كنت أريد أن أغرق نفسي لأن الأولاد الآخرين ضربوني.. ضربوني.. لأنني بلا أب.

علا خديها احمرار لاذع، فغمرت صغيرها بعنف وقد تمزقت حتى أعماق جسمها، بينما سالت الدموع من عينيها لتغطي وجهها. وبقي الرجل وقد غلبه التأثر، لا يعرف كيف يغادر. غير أن سيمون أسرع نحوه وقال:

- أتريد أن تكون أبي؟

ران عليهم الصمت، أما لا بلانشوت فكانت كالخرساء يعذبها الخجل، وقد استندت إلى الجدار ويداها على قلبها. حين رأى الصبي أن ما من أحد أجابه بشيء، تابع:

- إذا رفضت فسأعود لأغرق نفسي.

اعتبر العامل المسألة مزاحاً فأجاب ضاحكاً:

- نعم أقبل بكل سرور.

- إذاً ما اسمك حتى أرد عليهم حينما يريدون معرفة اسمك؟

- فيليب. أجاب الرجل.

صمت سيمون لحظة ليُدخل ذلك الاسم في رأسه، ثم مد يده وقد تعزى قلبه وقال:

- حسناً يا فيليب، أنت أبي.

حمله العامل بين يديه وقبَّل وجنتيه، ثم هرول هارباً بخطى واسعة.

حين دخل الصبي إلى المدرسة في اليوم التالي، استُقْبِلَ بضحكة خبيثة؛ ولدى الانصراف حين أراد الولد المناحر أن يعيد الكرَّة، رماه سيمون بكلمات اخترقت رأسه كما لو أنها كانت حجارة:

- أبي، اسمه فيليب.

- فيليب من؟... فيليب ماذا؟... ما هذا الفيليب؟.. من أين جئت به؟.

لم يجب سيمون بشيء؛ وبإيمان لا يتزعزع تحداهم بعينه وقد استعد لتحمل الآلام دون أن يفر أمامهم. أنقذه أستاذ المدرسة فعاد إلى أمه.

ظل العامل العملاق فيليب، مدة ثلاثة أشهر يمر كثيراً أمام منزل لا بلانشوت، وأحياناً كان يستجمع شجاعته ويكلمها حين يراها تخيط قرب النافذة، كانت تجيبه بأدب ورزانة دون أن تضحك له مطلقاً، ولم تترك له مجالاً ليدخل بيتها. غير أنه ككل الرجال، كان مغروراً، وتخيل أنها غالباً ما تصبح أكثر احمراراً عندما كانت تكلمه.

لكن السمعة الحسنة لساقطة صعبة الاستعادة وتبقى على الدوام سريعة العطب، حتى أنه بالرغم من تحفظ لا بلانشوت المرتاب، فإن النميمة عمت القرية.

أما سيمون فقد أحب أباه الجديد حباً جمّاً وكانا يذهبان للنزهة معاً كل مساءٍ تقريباً بعد أعمال النهار، كان يذهب بانتظام إلى المدرسة ويمر بين رفاقه شديد الاعتزاز دون أن يرد على كلامهم مطلقاً.

مع ذلك قال له يوماً ذلك الصبي الذي كان أول من هاجمه:

- لقد كذبت، فأنت ليس لك أب يدعى فيليب.

- ولمَ لا؟ أجابه سيمون وقد غلبه التأثر.

أجابه الصبي وهو يفرك يديه:

- لو كان لك أب لكان زوجاً لأمك.

اضطرب سيمون أمام دقة هذا التفكير، على أنه أجابه:

- في كل الأحوال هذا أبي.

- من الممكن، أجابه الصبي هازئاً، لكنه ليس أباك تماماً.

حنى ابن لا بلانشوت رأسه وسار باتجاه دكان الحداد «لوازون» حيث كان فيليب يعمل.

كانت الدكان تبدو وكأنها مدفونة تحت الأشجار، جوُّها معتم، وكان ضوء النار الموقدة هو الإنارة الوحيدة التي تضيء على خمسة من الحدادين ذوي السواعد العارية التي تنهال بالضربات على السندان فتحدث فرقعة كبيرة. كانوا واقفين وألسنة اللهب تنيرهم فيبدون كالأبالسة. عيونهم مثبتة على الحديد المحمي الذي كانوا يشكلونه؛ وأفكارهم المثقلة تعلو وتهبط مع مطارقهم.

دخل سيمون دون أن يشعر به أحد وذهب يشد صديقه من كمه، فالتفت وتوقف العمل فجأة وكل الرجال تطلعوا، بانتباه. حينئذ، وسط ذلك الصمت غير العادي سُمِعَ صوت سيمون الضعيف.

- قل لي يا فيليب، أخبرني ابن لا ميشود بأنك لست أبي تماماً.

- ولم لا؟ سأله العامل.

- لأنك لست زوج أمي.

لم يضحك أحد، وبقي فيليب واقفاً وقد أسند رأسه على ظهر كفيه المستندين إلى ساعد مطرقته المرفوعة على السندان. كان يحلم ورفاقه الأربعة يحدقون فيه، وبين أولئك العمالقة وقف سيمون ينتظر بقلق.

فجأة قال واحد منهم مجيباً على أفكار الجميع:

- بكل الأحوال، هي فتاة صالحة وطيبة لا بلانشوت هذه، إنها شجاعة ومهذبة بالرغم من مصيبتها، وستكون نعم الزوجة لرجل شريف.

جميعهم قالوا:

- هذا صحيح.

فتابع العامل:

- هل هذه غلطتها حين زلَّت هذه الفتاة؟ لقد وُعِدَت بالزواج؛ وأعرف غير واحدة ممن يتمتعن بالاحترام الآن وكن قد فعلن الأمر ذاته.

- هذا صحيح، أجابه الرجال الثلاثة معاً، فتابع:

- كم تألمت المسكينة لتنشئة ولدها وحدها، وكم بكت منذ أن لم تعد تخرج من بيتها إلا إلى الكنيسة، ولا يعلم بذلك إلا الله.

- هذا صحيح أيضاً، قال الجميع.

حينذاك لم يعد يُسمع إلا صوت المنفاخ يؤجج نار الموقد، انحنى فيليب فجأة نحو سيمون وقال له:

- اذهب وقل لأمك بأن لدي ما أقوله لها هذا المساء.

ثم دفع الصبي من أكتافه خارج الدكان، وعاد إلى عمله، وانهمرت ضربات مطارقهم معاً على السنادين؛ عملوا حتى المساء، جبابرة، أقوياء، سعداء وراضين. ولكن كما يرن ناقوس الكنيسة الكاتدرائية أيام الأعياد متميزاً عن الأجراس الأخرى، هكذا كانت مطرقة فيليب تهيمن على فرقعات المطارق الأخرى وتنزل كل ثانية محدثة ضجيجاً يصم الآذان. أما هو، والحماس بادٍ في عينيه، كان يعمل بشغف واقفاً فوق الشرار المتطاير.

عندما طرق باب لا بلانشوت، كانت النجوم تملأ السماء. كان قد ارتدى قميص يوم الأحد وقد شذب لحيته. وقفت الصبية أمام العتبة قالت له بصوت ينم عن الألم:

- قدومك عند هبوط الليل يسيء إليَّ يا سيد فيليب.

حاول الرد، فتمتم وبقي مربكاً أمامها، فتابعت:

- أنت تعي تماماً أنه يجب ألا يلوك الناس سيرتي من بعد.

فجأةً قال لها:

- وماذا يضيرك لو رغبت في أن تكوني زوجتي؟

لم تفه بأي جواب، لكنه ظن أنه سمع في عتمة الغرفة صوت جسم يترنح، دخل بسرعة؛ وميَّز سيمون وهو في سريره صوت قبلة وبضع كلمات تهمسها أمه بصوت خافت. فجأة أحس بذاته يرتفع بين يدي صديقه الذي أمسكه بيديه العملاقتين وصاح به:

- ستقول لهم، لرفاقك، إن أباك هو فيليب ريمي الحداد، وهو سيشد آذان كل من سيؤذونك.

في اليوم التالي، والقاعة تغص بالطلاب، والدروس على وشك أن تبدأ وقف سيمون شاحباً وشفاهه ترتجف، وقال بصوت واضح:

- إن أبي هو فيليب ريمي الحداد، ولسوف يقتلع أذن كل من يتسبب في أذاي.

لم يضحك أحد هذه المرة لأن الكل يعرف حق المعرفة من هو فيليب ريمي. كان رجلاً يفخر أي واحد منهم لو كان أباه.

١ كانون الأول ١٨٧٩

الوصيــة

إلى بول هيرفيو

توثقت عرى الصداقة بيني وبين «رونيـه دو بورنفـال»، وهـو شـاب لطيـف المعشر، رقيق الحاشية، تعلو وجهه مسحة من الحزن، في نظراته ما يوحي بأنه على بيِّنةٍ وعلمٍ تام بكل ما يدور حوله. ومن طبعه الحـذر والارتيـاب، يحس مـن دأب عـلى رفقته أن رياء المجتمعات المخملية لا يخفى على بصره النفـاذ. وغالبـاً مـا كـان يـردد العبارة التالية:

- «الرجال الشرفاء لا وجود لهم، أو على الأقل، ليس الرجال بشرفاء البتة إلا إذا قورنوا بالسفهاء والأوغاد وحثالة الناس».

عرفت أيضاً أن له أخوين لم يكن يزورهما، هما السيدان «دو كورسيل». كنـت أظن أنه ثمرة زواج ثان لأمه وذلك لاختلاف اسم عائلته عـن اسـم عائلـة أخويـه؛ وقيل لي مراراً إن قصة غريبة حدثت لتلك العائلة، أما أنا، فلم أكن قد سـمعت قـط تفاصيل عنها.

الرجل كان يعجبني أيما إعجاب، وتوطدت صحبتنا. في مـساء أحـد الأيـام، وكنت أتناول طعام العشاء على مائدته، جرَّني الحديث إلى سؤاله:

- رونيه.. هل ولدت من زواج السيدة والدتك الأول أم الثاني؟.

امتقع وجهه ثم احمرَّ وكأنه يحاول كتمان ما في صـدره؛ ولبـضع ثـوان لم ينـبس ببنت شفة وقد بدا عليه الارتباك. ثم ابتسم ابتـسامة حزينـة ورقيقـة كانـت إحـدى ميزاته وقال:

- يا صديقي العزيز، سوف أسرد على مسامعك أحداثاً مثيرة عن أصلي، إن لم يكن في ذلك ما يزعجك، لقد عرفت فيك الرجل الذكي، وأنا لا أخشى ضيراً على صداقتنا مما سأروي؛ وإن تأذت سأقطع عرى هذه الصداقة.

كانت والدتي السيدة «دو كورسيل»، امرأة صغيرة القد، خجولة، اقترن بها زوجها طمعاً بثروتها، وأمضت معه حياةً كلها عذاب ومعاناة، كانت ودودةَ الروح تتوجس شراً ورقيقةَ المعشرِ؛ على العكس من ذلك عاملها زوجها، الذي من المفترض أن يكون أبي، بقسوة، وعنف. كان فظاً غليظ الطباع، وهو ممن سُمّوا بالنبلاء الريفيين، فبعد شهر واحد من زواجهما، بدأ بمعاشرة الخادمة، ومن ثم لم يتورع عن مضاجعة زوجات المزارعين وبناتهم؛ ولم يمنع ذلك من أن يرزق بولدين من أمي، ويفترض أن يكونوا ثلاثة لو أحصيت معهم. لزمت أمي صمتاً أين منه صمت القبور، وعاشت في ظلال ذلك البيت الصاخب كفأر يتسلل بين الأثاث، تنظر إلى الناس بعين حائرة وساهمة وواجفة لا يفارقها الخوف، كانت جميلة، لا بل جميلة جداً، يغلب على شعرها اللون الأشقر الممتزج بالرمادي، وكأن لونه قد تغير من جراء مخاوفها المستمرة.

بين أصدقاء السيد «دو كورسيل» الذين كانوا يفدون باستمرار إلى القصر، ضابط متقاعد في كتيبة الفرسان، وأرمل؛ رجل يُخْشى جانبه، حنون وعنيف، لا يتردد في اتخاذ أكثر القرارات صرامة، هو السيد «دو بورنفال» الذي أورثني اسمه؛ ترى عبر قامته الطويلة وجسمه النحيل وشاربه الأسود، أمارات الشدة والبأس، وبيني وبينه شبه كبير. هذا الرجل كان مدمناً على المطالعة، ولا يفكر كأقرانه من الرجال. إحدى جداته كانت صديقة لجان جاك روسو، ويقال إن تلك العلاقة القديمة قد أورثت «دو بورنفال» شيئاً ما من طباعه وسلوكه. كان يعرف عن ظهر قلب كتابَيْ «العقد الاجتماعي»، و«هيلوييز الجديدة»، وأَلَمّ بكل تلك الكتب المُفَلْسِفَة التي هيأت من بعيد الثورة على عاداتنا القديمة وقوانيننا البالية وأخلاقنا المشبعة غباءً.

والدتي أحبته على ما يبدو، وهو أيضاً بادلها تلك العاطفة. وبقيت علاقتهما طي الكتمان ولم تكن يوماً موضع ارتياب لأحد. فتلك المرأة المسكينة المُهمَلة اضطرت أن تتعلق به تعلق غريق بقطعة خشب طافية، ثم تأخذ عنه، بعد عِشْرةٍ طويلة، كل طرق تفكيره ونظرياته في المشاعر الطليقة وميوله إلى الحب الحر، ولشدة حذرها وخوفها، لم تجرؤ يوماً على إسماع صوتها. كل ذلك كُبِتَ، وكُثِّفَ وضُغط في قلبها الذي بقي مغلقاً.

أخواي أيضاً عاملاها بقسوة كأبيهما، ولم يُبْدِيا قط حناناً نحوها، ولأنهما اعتادا على اعتبارها من متممات البيت، ولا شيء غير ذلك، عاملاها نوعاً ما كخادمة. أما أنا فكنت الوحيد بين أفراد تلك العائلة الذي أحبها وأحبته.

توفيت وأنا في الثامنة عشرة من عمري. هنا يجب أن أضيف إلى ما قلت، ولكي تُدرِك وتعي تماماً ما يلي، بأن زوجها قد حصل على نسخة حكم قانوني لصالح والدتي، يحدد ممتلكاتها ويفصلها عن ممتلكاته، وبذلك تمكنت من التوصية بملء إرادتها وبفضل تفاني الكاتب بالعدل وذكائه.

أُبْلغنا جميعاً بأن وصية والدتي موجودة لديه، واستُدْعينا لسماع ما جاء فيها. إني لأذكر ذلك كما لو أنه حدث بالأمس القريب. وإني لأتخيله - كما حدث - مشهداً عظيماً، دراميا، مدهشاً، ويبعث على السخرية في آن معاً، أوحته تلك الثورة المتأخرة للفقيدة، ثورة وصرخة تطالبان بالحرية من أعماق القبر. صرخة تلك التي استشهدت مسحوقة خلال حياتها، متأثرة بعاداتنا وتقاليدنا، فكانت تبعث من ظلمة قبرها نداءً يائساً نحو الانعتاق.

من ظن نفسه أبي، كان رجلاً ضخم الجثة دموي الملامح، يوحي لك مظهره بلحَّام الحي. وأخواي شابان قويان في العشرين والثانية والعشرين من عمرهما، جميعهم جلسوا في مقاعدهم ينتظرون بهدوء. واستدعي معنا أيضاً السيد «دو بورنفال» فدخل وجلس خلفي مُلْتَفّاً بمعطفه وكان شديد الشحوب، يقرض من وقت لآخر شاربه الذي بدأ يشيب وقتئذٍ؛ وأظن أنه كان يتوقع ما سيحدث.

أقفل الكاتب بالعدل الباب بالمزلاج وأنشأ يقرأ، بعد أن فض المغلف المختوم بالشمع الأحمر، والذي كان يجهل فحواه.

فجأة، صمت صديقي ونهض إلى خزانته ليأخذ منها ورقة قديمة؛ فتحها وقبّلها قبلة طويلة وتابع:

- ها هي ذي وصية المرحومة والدتي:

«أنا الموقعة أدناه، آن ماري جنيفيف ماتيلد دو كروالوس، الزوجة الشرعية لجان ليوبولد جوزيف غوتران دو كورسيل، أعبِّر هنا وأنا بكامل قواي العقلية والجسدية عن رغباتي الأخيرة:

أطلب المغفرة من ربي أولاً، والعفو والصفح من ابني رونيه عما سأذكره، لكنني أؤمن إيماناً ثابتاً بأن ابني ذو قلب كبير قادر على إدراك الواقع وسيفهمني ويغفر لي. قاسيت الأمرَّين طيلة حياتي، فقد اتخذني جان زوجة له بحساب، مقدراً كل صغيرة وكبيرة، ومن ثم احتقرني وتجاهلني وقهرني وخانني بلا انقطاع.

أنا أسامحه لكنني لست مدينة له بشيء.

ولداي الكبيران لم يعطفا عليَّ ولم أشعر بحبهما وحدبهما، وبالكاد عاملاني كوالدة لهما. كنت لهما خلال حياتي ما يحتم الواجب عليَّ أن أكون، لكنني أشعر أيضاً بأنني لا أدين لهما بشيء بعد مماتي، لأن روابط الدم لا طعم لها ولا معنى بدون المحبة المقدسة المستمرة على مدى الأيام. الولد العاق في شرعي أقلُّ شأناً وقدراً من غريب، لا بل هو مذنب آثم لا يحق له مطلقاً أن يكون لا مبالياً تجاه والدته.

كنت دائمة الارتعاش أمام الرجال وقوانينهم الجائرة الظالمة، وعاداتهم البعيدة عن الإنسانية، وأفكارهم المسبقة المنحطة؛ أما وأنا أواجه ربي فلا أخشى شيئاً، وأُلقي عني بعد موتي كل الرياء البشري المخجل، وأجاهر بأفكاري وأبوح بما يعتلج في داخلي، وأمهر ذلك بتوقيعي.

إذاً، أترك كل ما تعود ملكيته لي حسب القوانين النافذة، لحبيبي وأمين سر قلبي بيير دو بورنفال، ليستفيد منه فيها بعد ولدنا الحبيب رونيه.

(هذه الرغبة عَبَّرت عنها في صك آخر مصدَّق إضافة للوصية).

أمام القاضي الأعلى، فاحص القلوب والكلى، والذي يسمعني ويعلم سريرة قلبي، أعلن أنني لو لم ألقَ الجنان والحب المتفاني الصادق والصامد لدى عشيقي، لو أنني لم أعِ بين ذراعيه أن الخالق قد أوجد الناس ليتحابوا ويتكاتفوا ويعزي بعضهم بعضاً، وتدمع أعينهم في ساعات الضيق، للعنت وكفرت بالسماء وبالوجود كله.

والد ابنيَّ الكبيرين هو السيد دو كورسيل، رونيه فقط مدين بحياته للسيد دو بورنفال، أرجو رب العباد وسيد مصائرهم، أن يضع فوق كل الاعتبارات الاجتماعية الأب وابنه، وأن تجمعهما المحبة حتى المات ويتذكراني في مثواي الأخير.

تلك هي رغبتي الأخيرة ونهاية ما أصبو إليه.

ماتيلد دو كروالوس

نهض السيد دو كورسيل من كرسيه وصاح:

- إنها وصية مجنونة.

حينئذ تقدم السيد دو بورنفال وأعلن بصوت مدوٍّ وقاطع:

- أنا بيير دو بورنفال، أعلن أن ما احتوته هذه الوصية ليس سوى الحقيقة، وأنا على استعداد لإثبات ذلك أمام أي إنسان، وأن أبرهن عليه بالرسائل والأوراق التي في حوزتي.

مشى إليه السيد دو كورسيل فاعتقدت أنهما سيشتبكان لكنهما وقفا متقابلين: الزوج طويل ممتلئ، والآخر نحيل يرتجف، زوج والدتي قال متلعثماً:

- أنت حقير!..

فأجابه الآخر بلهجة صارمة وقاطعة:

- سنلتقي في غير هذا المكان يا سيد، وكان بودي أن أصفعك وأتحداك منذ أمد بعيد لو لم أبتغِ قبل كل شيء المحافظة على هدوء وراحة تلك المسكينة إبان حياتها، تلك التي سُمْتَها العذاب والهوان.

ثم التفت إليَّ وقال:

- أنت ابني، هلاّ صحبتني؟ ليس لي الحق أن آخذك معي، ولكن إن أنت تبعتني فالأمر يختلف.

شددت على يده الممدودة دون أن أجيب، وخرجنا معاً وقد ذهب نصف عقلي بلاشك.

بعد ذلك بيومين، قُتل دو كورسيل في مبارزة مع دو بورنفال، ولزم أخواي الصمت خشية الفضيحة. وقد تنازلت لهما وقبلا، عن نصف ما تركته لي والدتي من إرث، وأخذت اسم أبي تاركاً الاسم الذي أُعْطِيته بالقانون والشرعية ولم يكن لي.

أما السيد دو بورنفال فقد توفي منذ خمسة أعوام، ولا أزال حتى الآن في حزن كبير لفقده.

نهض وسار بضع خطوات ثم توقف أمامي وقال:

- نعم، أقول إن وصية أمي هي أجمل وأصدق ما يمكن أن تقوم به امرأة؛ أوليس هذا رأيك أيضاً؟

مددت له يديَّ الاثنتين وقلت:

- نعم وبكل تأكيد يا صديقي..

٧ تشرين الثاني ١٨٨٢

حب

ثلاث صفحات من كتاب صياد

قرأت للتو في صفحة المنوعات لإحدى الصحف مأساة عاطفية: قتلها ثم انتحر، إذاً كان يحبها، ماذا يهم هو وهي؟ ما يهمني هو حبهما فقط، وليس له من أهمية بالنسبة لي لأنه يثير فيَّ الشفقة أو لأنه يدهشني أو يؤثر فيَّ أو يجعلني أحلم، بل لأنه يعيد إلي ذكرى مرت في شبابي، ذكرى صيد غريبة حين ظهر لي «الحب»، كما كانت الصلبان تظهر في كبد السماء للمسيحيين الأوائل.

ولدت ولديَّ كل غرائز وحواس الإنسان البدائي، لطَّفتها حجج ومفاهيم إنسان متمدن؛ أنا مغرم بالصيد؛ الحيوان المدمى، الدم على الريش وعلى يديَّ، كل هذا يثير قلبي حتى يكاد ينهار.

تلك السنة، عند نهاية الخريف، فاجأنا البرد؛ واستدعاني أحد أقربائي كارل دي روفيل كي أصحبه لصيد البط في المستنقعات، عند مطلع الفجر.

قريبي هذا رجل جسور، ناهز الأربعين، أصهب قوي ذو لحية كثة؛ نبيل ريفي نصف وحش لطيف بطبع مرح، يتمتع بتلك الروح الماجنة التي تجعل التفاهة ممتعة؛ كان يسكن مزرعة أقرب ما تكون إلى قصر، في واد واسع يجري فيه نهر؛ والتلال حوله تغطيها أحراش قديمة كانت فيما مضى، لسادة نبلاء، بقيت فيها أشجار باسقة رائعة حيث كانت تكثر أندر الطرائد، من ذوات الريش، في أنحاء فرنسا وتصطاد فيها النسور أحياناً؛ أما الطيور العابرة التي لا تأتي إلى بلادنا المكتظة إلا نادراً، فلابد وأن تتوقف على أغصانها الدهرية وكأنها عرفت أو تذكرت زاوية صغيرة في الغابة، من مرات سابقة، ظلت هناك لتكون لها ملجأً إبان رحلتها الليلية القصيرة.

في الوادي كانت هناك مراع كبيرة تروى بواسطة أقنية وتفصلها أسيجة؛ وفي البعيد، نهر تتوزع مياهه في أقنية ثم تسيح في مستنقع، هو أفضل مكان صيد رأيته في حياتي، وكان الشغل الشاغل لقريبي الذي كان يعتني به كحديقة بين القصب الكثيف الذي كان يغطيه ويدب فيه الحياة والضجيج والأمواج المتلاطمة؛ كنا قد حددنا ممرات ضيقة حيث كانت الزوارق الملساء القعر، التي تقاد وتوجه بالعصي، تمر صامتة على المياه الساكنة، فتلامس الأسل وتنفر السمك السريع عبر الأعشاب، وتجعل الدجاج البري يغطس فتختفي رؤوسه السوداء المدببة فجأة.

أنا أعشق المياه بشكل غير متوازٍ: البحر، بالرغم من أنه كبير ودائم الحركة، ويستحيل امتلاكه، والأنهر التي تمر، وتهرب وترحل، والمستنقعات حيث يختلج كل الوجود المجهول للكائنات المائية.. المستنقعات.. إنها عالم متكامل على الأرض، عالم مختلف له حياته الخاصة، وسكانه المقيمون ومسافروه العابرون، أصواته، ضجيجه وبخاصة أسراره، ما من شيء أكثر إثارة وقلقاً وخوفاً من مستنقع في بعض الأحيان، ما سبب هذا الخوف الذي يسود هذه السهول المنخفضة المغطاة بالماء؟ هل هي همسات القصب الغامضة؟ أما وهج المستنقعات الغريب، والسكون العميق الذي يغلفها في الليالي الهادئة، أو الضباب الغريب الذي يجر أذياله على أغصان الأسل كثياب الموتى، أو البقبقة التي تكاد تكون غير مسموعة وناعمة، وهي التي تثير الرعب أحياناً أكثر مما تثيره مدافع الناس ورعود السماء مما يجعل المستنقعات ذات شبه كبير ببلاد الأحلام، أو بلاد رهيبة تخفي أسراراً خفية وخطيرة.

لا.. هناك شيء آخر يخرج منها، سر آخر أكثر عمقاً، وأشد خطراً، يطوف مَعَ الضباب الكثيف، ربما هو سر الخلق! أليس في المياه الراكدة الموحلة، في الرطوبة المثقلة للأراضي المبتلة تحت حرارة الشمس، قد تحركت وارتجّت وتفتحت للنور أولى خلايا الحياة؟..

وصلت مساءً عند قريبي، والجليد يفطر الحجارة.

خلال العشاء، في القاعة الكبرى حيث الصوان والجدران والسقف كلها مغطاة بالطيور المحنطة، ذات الأجنحة المنبسطة أو الجاثمة على أغصان مثبتة

بالمسامير، مثل الصقور ومالك الحزين والبوم والسُّبَد والسقاوة وغيرها من الطيور الجارحة. أما قريبي الذي بذاته يشبه حيواناً غريباً، من البلاد الباردة فكان يرتدي سترة من جلد الفقمة ويحدثني عن الاستعدادات التي اتخذها لتلك الليلة.

كان علينا الانطلاق في الثالثة والنصف صباحاً لنصل في الرابعة والنصف إلى النقطة المختارة لصيدنا. هناك بني كوخ جليدي ليحمينا قليلاً من زمهرير ريح ما قبل الصبح، ذلك الهواء الذي يحمل معه برداً يمزق الجسد كالمنشار ويقطعه كالشفرات، ويلسعه كالإبر المسمومة ويلويه مثل كمّاشة ويحرقه كالنار.

قريبي كان يفرك يديه فقال:

- لم أشهد يوماً تجمداً كهذا، لقد تدنت الحرارة إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصفر في السادسة مساءً.

ذهبت إلى سريري بعد العشاء ونمت على ضوء نار تشتعل في موقدي.

أوقظت في الثالثة تماماً، ارتديت أنا أيضاً جلد خروف ثم لاقيت قريبي كارل وقد ارتدى جلد دب، وبعد أن شرب كل منا كوباً من القهوة اللاذعة، أتبعناها بكأسي شمبانيا، انطلقنا بصحبة حارس مع كلبينا: بلونجون وبييرو.

لدى أول خطوة خارج القصر شعرت بالتجمد حتى العظام. تلك كانت ليلة تبدو فيها الأرض ميتة من البرد. فالهواء المتجمد يصبح مقاوماً، قابلاً للمس لشدة ما يحدثه من ألم؛ لا تحركه أية نسمة، فهو متسمر، جامد، يعض ويخترق ويجفف ثم يقتل الأشجار والنباتات والحشرات، وصغار الطير.

القمر في ربعه الأخير، مائل وشاحب، بدا خائر القوى وسط الفضاء، كان ضعيفاً بحيث لم يستطع أن يغيب فبقي معلقاً في الأعلى وقد شلته قسوة السماء، كان ينشر ضوءاً جافاً وحزيناً على العالم، ذلك الضوء المحتضر الباهت الذي يرسله إلينا كل شهر، في نهاية بعثه ونشوره.

كنا نسير، أنا وكارل، جنباً إلى جنب بظهر منحن وأيد مدسوسة في الجيوب والبندقية تحت الساعد. أحذيتنا كانت مغلفة بالصوف لتقينا الانزلاق على النهر المتجمد، وتجعل خطانا صامتة؛ كنت أنظر إلى البخار المتصاعد مع أنفاس كلابنا.

بعد قليل وصلنا إلى طرف المستنقع وسرنا في أحد ممرات القصب الجاف، الممتد عبر تلك الغابة المنخفضة.

أكواعنا كانت تلامس الأوراق الطويلة، وتخلِّف وراءنا حفيفاً ناعماً، أحسست بأنني كما لم أكن يوماً، أسير هذا الشغف القوي والغريب الذي تولده لدي المستنقعات. ذاك المستنقع كان ميتاً من البرد لأننا مشينا فوقه وسط أحيائه من الأسل اليابس.

فجأة عند منعطف الممر، لاح لي الكوخ الذي أُنشِئ لنلجأ إليه؛ دخلته، وبما أنه كانت لدينا نصف ساعة انتظار لتستفيق الطيور التائهة التفت بغطائي محاولاً أن أبعث الدفء في جسدي.

كنت متمدداً على ظهري أنظر إلى القمر المشوه وقد برزت منه قرون أربعة عبر الحواجز الجليدية غير الواضحة لذلك الكوخ القطبي.

لكن برد المستنقع المتجمد، وبرد الجدران والبرد الساقط من السماء تغلغل فيَّ بشكل مريع حتى بدأت بالسعال.

دب القلق بكارل فقال:

- لا عليك إن لم نصطد كثيراً اليوم فأنا لا أريد أن تصاب بالرشح؛ سنضرم ناراً.

وأعطى الأمر للحارس أن يقطع قصباً.

جمعنا ذلك القصب وسط الكوخ المثقوب السقف لينطلق منه الدخان، وحين تصاعدت ألسنة اللهب الحمراء نحو تلك الحواجز البلورية، بدأت في الذوبان ببطء، وكأن تلك الحجارة الجليدية بدأت تتصبب عرقاً، ناداني كارل إذ كان قد خرج:

- تعال وانظر!.

خرجت وبقيت مذهولاً. كوخنا المخروطي الشكل كان مثل ماسة هائلة في قلب النار المندفعة بغتة فوق ماء المستنقع المتجمد، وفي داخله شكلان عجيبان لكلابنا التي كانت تصطلي.

لكن صرخة غريبة في الفضاء تائهة، عبرت فوق رؤوسنا. لقد أيقظ ضوء النيران لدينا الطيور البرية.

لاشيء يؤثر فيَّ مثل جلبة الحياة الأولى غير المرئية والتي تجري في الهواء المظلم بعيداً وبسرعة قبل أن يظهر في الأفق أول ضوء في نهار شتوي. يبدو لي في هذه الساعة المتجمدة من الفجر أن هذه الصيحة الهاربة التي يحملها ريش طائر هي نفس من أنفاس روح العالم!..

قال كارل:

- اطفئوا النار، لقد لاح الصباح.

بدأت السماء تشحب بالفعل ومجموعات البط تجر بقعاً سوداء سريعة تختفي بسرعة في كبد السماء.

وميض تبعه صوت انفجار، لأن كارل كان قد أطلق ناراً، فاندفع الكلبان حينئذ؛ من دقيقة لأخرى كنا نصوِّب بنشاط، مرة أنا وأخرى كارل، ما إن يظْهر فوق القصب ظل مجموعة من تلك الطيور. بيرو وبلونجون كانا يجلبان إلينا وهما يلهثان فرحين، الطرائد المدماة وعيون البعض منها ما تزال تحدق بنا.

طلع النهار، نهار صافي الزرقة؛ ظهرت الشمس في أقصى الوادي، وكنا نفكر بالعودة حين لمحنا طيرين، عنقاهما وأجنحتهما ممدودة، ينزلقان بغتة فوق رؤوسنا، أطلقت فوقع أحدهما عند قدمي تقريباً. وفي الفضاء فوق رأسي انطلق صوت.. صوت طير يصرخ بأنات قصيرة متكررة تمزق القلب؛ هذا الطير الذي نجا جعل يحوم في السماء الزرقاء فوقنا وهو ينظر إلى رفيقته الميتة بين يدي.

كان كارل راكعاً وبندقيته على كتفه وعينه متيقظة ينتظر الطير ليقترب.

قال لي:

- لقد قتلت الأنثى.. والذكر لن يغادر المكان.

بالتأكيد لم يبرح المكان، بل كان يلف ويدور ويبكي حولنا.. أنا لم أسمع يوماً أنات ألم مزقت أحشائي مثل ذلك النداء الحزين والعتاب الصادر عن ذلك الطير التائه في الفضاء.

أحياناً كان يهرب بفعل تهديد البندقية التي كانت تتابع طيرانه، بدا حيناً وكأنه يريد متابعة طريقه وحده عبر السماء، لكنه لم يستطع أن يتخذ قراراً بل كان يعود ليأخذ أنثاه.

قال لي كارل:

- دعها على الأرض، فهو سيقترب بعد قليل.

اقترب فعلاً دون أن يخشى الخطر، وقد جن متأثراً بحبه الحيواني لتلك التي قتلتها للتو.

أطلق كارل بندقيته.. وكما لو أنك قطعت حبلاً كان يبقي الطير معلقاً، رأيت شيئاً أسود يهوي وسمعت ما بين القصب صوت سقوطه، بعدها أتاني به بييرو.

وضعت الطيرين وقد أصبحا باردين في جعبتي.. وعدت يومها إلى باريس.

٧ كانون الأول ١٨٨٦

أثناء السفر

إلى غوستاف تودوز

كانت عربة القطار ملأى منذ خروجها من مدينة «كان»، والجميع يتحدثون، إذ كانوا يعرفون بعضهم بعضاً.. وحين مر القطار «بتاراسكون» قال أحدهم: «هنا ترتكب جرائم قتلٍ متكررة». وطفقوا يتكلمون عن قاتل غامض تعذَّر الإمساك به، وهو، منذ عامين، يستبيح حياة مسافر من وقت لآخر. كل منهم وضع افتراضات، وأعطى رأيه. كانت النساء يراقبن، مرتجفات، هبوط الليل خلف الزجاج، وهن يخفن ظهوراً مفاجئاً لرأس رجل عَبْرَ الباب. وصار البعض يروي قصصاً مرعبة عن لقاءات انفرادية مع مجانين في قطار سريع، وعن ساعات مرت قبالة شخص مشبوه.

كل رجل كان يعرف نكتة يعتز بها، كل واحد منهم كان قد جعل الرعب يدب في أوصال شقي صرعه وأوثقه في مناسبات غير متوقعة، وذلك برباطة جأش وجرأة لا مثيل لهما. بين المسافرين، كان هناك طبيب يمر كل فصل شتاء، عابراً جنوب فرنسا، هو أيضاً أدلى بدلوه وروى حادثة غريبة. فقال:

- لم تسنح لي أية فرصة لأختبر شجاعتي في حادثة من هذا النوع، لكنني عرفت امرأة، وهي إحدى مريضاتي، وقد توفيت، تعرضت لأغرب وأكثر الحوادث غموضاً وتأثيراً.

جرت أول أحداث هذه القصة في روسيا، للكونتيسة «ماري بارانوف» وكانت سيدة رفيعة الشأن ومن أجمل النساء، وأنتم تعرفون قدر جمال نساء روسيا،

فالأنف ناعم والفم رقيق، والعيون متقاربة، بلون يصعب تحديده، فهو بين الأزرق والرمادي. أما أناقتهن فهي باردة وقاسية نوعاً ما! لديهن شيء شرير ومغر، شامخ ولطيف، حنون وصارم، مما يجذب الفرنسي ويفتنه. في الواقع، ربما كان الفرق في الأجناس والأنماط، ما يجعلني أرى كل هذه الأشياء فيها.

منذ عدة سنين رأى طبيبها أنها مهددة بمرض صدري، وقد حاول إقناعها بالذهاب إلى جنوب فرنسا؛ لكنها رفضت بعناد مغادرة بترسبورغ. أخيراً في الخريف الماضي، وقد بدت له أنها لا محالة هالكة، أنذر زوجها الذي أمرها فوراً بالذهاب إلى «مانتون».

ركبت القطار وحيدة في مقطورة، وقد شغل خدمها مقصورة أخرى. فكانت تجلس قبالة الباب، فريسة للحزن وهي ترى الأرياف والقرى تمر أمام ناظريها، وتحس بعزلة من هُجرت في هذه الحياة، دون أولاد، وبلا أهل تقريباً، مع زوج مات حبه فرماها هكذا في مكان بعيد دون أن يرافقها، كخادم مريض أُرسِلَ إلى مستشفى.

عند كل محطة، كان خادمها إيفان يأتي ويستعلم عما إذا كانت تحتاج إلى شيء. كان خادماً عجوزاً مخلصاً إلى أقصى حد؛ ومستعداً لتنفيذ أي أمر تعطيه.

هبط الليل، والقطار يسير بأقصى سرعة، لم تستطع أن تنام وقد ثارت أعصابها؛ فجأة فكرت أن تعد المال، الذي أخذته من زوجها في آخر دقيقة، بعملة ذهبية فرنسية. فتحت محفظتها الصغيرة وأفرغت على ركبتيها دَفْقاً من الأصفر الرنان.

بغتة أحست بتيار هواء بارد يصفع وجهها. رفعت رأسها مندهشة. وإذا الباب يفتح. رمت شالها مذعورة على مالها المنثور على فستانها وانتظرت. مرت بضع ثوان، ثم ظهر رجل حاسر الرأس مجروح اليد، يلهث، وهو بثياب السهرة. أغلق الباب وجلس ثم ألقى نظرة على جارته بعينين تلمعان، ثم لف قبضة يده النازفة بمنديل.

أحست المرأة بأنها تكاد تنهار خوفاً. فمن المؤكد أن هذا الرجل رآها تعد ذهبها، وقد جاء ليسرقها ويقتلها.

كان يحدق فيها لاهثاً، ووجهه متشنج، وكان دون شك، جاهزاً لينقض عليها. فجأة قال:

- سيدتي لا تخافي!

لم تجب بشيء، إذ كانت غير قادرة على فتح فمها، وكانت تسمع ضربات قلبها وطنيناً في أذنيها.

واستأنف:

- أنا لست شقياً أو جانياً، يا سيدتي.

لم تفه بكلمة ولكن بحركة فجائية قامت بها، تقاربت ركبتاها وصارت قطع الذهب تسيل على سجادتها كما تسيل المياه من مزراب.

فوجئ الرجل وهو يرى ساقية المعدن فانحنى بغتة ليلملم القطع الذهبية.

أما هي فقد نهضت مرتعشة وقد رمت على الأرض كل ثروتها وجرت نحو الباب لتلقي بنفسها على السكة، لكنه فطن إلى ما كانت ستفعله فوثب وامسكها بذراعية وأجلسها بالقوة وثبتها بقبضتيه وقال: «أصغي إليَّ يا سيدتي، أنا لست لصاً والدليل هو أنني سألتقط هذا المال وأرده إليك، لكنني رجل هالك، رجل ميت إن لم تساعديني على اجتياز الحدود. لا أستطيع أن أقول لك المزيد. خلال ساعة سنكون في آخر محطة روسية؛ وخلال ساعة وعشرين دقيقة سنجتاز حدود الإمبراطورية. إن لم تنجديني فأنا هالك. مع ذلك يا سيدتي، أنا لم أقتل ولم أسرق ولم أقم بشيء منافٍ للشرف. أقسم لك على ذلك، ولا أستطيع أن أخبرك بالمزيد».

ركع على ركبتيه ولملم الذهب الذي انتثر تحت المقاعد، باحثاً عن آخر قطع تدحرجت هنا وهناك. وبعد أن امتلأ كيسها مجدداً رده إلى جارته دون أن يتفوه بكلمة وعاد ليجلس في الزاوية الأخرى للمقطورة.

لم يقم أي منهما بحركة، وبقيت هي ساكنة صامتة وخائرة القوى من الرعب. لكنها بدأت تهدأ تدريجياً. أما هو فقد جمد في مكانه وعيناه ثابتتان، شاحب الوجه كالميت. من حين لآخر كانت ترمقه ثم تبعد عنه نظرها بسرعة. كان رجلاً في الثلاثين من العمر تقريباً، جميل الوجه، يوحي مظهره بالنبل.

كان القطار يجري عبر الظلام، يخفف من سرعته أحياناً ثم ينطلق بأقصاها. فجأة بدأ يتمهل، وأرسل صفيراً متقطعاً ثم توقف تماماً.

حينها ظهر إيفان عند الباب ليتلقى أوامر سيدته.

بصوت مرتجف قالت لخادمها بعد أن أنعمت النظر مرة أخيرة في مرافقها الغريب:

«يا إيفان، عد إلى الكونت فأنا لم أعد بحاجة إليك».

ذهل الرجل وتمتم: «ولكن... سيدتي...».

استأنفت قائلة: «لا، لن تأتي معي، لقد غيرت رأيي. أريد أن تبقى في روسيا. خذ بعض المال للعودة، أعطني قبعتك ومعطفك».

نزع الخادم قبعته وسلم معطفه للكونتيسة، مطيعاً دون اعتراض، فهو معتاد على رغبات سيدته المفاجئة ونزوات سادته العنيدة، فابتعد والدموع في عينيه.

انطلق القطار نحو الحدود. فقالت الكونتيسة ماري لجارها:

«هذه الأشياء لك يا سيد، أنت الآن إيفان خادمي. أنا لن أضع سوى شرط واحد على ما أفعله وهو أن لا تكلمني مطلقاً، أن لا تقول لي كلمة واحدة، لا لتشكرني ولا لأي سبب آخر».

إنحنى الغريب دون أن يتفوه بكلمة.

بعد فترة وجيزة توقف القطار مرة أخرى وصعد موظفون إلى القطار. أعطتهم الكونتيسة الأوراق ثم أشارت إلى الرجل الجالس في آخر المقطورة وقالت:

«إنه خادمي إيفان وهذا جواز سفره».

انطلق بعد ذلك القطار.

بقي الاثنان وحدهما أثناء الليل صامتين، وحين أطل الصباح توقفوا في محطة ألمانية، فنزل الغريب ووقف عند الباب وقال:

«عذراً يا سيدتي أن أحنث بوعدي، لكنني حرمتك من خادمك، فمن العدل أن أحل مكانه. ألست بحاجة لأي شيء؟».

أجابته ببرود: «أذهب واستدعِ وصيفتي». فذهب ثم اختفى.

في الطريق، حين كانت تنزل إلى مقهى، لمحته من بعيد ينظر إليها. أخيراً وصلوا إلى مانتون.

٢

صمت الطبيب برهة ثم استأنف حديثه قائلاً:

في أحد الأيام، وكنت أستقبل مرضاي في عيادتي، رأيت شاباً يدخل إليَّ ويقول: «يا دكتور، جئت أسألك عن أخبار الكونتيسة ماري بارانوف. أنا، بالرغم من أنها لا تعرفني مطلقاً، صديق لزوجها».

أجبته: «إنها هالكة، وهي لن تعود إلى روسيا».

طفق ذلك الرجل ينتحب فجأة، ثم نهض وخرج يتعثر مترنحاً كمن غلبه السكر. أخبرت الكونتيسة مساءً، بأن رجلاً أجنبياً جاء يستفسر عن صحتها. بدت متأثرة وروت لي كل ما قصصته عليكم للتو، وأضافت:

«هذا الرجل الذي لا أعرفه البتة يتبعني الآن كظلي؛ ألتقي به عندما أخرج فيرمقني بنظرات غريبة لكنه لم يكلمني ولو مرة واحدة».

فكرَتْ قليلاً ثم تابعت:

«هلمَّ؛ أراهن أنه تحت نافذتي».

غادرت مقعدها وذهبت فأبعدت الستائر وأرتني بالفعل الرجل الذي جاء إليَّ، جالساً على مقعد نقال وعيناه متجهتان نحو الفندق؛ لمحنا فنهض وغادر دون أن يلتفت نحونا ولو مرة واحدة.

حينذاك شاهدت شيئاً مدهشاً ومؤلماً، هو حب ذينك الكائنين الصامتين اللذين لا يعرف أحدهما الآخر.

لقد أحبها بوفاء كائنٍ نجا من الموت، مخلص حتى الموت. كان يأتي كل يوم ويسألني: «كيف حالها اليوم؟» وكان يبكي بكاءً مراً كلما شاهدها تضعف يوماً بعد آخر.

وهي قالت لي: «لم أكلم، سوى مرة واحدة، هذا الرجل الغريب، مع أنه يلوح لي بأنني أعرفه منذ أكثر من عشرين عاماً».

عندما كانا يلتقيان، كانت ترد له تحيته بابتسامة صارمة ساحرة. كنت أحس بأنها سعيدة، هي التي هُجرت والتي تعلم بأنها لا محالة هالكة. كنت أحس بأنها سعيدة لأنه أحبها هكذا، بهذا الاحترام وهذه الشاعرية وهذا الوفاء المستعد لكل شيء. مع ذلك ظلت أمينة لعنادها إذ إنها رفضت بشكل قاطع استقباله والتعرف على اسمه ومحادثته. كانت تقول: «لا! لا! هذا سيفسد هذه الصداقة الغريبة. يجب أن نبقى غرباء».

أما هو، فإنه كان بالتأكيد أشبه بـ- «دون كيشوت»، لأنه لم يقم بأي شيء ليتقرب منها. أراد أن يحافظ حتى النهاية على ذلك الوعد اللا معقول في أن لا يكلمها أبداً، والذي أخذه على نفسه في المقطورة.

كثيراً ما كانت، خلال ساعات ضعفها، تنهض من كرسيها لترفع ستارتها وتنظر إن كان هناك تحت نافذتها. وحين تراه ثابتاً بلا حراك على مقعده، كانت تعود وتتمدد والبسمة على شفتيها.

صباح أحد الأيام أسلمت روحها. وحين خرجتُ من الفندق دنا مني ووجهه محتقن، إذ كان خبر وفاتها قد وصله، فقال:

«أريد أن أراها لحظة واحدة بحضورك». أخذته من يده ودخلت إلى غرفتها. حين وصل أمام سريرها، أمسك بيدها وقبلها قبلة طويلة، ثم فر كالمجنون.

صمت الطبيب ثانية ثم قال:

«هذه أغرب قصة عرفتها حدثت في قطار. يجب القول بأن الرجال مختلو العقل أحياناً».

تمتمت امرأة: «هذان الاثنان كانا أقل جنوناً مما تحسبون... كانا.. كانا..».

غير أنها لم تستطع أن تتكلم لشدة بكائها. ولما غيرنا الحديث لكي تهدأ، لم نعرف تماماً ما كانت تعنيه.

* * *

الحطبة

غرفة استقبال صغيرة، محاطة بستائر سميكة يفوح منها عطر ناعم. النار تشتعل في المدفأة، وقنديل واحد في ركنها يبعث أنواره الحالمة المظللة بغطاء من القماش المخرم، على شخصين يتسامران.

هي، سيدة الدار، عجوز أبيضّ شعرها، بيد أنها من بين تلك العجائز الرائعات اللواتي احتفظن ببشراتهن سليمة لا غضن فيها؛ ملساء مثل ورق ناعم، ومعطرة يملؤها شذى تسلل حتى أعماقها، من العطور التي كانت تغمر بها، منذ أمد طويل، بشرتها: عجوز يفوح منها، حين تلثم يدها، رائحة خفيفة تقفز إلى الأنف، مثلما تفوح رائحة مسحوق السوسن الفلورنسي حين تفتح علبتها.

أما هو، فصديق أيام غابرة، بقي عازباً؛ صديق يطل كل أسبوع، أو بالأحرى رفيق سفر في هذا الوجود. لا شيء غير ذلك في كل حال.

كانا قد توقفا عن الحديث منذ دقيقة تقريباً، وكلاهما ينظران إلى النار، يحلمان بأي شيء في صمت أصدقاء ليسوا بحاجة أبداً للكلام حتى يعجب أحدهم بالآخر.

فجأة، طقطقت حطبة، كانت جذعاً متشعباً ذا جذور ملتهبة، ثم قفزت فوق المنصب المعدني وارتمت في الصالون وتدحرجت على السجادة مرسلة وميض نيران حولها.

ندّت عن المرأة العجوز صرخة وهي تنهض كأنما لتهرب، بينما كان الصديق يعيد بحذائه إلى المدفأة، تلك الفحمة الضخمة، ويجرف بنعله الجميرات المتناثرة.

حين تمّ تدارك الكارثة، فاحت رائحة الشياط؛ فحدق الرجل بصديقته وهو يجلس قبالتها مبتسماً وقال مشيراً إلى الحطبة وقد أعيدت إلى الموقد: «هوذا السبب الذي لأجله لم أتزوج مطلقاً».

حدقت به، وقد أخذتها الدهشة، بعين فيها فضول النساء اللواتي يبتغين معرفة الأسرار، نساء فارقهن الصبا، حين يغدو الفضول رزيناً، معقداً وغالباً ما يكون خبيثاً ماكراً.. سألته: «كيف كان ذلك؟» فأجاب: «أوه! إن لما حدث قصة، قصة حزينة وكريهة».

***

غالباً ما كان رفاقي القدامى يستغربون برودة العلاقات التي حدثت بيني وبين أحد أفضل أصدقائي، المدعو «جوليان».. لم يدركوا كيف أن صديقين حميمين متلازمين كما كنا، يمكنهما أن يصيرا فجأة غريبين تجاه بعضهما. لكن إليك الآن سر تباعدنا.

فيما مضى كنا، هو وأنا نسكن معاً، ولا يفارق أحدنا الأخر؛ والصداقة التي كانت تربطنا، بدت قوية جداً بحيث لا يمكن لأي شيء أن يحطم وثاقها.

حين كان عائداً إلى البيت مساء أحد الأيام، أعلمني عن زواجه.

تلقيت النبأ كضربة في صدري، وكأنه سرقني أو خانني. فعندما يتزوج الصديق، كل شيء ينتهي، وينتهي تماماً. لأن المحبة الغيورة للزوجة، تلك المحبة المرتابة، القلقة والحسية، لا تقبل أبداً التعلق القوي والصريح، تعلق الروح والقلب والثقة، الموجود بين رجلين.

كما ترين يا سيدتي، مهما كان الحب الذي يربط أحدهما بالآخر، فإن الرجل والمرأة هما دوماً غريبان روحاً، وعقلاً؛ يظلان محاربين؛ هما من جنسين مختلفين؛ ومن الضروري أن يكون أحدهما قامعاً والآخر مقموعاً، سيد وعبد؛ أحياناً هذا وأحياناً ذاك؛ لا يمكن أن يكونا متساويين مطلقاً. تتعانق أيديهما المرتجفة بشوق؛ غير أن هذه الأيدي لا تتصافح أبداً بضغط قوي صادق، بضغط يفتح القلوب ويعريها في انطلاقة محبة مخلصة، قوية ورجولية. فبدل أن يتزوج الحكماء ويلدوا، كعزاء في أيام الشيخوخة، أبناء سيهملونهم، عليهم أن يبحثوا عن صديق حقيقي، ليشيخوا معه في مشاركة للأفكار لا يمكن أن تتواجد إلا بين رجلين.

أخيراً تزوج صديقي جوليان. وكانت امرأته جميلة، ساحرة، شقراء مجعدة الشعر، تضج بالحياة ممتلئة الجسم؛ والأهم أنها تكاد تعبده كما بدا لي.

في بـادئ الأمـر نـدرت زيـاراتي لهـما في البيـت خـشية الإضرار بحميميتهـا، لإحساسي بأنني لا محل لي بينهما. غير أنهما أبديا لي محبة ودعوة مستمرة واستمالة.

شيئاً فشيئاً غلبني إغراء سحر هذه الحيـاة الهادئـة المـشتركة؛ وصرت أتعـشى كثيراً لديهما، وحين أعود إلى البيت ليلاً، أروح أفكر بأن أفعل مثله، أن أتخذ امرأة، إذ كنت أجد الوضع محزناً في بيتي الفارغ.

بدا أنهما مغرمان، وما كانا يفترقـان. وهكـذا في مـساء أحـد الأيـام، كتـب لي جوليان لكي آتي وأتعشى، فذهبت. قال لي: «يا صديقي، على أن أتغيب، بعد العشاء لأمر ما، ولن أعود قبل الحادية عشرة، ولكن في الحادية عشرة بالضبط سأعود. لـذا أعتمد عليك أن تبقى برفقة «بيرتا».

ابتـسمت زوجتـه الـشابة وقالـت: «بكـل الأحـوال، أنـا مـن أتتـه فكـرة استدعائك».

شددت على يدها وقلت: «أنت اللطف والإيناس...» أحسست على أصابعي ضغطاً ودياً طويلاً لم أعره أي اهتمام، وجلسنا إلى طاولة العشاء. غادَرَنـا جوليـان في الثامنة.

ما إن ذهب، حتى شعرت بـضيق يتولـد بـين زوجتـه وبينـي، إذ لم نكـن قـد تواجدنا وحيدين معاً، وبالرغم من حميميتنـا المتناميـة كـل يـوم، فـإن وجودنـا معـاً وضعنا في موقف جديد. تحدثت أولاً عن أشياء مبهمة بالنسبة لهـا، أشـياء لا معنـى لها، لملء الوقت الصامت المربك. لم تجب بشيء لكنها بقيت قبالتي من الجهة الأخرى للمدفأة وقد خفضت رأسها، تنظر بتردد، وإحدى قدميها ممدودة نحو النـار، كأنهـا تائهة في تأمل صعب. عندما جفت مخيلتي ولم يبق فيها من الأفكار التافهـة، سـكت. من المدهش كم يصعب أحياناً أن تجد أشياء تقولها. ثم إنني كنت أحس شيئاً جديـداً في الجو، شيئاً غير مرئي، لا أعرف أن أعبر عنه، هذا الإنذار السري الذي يحذرك من النيات الخفية، الصالحة منها والطالحة، التي يكنها شخص آخر تجاهك.

هذا الصمت الممضّ استمر بعض الوقت، ثم قالت لي برتـا: «ضـع حطبـة في الموقد يا صديقي، ألا ترى أن النار تكاد تنطفئ». فتحت صندوق الحطب الموضـوع تماماً كصندوقك، وأخذت أكبر واحدة ووضعتها فوق قطع الحطب التـي اسـتهلك أكبر جزء منها. وعاد الصمت بيننا.

بعد بضع دقائق، التهبت الحطبة حتى كادت تـشوي وجهينـا. فرفعـت المـرأة الشابة عينيها نحوي، بعينين ظهرتا على شيء من الغرابة، وقالت: «الجو أصبح حاراً جداً الآن، لنذهب إلى تلك الأريكة هناك». وذهبنا.

فجأة حدقت بوجهي مباشرة وقالت: «ماذا تفعل لـو قالـت لـك امـرأة إنهـا تحبك؟».

أجبتها وقد تملكني الذهول: «صدقاً، لم أتوقع حالة كهذه، ثم إن ذلك يتوقف على من تكون المرأة».

انفجـرت ضـاحكة، ضـحكة جافـة عـصبية مرتعـشة، ضـحكة مـن تلـك الضحكات الكاذبة. ثم أضافت: «ما كان الرجال يوماً ذوي جرأة أو مكر». صمتت ثم تابعت: «هل أحببت في حياتك يا سيد بولس؟».

اعترفت بنعم، لقد كنت مغرماً في وقت من الأوقات. فقالت:

«هات أخبرني، كيف حدث ذلك».

رويت لها قصة ما. وكانت تصغي إلي بانتباه، مع إشـارات متكـررة تـنم عـن الاستهجان والازدراء، وبغتة قالت: «لا! أنت لا تعـرف عنـه شـيئاً، فلكـي يكـون الحب صحيحاً، يجب، على ما يبـدو لي، أن يبلبـل القلـب ويـشد الأعـصاب ويـدمر الرأس؛ يجب أن يكون - كيف أعبِّر عن ذلـك؟ - خطـراً، رهيبـاً، حتـى الإجـرام، والانتهاك إلى حد ما، يجب أن يكون نوعاً من الخيانة؛ أعنـي أنـه يحتـاج إلى أن يهـدم الحواجز المقدسة والقوانين والروابط الأخوية؛ عندما يكون الحب هادئاً، سهلاً، بـلا أخطار وقانونياً، هل تعتبره حباً؟».

لم أعرف بما أجيب ورددت في قلبي تلك العبارة الفلسفية: إيه أيها الدماغ الأنثوي، ها أنا في حضرتك!

تقاسيم وجهها بدت غير مكترثة وتُخفي خبثها؛ كانت متكئة على الوسادات فتمددت ثم أضجعت وأسندت رأسها على كتفي، ولما كان فستانها مرفوعاً كنت أرى جواربها الحريرية الحمراء التي كانت ألسنة النار تجعلها زاهية على فترات.

بعد هنيهة قالت: «هل أُخيفُك؟» فاعترضت على قولها. وإذا بها تتكئ بكل كيانها على صدري، ودون أن تنظر إلي قالت: «وإذا قلت لك، أنا. إني أحبك ماذا ستفعل؟» وقبل أن أجد جواباً كان ذراعاها قد طوقا عنقي وشدا رأسي نِحوها وأطبقت بشفتيها على شفتي.

آه يا صديقتي العزيزة، أؤكد لك أنني لم أكن أتسلى! ماذا! أأخون جوليان؟ وأصبح عشيق هذه الصغيرة المجنونة المنحرفة والماكرة، والتي أجزم أنها شهوانية بشكل مخيف إذ لم يعد يكفيها زوجها! أن تخون على المدى، وتخدع على الدوام، وتدعي الحب وقد أغرتها الفاكهة المحرمة وتحدي الخطر، وخيانة الصداقة! لا! هذا لا يلائمني. ولكن ما العمل؟ هل أقتدي بيوسف! وهو دور شديد الحماقة، بل شديد الصعوبة، لأنها كانت تبعث على الجنون بغدرها، وقد أججتها جرأة المرأة التي يختلج قلبها بلهيب مستعر. آه! فليرمني بأول حجر من لم يحس بشفتيه القبلةَ العميقة لامرأة استعدت لتهب ذاتها...

... أخيراً، لو مرت دقيقة... تفهمينني، أليس كذلك؟ لو مرت دقيقة واحدة... لكنت... لا، لكانت... آسف، لكان هو!... أو بالأحرى من سيكون، حين قفزنا لدى سماعنا صوتاً مرعباً.

الحطبة، نعم، الحطبة يا سيدتي، قد انطلقت في الصالون، فقلبت المسحاة والواقي، وبدأت تدور كإعصار من اللهب، محرقة السجادة ثم استقرت تحت مقعد كانت ستضرم فيه النار بلا شك.

انقضضت كالمجنون، وبينما كنت أبعد نحو المدفأة تلك الجمـرة المنقـذة، فـتح الباب فجأة! كان جوليان قد عاد مغتبطـاً وصـاح: «أنـا حـر، فالمهمـة انتهـت قبـل ساعتين من موعدها».

نعم يا صديقتي، لولا الخطبة لكنت علقت في الجرم المشهود، وأنـت تـدركين من هنا النتائج!

لذا فقد سعيت ألاَّ أُمْسَكَ في موقف مشابه أبداً، أبداً. بعد ذلك لاحظت جفاءً في معاملة جوليان. من الواضح أن زوجته كانت تقـوض صـداقتنا. وقلـيلاً فقلـيلاً أبعدني عن بيته، ولم نعد نلتقي.

يجب ألا تعجبي إذاً كيف أنني لم أتزوج أبداً.

٢٦ كانون الأول ١٨٨٢

البرميل الصغير

إلى أدولف تافرنييه

أوقف المعلم «شيكو» صاحب نزل «إيبريفيل»، عربته أمام مزرعة السيدة «ماغلوار». كان رجلاً قوياً قارب الأربعين، أحمر الوجه وذا كرش بارز، ويحكى أنه ماكر كثعلب.

ربط حصانه إلى عمود الحاجز ودلف إلى الفناء. كان يملك أرضاً تتصل بأرض للعجوز يطمع بامتلاكها منذ زمن بعيد. حاول شراءها عشرين مرة، لكن العجوز ماغلوار كانت دائماً ترفض بعناد وتقول:

«ولدت فيها، سأموت فيها».

وجدها تقشر حبات بطاطا أمام باب بيتها.

كانت العجوز في الثانية والسبعين من عمرها، جافة الطباع، غطتها التجاعيد، وقد انحنى ظهرها، غير أنها ما زالت نشيطة كصبية. ربَّتَ «شيكو» على ظهرها بمودة ثم جلس بالقرب منها على كرسي وقال لها:

«حسناً يا أمي، أرجو أن تكوني بصحة جيدة

- لا بأس، وأنت يا معلم «بروسبير»؟

- آه! بعض الآلام، بدونها لكان الأمر على ما يرام.

- الحمد لله على كل حال.

صمتت، وبقي المعلم شيكو يراقبها وهي تتابع عملها. أصابعها المعقوفة ذات العقد، والقاسية مثل قوائم سرطان الماء، كانت كالملاقط، تمسك تلك الدرنات

الرمادية من الوعاء وتديرها بمهارة وهي تقشرها بحد سكين قديم أمسكته بيدها الأخرى. وحين تنهي قشرها كانت ترميها في سطل ماء أمامها.. ثلاث دجاجات كانت تدنو منها بشجاعة، الواحدة بعد الأخرى وتصل حتى ثيابها وتأخذ القشور ثم تنطلق هاربة، تحمل الغنائم بمناقيرها.

بدا الضيق والتردد على المعلم شيكو وفي فمه كلام... أخيراً قال: «أخبريني أيتها الأم ماغلوار...

- هل من خدمة أقدمها لك؟

- هذه المزرعة، أما زلت مصرة على ألا تبيعيها لي؟

- بالنسبة لهذا الموضوع... لا. لا تعوِّل على ذلك مطلقاً، قلت كلمتي لا تحاول مرة أخرى.

- هذا لأنني وجدت طريقة فيها الفائدة لكلينا.

- وما هي؟

- إليك ما فكرت فيه: تبيعينني المزرعة ومع ذلك فأنت تحتفظين بها. أفهمتني؟.. تابعي حجتي.

توقفت العجوز عن تقشير البطاطا وثبتت على المعلم شيكو بصرها.

تابع قائلاً:

«سأشرح لك: سأعطيك كل شهر مئة وخمسين فرنكاً. أسمعتني؟ سأحمل لك كل شهر في عربتي ثلاثين ريالا من فئة مئة فلس، ولن يتغير شيء، لا شيء على الإطلاق، وتبقين في بيتك، دون أن تهتمي بي فأنتِ لا تدينين لي بشيء. ستأخذين فقط مالي؛ هل هذا يناسبك؟»

كان ينظر إليها بسرور من راق مزاجه.

أما العجوز فقد تطلعت إليه بحذر، باحثة عن الفخ الذي نصبه فقالت:

«هذا لي؛ أما بالنسبة لك، أفلا أتخلى لك عن هذه المزرعة أبداً؟».

استأنف قائلاً: «لا تشغلي بالك بهذا مطلقاً. ستبقين طالما أنت على قيد الحياة. أنت في أملاكك. ستكتبين لي ورقة عند الكاتب بالعدل بحيث تعود مزرعتك لي من

بعدك. لا أولاد لك، لا أحد سوى أبناء أخ أو أخت لا علاقة تربطك بهم. هل يناسبك هذا؟ ستحتفظين بأرضك طيلة حياتك، وأنا سأعطيك ثلاثين ريالاً من فئة مئة فلس كل شهر، فالمكسب معك.

بقيت العجوز متفاجئة، قلقة ولكن الأمر استهواها، فأجابت:

«أنا لا أرفض، ولكن يجب أن أطلب المشورة. عد لنتكلم في هذا الأمر الأسبوع القادم وسأعطيك جواباً عما أراه».

ذهب المعلم شيكو سعيداً كملك غزا إمبراطورية وأخضعها.

ظلت السيدة ماغلوار حالمة، ولم تنم ليلتها؛ وعلى مدى أربعة أيام غلبت عليها حمّى التردد. كانت تشم رائحة السوء في هذا العرض، لكن أملها بثلاثين ريالاً كل شهر، هذا المال الرنان الآتي ليصب في جيبها نازلاً عليها من السماء دون أن تفعل شيئاً بالمقابل، كان يغمرها شوق عارم إليه.

ذهبت إلى الكاتب بالعدل وروت له قضيتها، فنصحها بقبول عرض شيكو على أن تطالبه بخمسين ريالاً بدلاً من ثلاثين، حيث أن مزرعتها تساوي ستين ألف فرنك في الأقل، وقال لها: «لو عشت خمسة عشر عاماً فهو لن يكون قد سدد من قيمتها سوى خمسة وأربعين ألفاً».

ارتعشت العجوز فرحاً لوجهة النظر هذه: خمسون ريالاً من فئة المئة فلس شهرياً! غير أنها بقيت مرتابة تخاف ألف شيء غير متوقع وتخشى الأحابيل الخفية، وظلت تطرح الأسئلة حتى المساء، غير قادرة على أن تأخذ قراراً. أخيراً أمرت بتحضير العقد وعادت مضطربة إلى بيتها كالسكرى.

لما جاء شيكو ليأخذ الجواب، تلكأت كثيراً، محتجة بالرفض، لكنها خشيت من أن لا يقبل بدفع الخمسين ريالاً. وأخيراً بعد إصراره، أعلنت شروطها.

انتفض وقد شعر بإخفاقه فرفض.

غير أنها سعت لإقناعه، فجعلت تتحدث عن احتمالات بقائها على قيد الحياة. فقالت له: «لن أعمر أكثر من خمس سنوات فأنا على مشارف الثالثة والسبعين

ولست ذات همة كما يجب؛ منذ مدة حسبت أنني أودع الحياة، شعرت كأن جسمي يفرغ وجررت نفسي إلى السرير بعناء.

لكن المعلم شيكو لم يترك لها مجالاً لتخدعه، فقال لها:

«هيا، هيا، أيتها العجوز، أنت صامدة مثل قبة ناقوس الكنيسة، ستعيشين حتى المئة والعشر سنوات في أقل تقدير، أنت من ستوارينني التراب بالتأكيد».

ضاع النهار كله في المناقشات، ولكن بما أن العجوز لم تتنازل، وافق صاحب النزل أخيراً على أن يعطيها خمسين ريالاً.

في الغد وقعا العقد بينهما وطالبت الحاجة ماغلوار بعشرة ريالات كإكرامية.

مرت ثلاث سنين والعجوز في أحسن حال. بدت وكأنها لم تشخ نهاراً واحداً، بينما المعلم شيكو يكاد ييأس، إذ كان يتخيل أنه يدفع المبلغ منذ نصف قرن وأنه خدع وسرق ودمر. كان يذهب من وقت لآخر لزيارة العجوز، كما يذهب الفلاح إلى حقله في تموز ليتأكد من نضج زرعه، فتستقبله بعينين ماكرتين، وكأنها تهنئ نفسها بالحيلة التي انطلت عليه فكان يركب عربته بسرعة متمتماً:

«ألن تَنْفُقي أيتها الحيزبون؟»

لم يعد يدري ماذا يفعل. ودَّ لو خنقها حين رآها. كان يكرهها كرهاً شرساً، خبيثاً، كره فلاح سُرِقَ ماله.

حينها بدأ يبحث عن وسائل.

أخيراً، في أحد الأيام جاء يزورها وهو يفرك يديه، كما كان يفعل حين عرض عليها الصفقة أول مرة، وبعد أن تحدثا بضع دقائق قال لها:

«أخبريني يا أمي، لماذا لا تأتين إلى الغداء عندي حين تمرين في «إيبريفيل»؟ فإن الناس بدؤوا يثرثرون ويقولون إننا لم نعد أصدقاء وهذا يؤلمني أشد الألم. تعلمين أنك لن تدفعي شيئاً عندي، فأنا لا يهمني غداء أو عشاء. طالما لديك رغبة تعالي دون تكلف لأن ذلك سيسعدني».

لم تخيب السيدة ماغلوار رجاءه، إذ أنها بعد يومين، حين ذهبت إلى السوق في عربتها التي يقودها الخادم «سيلستان»، وضعت حصانها في إسطبل المعلم شيكو وطلبت الغداء الموعود.

عاملها صاحب النزل معاملة سيدة بكل ما للكلمة من معنى، وقدم لها فرُّوجاً ونقانق وسجقاً وفخذ خروف مشوي، لكنها لم تأكل إلا القليـل، فهـي قنوعـة منـذ نعومة أظفارها، فقد عاشت دوماً على القليل من الحساء وكسرة خبز عليها قليل من الزبدة.

أصر المعلم شيكو، لكنه أخفق حتى أنها لم تشرب شيئاً ورفضت القهوة.

فسألها: «لابد أنك تقبلين كأساً صغيرة!»

- هذا أقبله ولن أرفضه.

فصاح بصوت عال ملأ النزل:

«روزالي، هاتي من الصافي الناعم، بل الممتاز الرائع».

أطلت الخادمة تحمل زجاجة طويلة مزينة بورقة عنب مصورة.

ملأ كأسين وقال:

«تذوقي هذا يا أمي، إنه الخمر الشهير».

طفقت العجوز تشرب وتستمتع بجرعات صغيرة تبقيها في فمها لتتلذذ بذلك الخمر الرائع، ولم تدع في الكأس قطرة واحدة، ثم قالت:

«هذا لعمري رائع حقاً».

لم تكد تنهي كلامها حتى سكب لها شـيكو كأسـاً أخـرى. أرادت أن تـرفض لكن الوقت كان قد فات، فعادت تتلذّذ به مطولاً كما فعلت بالكأس السابقة.

حاول أن يسكب لها كأساً ثالثة لكنها رفضت فأصر قائلاً:

«هذا لا يعدو كونه كالحليب فأنـا أشرب عـشراً إلى اثنتـي عـشرة كأسـاً دون إرباك في الرأس أو المعدة؛ لعله يتبخر على اللسان؛ وهو مفيد جداً للصحة.

ولما كانت راغبة في ذلك فقد رضخت لكنها لم تشرب سوى نصف الكأس.

وفي اندفاع كريم صاح المعلم شيكو:

«خذي، بما أن هذا النبيذ أعجبك سأعطيك منه برميلاً صـغيراً لأبـرهن لـك بأننا مازلنا صديقين».

لم ترفض المرأة وغادرت وقد لعب الخمر برأسها.

في اليوم التالي دخل الرجل دار الحاجة ماغلوار وأخذ من عربته برميلاً صغيراً مشدود الدائرة بالحديد، ثم أراد أن يذيقها محتواه ليبرهن لها أنه من ذات الخمر الذي ذاقته في الأمس. عندما شرب كل منهما ثلاث كؤوس قال لها وهو يغادر: «حين لا يبقى لديك منه شيء، لديَّ المزيد؛ لا تقلقي، فأنا لست بالشحيح، فكلما فرغ كلما ازداد سروري». بعدها ركب عربته.

بعد أربعة أيام عاد، وكانت العجوز أمام بابها تقطع الخبز من أجل الحساء.

حياها ودنا منها بحيث يستطيع أن يشم رائحة أنفاسها التي انبأته عن شربها الخمر؛ حينها انفرجت أساريره وقال: «لن تبخلي على بكأس يا أمي».

شربا مرتين أو ثلاث.

بعد فترة سرت إشاعة في المنطقة بأن الحاجة ماغلوار كانت تسكر وحدها، وكان الناس يلملمونها من أرض مطبخها حيناً، وحيناً آخر من فناء دارها ومرات في الطرقات المجاورة وكانوا يحملونها إلى بيتها وهي كجثة هامدة.

توقف شيكو عن زيارتها، وحين كان أحدهم يذكرها كان وجهه يتجهم ثم يقول:

«يا لتعاستها أن تدمن في هذا العمر! كما ترون، عندما يشيخ المرء لا حيلة تجدي. وسينقلب الدهر عليها!»

بالفعل هكذا صار، فقد توفيت في الشتاء التالي حوالي عيد الميلاد، وكانت قد وقعت من سكرها على الثلج.

ورث المعلم شيكو المزرعة فأعلن قائلاً:

«هذه التافهة، لو أنها لم تدمن على الشراب لعاشت أكثر من عشر سنوات».

٧ نيسان ١٨٨٤

مقشّشة الكراسي

إلى ليون هينّيك

كان ذلك في نهاية عشاء افتتاح موسم الصيد لدى المركيز «دي بيرتران». أحد عشر صياداً وثمان نساء في ميعة الصبا، وطبيب المنطقة، كانوا جميعاً جالسين حول الطاولة المضاءة والملأى بالفواكه والزهور.

دار الحديث عن الحب، وجرى نقاش هام، ذلك النقاش السرمدي، لمعرفة إمكانية الوقوع في الحب مرة واحدة أو عدة مرات. ذُكرتْ أمثلة عن أناس لم يختبروا إلا حباً جدياً واحداً؛ وذُكرت أيضاً أمثلة عن أناس أحبوا عدة مرات وبعنف. ادَّعى الرجال أن الهوى، شأنه شأن الأمراض، يمكن أن يصيب الكائن نفسه عدة مرات، وأن يضربه حتى الموت لو واجه مانعاً وقف حياله. مع أن هذه الطريقة في الرؤية لم تكن قابلة للنقاش، فإن النساء اللاتي كان رأيهن يرتكز على الشعر، أكثر منه على الواقع، أكَّدن أن الحب، الحب الحقيقي، الحب الكبير، لا يمكن أن يصيب الإنسان إلا مرة واحدة، وأن هذا الحب يشبه الصاعقة؛ وأن قلباً أصيب به لابد أن يبقى مُفْرَغاً، مُكتَسَحاً، محترِقاً، بحيث لا يمكن لأي إحساس قوي آخر، ولا لأي حلم، أن ينبت فيه من جديد.

أما المركيز الذي، كان قد ذاق ألواناً من الحب، فإنه تصدى بقوة لهذا الاعتقاد:

«أنا، أقول لكم بأن المرء يمكنه أن يحب عدة مرات بكل قواه وكل روحه. أنتم تستشهدون بأناس قتلهم الحب، كبرهان على استحالة الوقوع في حب ثانٍ. أردُّ عليكم بأنهم لو لم يرتكبوا حماقة الانتحار تلك، والتي أبعدتهم عن أية فرصة للسقوط ثانية، لشفوا، وأعادوا الكرَّة، حتى مماتهم الطبيعي. فالمحبون كالسكارى. من شرب الخمرة سيظل يشربها - ومن أحب سيحب. إنها مسألة طباع».

احتكم السمّار إلى الدكتور، وهو طبيب باريزي عجوز اعتكف في الريف، وسألوه رأيه.

أما هو فلم يكن لديه رأي، لكنه قال:

«كما روى المركيز، إنها مسألة طباع؛ بالنسبة لي، فقد أطلعت على حب دام خمسة وخمسين عاماً بلا انقطاع، ولم ينته إلا بالموت».

صفّقت المركيزة بيديها وقالت:

«أليس هذا رائعاً؟.. يا له من حلم أن يكون المرء محبوباً هكذا! وهل هناك سعادة أكبر من العيش خمسة وخمسين عاماً تحضنه هذه العاطفة الملتهبة الخارقة! كم كان سعيداً ذاك الذي هيم به هكذا فبارك الحياة».

ابتسم الطبيب وقال:

«بالفعل يا سيدتي، أنت لست مخطئة في وجهة النظر هذه، وهي أن المحبوب كان رجلاً. أنتم تعرفونه. إنه السيد «شوكيه» صيدلاني البلدة. أما هي، فقد عرفتموها أيضاً. إنها مقششة الكراسي العجوز التي كانت تأتي كل عام إلى القصر لكنني سأكون أكثر وضوحاً في كلامي».

حماس السيدات خمد، ووجوههن المشمئزة كانت تقول «أف!» كما لو أن الحب يجب أن يصيب فقط أناساً مميزين وظرفاء، وهم الوحيدون الجديرون باهتمام علية القوم.

استأنف الطبيب قائلاً:

استدعيت منذ ثلاثة أشهر لعيادة تلك العجوز وهي على فراش موتها. كانت قد وصلت في الليلة السابقة بعربتها التي اتخذتها كبيت لها، يجرها البرذون الذي رأيتموه، وبصحبة كلبيها الأسودين، صديقيها وحارسيها. الكاهن كان هناك.. كلفتنا بتنفيذ وصيتها، ومن أجل أن تكشف لنا معنى رغباتها الأخيرة، فقد روت لنا قصة حياتها. وأنا لم أعرف يوماً قصة أكثر غرابة وإيلاماً.

كان أبوها وأمها يقششان الكراسي. ولم يكن لها يوماً بيت ثابت.

منذ نعومة أظفارها، كانت تهيم بثياب رثة، ملأى بالطفيليات والهوام والقذارة. وتقف مع أهلها عند مدخل القرية أمام الحفر؛ فيفلتون الحصان ليرعى العشب، والكلب غارق في النوم، خطمه على قوائمه، أما الصغيرة فكانت تتدحرج على العشب بينما يصلح والداها، في ظل الدردار، كل الكراسي والمقاعد القديمة في البلدة.

في ذلك المسكن الجوال لم يكن أحد يتكلم. فبعد بضع كلمات ضرورية لاتخاذ قرار بخصوص من سيجول على البيوت صارخاً بذلك الصوت المعروف: «مقشش كراسي» كانوا يبدؤون في ليِّ وفتل القش، متقابلين، أو متحاذيين. ولما كانت الصغيرة تبتعد أو تحاول التواصل مع أي ولد من القرية، كان صوت أبيها الغاضب يستدعيها: «ألن تعودي إلى هنا يا قذرة!» وهي كلمات الحنان الوحيدة التي سمعتها.

وعندما شبت، أرسلوها لِتَلُمَّ الكراسي المعطلة، حينها بدأت تتعرف من مكان لآخر على الأولاد؛ لكن في تلك الحال، كان أهل أصدقائها الجدد يستدعون أولادهم بفظاظة: «هيا تعال أيها العفريت! إياك والكلام مع المتشردين!» وغالباً ما كان الأولاد يرمونها بالحجارة.

أعطتها بعض السيدات بضعة قروش فاحتفظت بها بعناية.

في أحد الأيام، وكان عمرها أحد عشر عاماً، بينما كانت تمر في هذه المنطقة، التقت ب- «شوكيه» الصغير خلف المقبرة، وكان يبكي لأن أحد رفاقه سرق منه فلسين. دموع هذا البورجوازي الصغير، أحد هؤلاء الصغار الذين كانت تتخيلهم في رأسها الهش المغضوب عليه، ممتلئين بالسعادة، زعزت كيانها. اقتربت، ولما عرفت سبب حزنه، وضعت في يديه كل مدخراتها وكانت سبعة فلوس أخذها بالطبع وهو يمسح دمعه. ولشدة فرحها، تجرأت وقبلته. وحين تأمل بانتباه نقودها، لم يبد مقاومة. وإذ رأت أنها لم تُبْعَد ولم تُضرب، أعادت الكرَّة، عانقته بذراعيها من عمق قلبها. ثم هربت.

ماذا جرى في هذا الرأس التاعس؟ هل تعلق بذلك الصغير لأنها ضَحَّت له بكل ثروتها هي المتشردة، أو لأنها منحته أول قبلة حنان؟ السر هو ذاته للصغار كما هو للكبار.

على مدى شهور، كانت تحلم بزاوية ذلك المدفن وبذلك الولد. وعلى أمل أن تلقاه. سرقت أهلها، ململمة فلساً من هنا وآخر من هناك، من أجور التقشيش، أو من توفير في قيمة التموين الذي أوكل إليها شراؤه.

عندما عادت، كان في جيبها فرنكان، لكنها لم تستطع سوى رؤية الصيدلي الصغير بثياب نظيفة خلف زجاج دكان أبيه، بين وعاء زجاجي أحمر وآخر فيه دودة شريطية.

هذا زاد من محبتها له، وقد أغواها وأثر فيها وأذهلها الماء الملون، هذا الألق في البللورات اللامعة.

حفظت في قلبها ذكرى لا تمحى، وحين التقت به، في العام التالي، خلف المدرسة. يلعب بالكلل مع رفاقه، ارتمت عليه وأمسكت به بين ذراعيها وقبلته بعنف شديد حتى إنه جعل يصيح من الخوف. حينئذ، لتهدئ روعه، أعطته مالها: ثلاثة فرنكات وعشرين سنتاً، وهذا مبلغ كبير، جعل الصبي ينظر إليه بعينين واسعتين.

أخذ النقود، وتركها تداعبه ما شاء لها ذلك.

على مدى أربع سنين أيضاً، سلمته كل احتياطيها، فكان يدسه في جيبه بكل ثقة مقابل قبلات سمح بها. مرة كان المبلغ ثلاثين فلساً، ومرة فرنكين وأخرى اثني عشر فلساً (ولذلك بكت ألماً وذلاً، لكن تلك السنة كانت سيئة)، وفي المرة الأخيرة كان المبلغ خمسة فرنكات، بقطعة كبيرة مستديرة جعلته يضحك ملء شدقيه.

لم تعد تفكر إلا فيه؛ أما هو فكان ينتظر عودتها بفراغ صبر فيجري نحوها حين يراها فيقفز قلب الفتاة فرحاً بين ضلوعها.

ثم اختفى، إذ أرسل إلى الثانوية. عرفت ذلك عبر استفسار لبق. حينها استخدمت دبلوماسية لا حد لها لتغيير طريق أهلها كي تمر من هنا إبان العطلة؛ نجحت في ذلك ولكن بعد سنة من التحايل. وهكذا بقيت سنتين دون أن تراه؛ وعرفته بشق النفس لشدة ما تغير وكبر وصار جميلاً ووقوراً في ردائه ذي الأزرار الذهبية. أما هو فتظاهر بأنه لم يرها ومرَّ بغطرسة بالقرب منها.

بسبب ذلك بكت يومين، ومنذ ذلك الحين صارت تعاني على الدوام وتتألم.

كل عام كانت تعود، وتمر من أمامه دون أن تتجرأ على تحيتـة ودون أن يتنـازل بتوجيه بصره نحوها. كانت تحبه بجنون... قالت لي: «إنه الرجل الوحيد الذي رأيته في هذه الدنيا يا دكتور! أنا لا أعلم إن كان هناك رجال آخرون أم لا».

توفي أبواها، فتابعت مهنتهما، لكنها اتخـذت كلبـين بـدلاً مـن واحـد، كلبـين هائلين لا يجرؤ أحد على التصدي لهما.

في أحد الأيام وهي عائدة إلى هذه القرية حيث استقر قلبها، لمحت امرأة شابة تخرج من دكان شوكيه متأبطة ذراع محبوبها. كانت امرأته، فقد تزوج.

مساء ذلك اليوم. رمت نفسها في المستنقع عند ساحة البلديـة. أنقـذها سـكير متأخر في عودته وحملها إلى الصيدلية. نزل شوكيه الابن في ثياب البيـت ليعتنـي بهـا ودون أن يظهر معرفته بها، خلع ثيابها ودلكها، ثـم قـال لهـا بـصوت قـاس: «أنـت مجنونة! يجب ألا تكوني غبية إلى هذا الحد».

كلماته هذه كانت كافية لتشفى. لقد كلمها! اكتنفتها السعادة لفترة طويلة.

لم يرضَ أن يأخذ أي أجر مقابل عنايته بهـا، عـلى الـرغم مـن إصرارهـا عـلى الدفع.

كرت أيامها هكذا. كانت تقشش وهي تفكر بشوكيه. وسنة بعـد سـنة كانـت تراه خلف زجاج النافذة. واعتادت أن تتمون بعض الأدوية البسيطة من عنده. بهذه الطريقة كانت تراه عن كثب وتكلمه وتعطيه المال أيضاً.

كما أخبرتكم في البداية، توفيت هذا الربيع، بعد أن روت لي كـل هـذه القـصة المحزنة. رجتني أن أسلِّم إلى من أحبته بصبر، كل مدخرات حياتها، لأنها مـا عملـت إلا لأجله، كما قالت، حتى إنها صامت لتوفر له، وتتأكد بأنه سيفكر بهـا عـلى الأقـل مرة حين تكون قد ماتت.

أعطتني إذن ألفـين وثلاثمئـة وسـبعة وعـشرين فرنكـاً. تركـتُ منهـا سـبعة وعشرين للكاهن من أجل الدفن، وأخذت الباقي بعد أن أسلمت الروح.

في الغد ذهبتُ إلى آل شوكيه. كانا قد فرغا من طعام الغداء، وقد جلسا الواحد أمام الآخر يكاد لا يتسع لهما الكرسيان وتفوح منهما رائحة المستحضرات الصيدلانية ويبدو عليهما الاهتمام والرضى.

جلست، وقدما لي شراب الكرز، وبدأت حديثي بصوت متأثر واثقاً من أنهما سيبكيان.

ما إن أدرك أن تلك المتشردة، تلك التي كانت تصلح الكراسي، تلك السافلة قد أحبته، حتى قفز من مقعده ساخطاً، وكأنها سلبته صيته واحترام علية القوم، أو شرفه الخاص، أو شيئاً دقيقاً هو أغلى عليه من حياته.

أما زوجته التي كانت هي أيضاً غاضبة فقد رددت: «هذه السافلة، الحقيرة! هذه السافلة!» ولم تجد أي شيء آخر تقوله.

نهض وصار يمشي خلف الطاولة بخطى واسعة وقلنسوته قد غطت إحدى أذنيه وتمتم: «هل يمكن فهم هذا الأمر يا دكتور؟ إن هذه لأشياء مريعة بالنسبة لرجل! ما العمل؟ آه لو عرفت ذلك حين كانت على قيد الحياة. لجعلت الدرك يوقفونها في السجن، الذي لم تكن لتخرج منه بالتأكيد».

دهشت من نتيجة مسعاي الخيري، ولم أعرف ماذا أقول أو أفعل، لكن كان علي إتمام مهمتي، فقلت: «لقد كلفتني بأن أسلمكم مدخراتها، التي تبلغ ألفين وثلاث مئة فرنك. وبما أن ما أخبرتكم به كان مزعجاً بالنسبة إليكم، فمن الأفضل ربما ترك المبلغ للفقراء».

نظر إلي الاثنان وقد شلا من الانفعال.

أخرجت المال من جيبي، هذا المال التعيس الآتي من كل المناطق، ومن كل الفئات، يختلط فيها الذهب مع القروش، ثم سألت: «ما هو قراركما؟»

تكلمت أولاً السيدة شوكيه: «بما أن تلك كانت آخر وصية لها، تلك المرأة... يبدو لي أنه من الصعب جداً علينا أن نرفض».

أما الزوج، وكان مربكاً، فقد قال: «يمكننا، بكل الأحوال، شراء شيء لأولادنا بهذا المال».

أجبت بجفاء: «كما تريدان..».
استأنف قائلاً: «هاته، بما أنها كلفتك بذلك، سنجد وسيلة لاستخدامه في عمل صالح».
سلمته المال وحييت ثم غادرت.
في الغد، جاءني شوكيه، وقال فجأة: «لكنها تركت أيضاً هنا عربتها أيضاً، هذه... هذه المرأة. ماذا ستفعل بها هذه العربة؟».
- لا شيء، خذها إن شئت.
- تماماً؛ هذا يناسبني؛ سأجعل منها كوخاً لحديقتي».
غادر، لكنني ناديته وقلت: «لقد تركت أيضاً حصانها العجوز وكلبين، هل تريدهما؟» فتوقف وقد تفاجأ.. قال: «آه! لا، ماذا تريدني أن أفعل بها؟ تصرف بها كما تشاء» وكان يضحك. ثم مد يده فصافحته. ماذا أفعل! في البلدة الواحدة، يجب ألا يعادي الطبيب الصيدلاني.
احتفظت بالكلبين لدي. والكاهن الذي يمتلك باحة كبيرة، أخذ الحصان..
أما شوكيه فقد جعل من العربة كوخاً، واشترى خمسة أسهم في سكة الحديد بالمال الذي أخذه.
هوذا الحب الوحيد والعميق الذي صادفته في حياتي..
صمت الطبيب.
حينئذ تنهدت المركيزة التي ملأت الدموع عينيها، وقالت: «بالتأكيد، بالتأكيد، لا تعرف الحب إلا النساء!».

١٧ أيلول ١٨٨٢

المجوهـرات

التقى السيد «لانتان» بهذه الفتاة في سهرة لـدى نائـب مـديره، فـأسره الحـب كالشبكة.

كانت ابنة جابٍ في الأرياف، وافته المنية منذ عدة سنين، فقـدمت إلى بـاريس مـع والدتها التي كانت تعـاشر بعـض العـائلات البورجوازيـة في الحـي، عـلى أمـل تـزويج الصبية. كانتا فقيرتي الحال وحَسَنَتَي السمعة وهادئتين ورقيقتين. وكانت الفتـاة نموذجـاً مثالياً للمرأة الشريفة التي يحلم الشاب العاقل أن يسلمها حياته. جمالها المتواضع كـان لـه سحر حياء ملائكي، وتلك البسمة التي لم تكن تفارق ثغرها كانت تعكس ما في قلبها.

تغنى الجميع بسجاياها، وكل الذين عرفوها كانوا يرددون باستمرار: «سـعيد الحظ من سيحظى بها. إذ يستحيل أن يجد لها مثيلاً».

السيد لانتان، الذي كان حينها موظفاً في وزارة الداخلية، بمرتـب قدره ثلاثـة آلاف وخمسمئة فرنك سنوياً، طلب يدها وتزوجها.

عاش معها في منتهى السعادة، أدارت بيته باقتصاد فائق فظهرا وكأنهما يعيشان حياة ترف وبذخ، ما مِن دلالٍ أو رقـة وملاطفـة إلا بـذلتها لزوجهـا، أمـا إغراؤهـا الشخصي فكان عظيماً بحيث أن سـت سـنوات مـضت عـلى لقـائهما، وهـو مـا زال يغمرها بحب أكبر مما كان في أول أيام زواجهما.

لم يكن يلومها إلا لشيئين: مَيْلها للمسارح وميلها للمجوهرات المزيفة.

صديقاتها (كانت تعرف بضع زوجات لموظفين متواضعين) كنَّ يزودنها دومـاً ببطاقات مقصورات للمسرحيات الرائجة، حتى لحفلاتها الافتتاحيـة؛ وكانـت تجـر زوجها طوعاً أو كرهاً إلى هذه التسليات التي كانت تتعبه كثيراً بعـد عملـه اليـومي،

لذا فقد طلب منها أن توافق على الذهاب لمشاهدة تلك المسرحيات مع أي سيدة من معارفها لتعود معها لدى انتهاء العرض؛ تمنعت كثيراً قبل أن تستسلم إذ اعتبرت هذا التصرف غير لائق. أخيراً رضيت إكراماً له، وكانت في غاية الامتنان.

غير أن هذا الولع بالمسرح ولَّد لديها الحاجة لتتزين. ملابسها كانت بسيطة في الحقيقة، ومنتقاة بذوق رفيع لكن متواضع؛ وجمالها الناعم الذي لا يقاوم، المتضع الباسم، بدا كأنه يكسب طعماً جديداً من بساطة فساتينها؛ لكنها تعودت أن يتدلى من أذنيها حجران كريمان من منطقة الراين يحاكيان الماس، وكانت تضع عقوداً من اللآلئ المزيفة، وأساور من معدن شبيه بالذهب وزينة مطعمة بقطع زجاجية تحاكي الحجارة الكريمة.

زوجها الذي صدمه تعلقها بما هو برّاق، غالباً ما قال لها: «عزيزتي، حين لا يملك المرء وسيلة لشراء حلي حقيقية، فهو لا يظهر مزيناً إلا بجماله وأناقته، وهذان من أندر الجواهر».

فكانت تبتسم بهدوء، وتكرر على مسامعه: «ما بيدي حيلة، فأنا أحب هذا، إنه آفتي. أنا أعرف تماماً أنك محق ولكن المرء لا يتغير، فأنا أعبد المجوهرات».

وكانت تدير بين أصابعها قلادات اللؤلؤ فتلتمع صفيحاتها البلورية المشغولة وتردد على مسامعه: «ألا انظر إلى دقة صناعتها، أقسم بأنها صنو الجواهر الحقيقية».

فيبتسم معلناً: «لك ميول غجرية».

أحياناً لما كانا يبقيان وحيدين قرب المدفأة، كانت تضع على الطاولة حيث يحتسيان الشاي علبة جلدية تحتفظ فيها بتلك (القطع الرخيصة)، حسب تعبير السيد لانتان، ثم تتفحص باهتمام بالغ تلك المجوهرات الزائفة، وكأنها تتلذذ بمتعة سرية عميقة؛ وكانت تتعمد وضع عقد في عنق زوجها لتضحك فيما بعد من أعماق قلبها ثم تصيح: «كم تبدو مضحكاً»، وترتمي بين ذراعيه وتقبِّله بشغف.

في ليلة من ليالي الشتاء، ذهبت إلى الأوبرا وعادت وهي ترتجف من البرد. في اليوم التالي أصيبت بسعال، وبعد ثمانية أيام توفيت من جراء نزلة صدرية.

كاد لانتان أن يلحق بها في القبر. كان يأسه مريعاً جداً بحيث ابيضَّ شعره في غضون شهر. أخذ يبكي من الصباح حتى المساء وقد تمزقت روحه من ألم لا يحتمل؛ وذكرى ابتسامتها وصوتها وسحرها تلازمه ليل نهار.

لم يطفئ الزمن نيران ألمه، فكان زملاؤه يأتون إليه ليتحدثوا بأمور يومية عادية، وفجأةً تنتفخ خدوده ويتغضن أنفه وتمتلئ عيناه بالدموع؛ وكان يتشنج وينتحب.

غرفة رفيقة حياته بقيت كما هي من بعدها، وكان يحبس نفسه فيها كل يوم ليفكر فيها، كل قطع الأثاث فيها، وكل ثيابها بقيت في مكانها كما كانت في يومها الأخير. غير أن الحياة صارت قاسية عليه، راتبه الذي كان يضعه بين يدي زوجته، كان يغطي كل احتياجات المنزل، أصبح لا يكفيه وحده، وكان يتساءل برعب كيف عرفت أن تتدبر أمرها كي يشرب كل يوم أفضل أنواع الخمرة، ويتناول أفخر أنواع الطعام التي لم يعد بإمكانه الحصول عليها بموارده المتواضعة.

استدان وصار يجري خلف المال على غرار الناس المعوزين. أخيراً، في صباح أحد الأيام وقد خَوَتْ جيوبه قبل أسبوع من نهاية الشهر، نوى بيع شيء ما؛ وعلى الفور جاءته فكرة التخلص من تلك «الحلي الرخيصة» التي كانت لزوجته، لأنه كان يحتفظ في أعماق قلبه بنوع من الحقد نحو هذه «الأشياء الخادعة» التي كانت تثيره فيما مضى. حتى أن مرآها كل يوم كان يفسد عليه ذكرى محبوبته.

بحث طويلاً في مجموعة الحلي المزيفة التي تركتها، لأنها، وحتى آخر أيامها، كانت تشتري منها بعناد، فتجلب كل مساء تقريباً قطعة جديدة، فقرَّ رأيه على القلادة الكبيرة، التي على ما بدا كانت تفضلها، وقيمتها التقريبية برأيه قد تتجاوز ستة إلى ثمانية فرنكات، وذلك لدقة صناعتها بحيث لا يمكن اعتبارها مزيفة.

وضعها في جيبه وذهب إلى عمله في الوزارة، يبحث في طريقه عن بائع مجوهرات أهل للثقة؛ أخيراً وجد واحداً فدخل إليه، وقد أحس بالخجل لأن يظهر بؤسه وهو يبيع شيئاً بخساً كهذه القلادة..

قال للبائع: «بودي أن أعرف بكم تقدر قيمة هذه القطعة».

أمسك الرجل القلادة، تفحصها، قلبها، وزنها بكفه ثم أخذ عدسة مكبرة، ونادى موظفاً وهمس في أذنه ببعض الملاحظات، ووضعها على طاولته وألقى عليها نظرة من بعيد لكي يقدرها على نحوٍ أفضل.

ضاق السيد لانتان ذرعاً بكل هذه الطقوس وفتح فاه ليقول: «أوه! أنا أعرف تماماً أن هذه القطعة لا تساوي شيئاً»، حينها أجابه الجواهري بقوله:

«يا سيد، إنها تساوي ما بين اثني عشر إلى خمسة عشر ألف فرنك، غير أني لا أستطيع شراءها إلا إذا أعلمتني من أين وصلت إليك».

حملق الأرمل بعينيه وبقي فاغراً فاه من الدهشة وهو غير قادر أن يفهم. إلا أنه تمتم أخيراً: «ماذا قلت؟... أنت متأكد؟..» أخطأ البائع فَهْمَ دهشته، وقال له بلهجة جافة: «تستطيع أن تبحث في مكان آخر، إن كانوا يعرضون عليك المزيد. بالنسبة إليَّ إنها تساوي على الأكثر خمسة عشر ألفاً، عد إليَّ إن لم تجد أفضل من هذا السعر».

كالمختل، أخذ السيد لانتان القلادة وذهب، مطيعاً في داخله لحاجة غامضة لأن يبقى وحيداً ويفكر، لكنه ما إن صار في الشارع حتى غمرته حاجة للضحك وفكر: «الغبي! هذا الغبي! لو قبلت اقتراحه بعد كل حساب! ها هو جواهري لا يعرف أن يميز بين الأصلي والمزور!».

ودخل إلى جواهري آخر عند مدخل شارع السلام، فما إن رأى الحلية حتى صاح: «آه! بالله، إنني أعرف هذه القلادة فهي من دكاني».

اضطرب السيد لانتان وسأله: «كم تساوي؟».

- يا سيد لقد بعتها بخمسة وعشرين ألفاً، وأنا على استعداد لأن أستردها بثمانية عشر ألفاً، حين تكون قد ذكرت لي، وذلك حسب التعليمات القانونية، كيف صارت بحوزتك»، هنا جلس السيد لانتان وقد تاه عقله، وأجاب: «لكن.. لكن، افحصها بعناية أكبر يا سيد، فقد حسبتها حتى الآن مزيفة».

أجابه الجواهري: «هل بإمكانك أن تعطيني اسمك يا سيد؟».

- بالتأكيد، اسمي لانتان، أنا موظف في وزارة الداخلية وعنواني ١٦ شارع الشهداء.

فتح الجواهري سجلاته وبحث فيها ثم قال:

«هذه القلادة أرسلت بالفعل إلى عنوان السيدة لانتان، ١٦ شارع الشهداء في العشرين من تموز عام ١٨٧٦».

وحدج كل منهما الآخر، الموظف وقد أذهلته المفاجأة، والبائع وقد شك بسرقة، استأنف الأخير قائلاً: «أتسمح بأن تُبقي لدي هذه القطعة مدة أربع وعشرين ساعة فقط، وسأعطيك إيصالاً؟».

تمتم لانتان: «أجل، بالتأكيد»، وخرج وهو يطوي الورقة التي وضعها في جيبه.

عبر الشارع وعاد، وانتبه أنه أخطأ في اتجاهه، ذهب إلى شارع التويلري، عَبَرَ نهر السين، فاكتشف خطأه ثانية فعاد إلى الشانزيليزيه دون أن تجول في ذهنه فكرة واضحة، حاول جاهداً أن يعلل ويفهم، زوجته! لا يمكن أن تكون قد اشترت شيئاً بهذه القيمة - لا بالتأكيد - إذاً! هل كانت القلادة هدية! هدية! ممن؟ ولماذا؟

توقف، وبقي واقفاً وسط الشارع، وقد مسّه الشك المرعب. - هي؟ إذاً كل بقية الحلي كانت أيضاًهدايا! أحس وكأن الأرض تميد؛ وأن شجرة أمامه تسقط؛ مدَّ يديه وانهار فاقداً وَعْيَهُ.

استفاق في صيدلية حيث نقله إليها بعض المارة وعاد إلى البيت وحبس نفسه.

بكى بجنون حتى المساء، وقد عض منديلاً كي لا يصرخ، ثم استلقى في سريره مرهقاً من التعب والحزن، ثم نام نوماً عميقاً.

أيقظه شعاع الشمس فنهض ببطءٍ ليذهب إلى الوزارة. شق عليه العمل بعد هذه الهزات، فكر حينها بإمكانية اعتذاره من رئيسه فكتب له بذلك، ثم فكر بأن عليه العودة إلى الجواهري، فاحمر خجلاً، ومكث طويلاً وهو يفكر. على أنه لم يستطع أن يترك القلادة لدى ذلك الرجل، فارتدى ملابسه وخرج.

كان الطقس جميلاً والشمس ترسل أشعتها على المدينة وكأنها تبتسم. كان هناك متسكعون يسيرون وأيديهم في جيوبهم.

قال لانتان في نفسه: «كم يشعر المرء بالسعادة حين يمتلك ثروة!.. بالمال يمكنه أن يزعزع أي حزن، ويذهب أنى شاء، يسافر ويتسلى... لو كنت غنياً!».

أحس بالجوع يقرضه، إذ لم يأكل شيئاً منذ يومين. ولكن جيوبه كانت فارغة، فتذكر العقد. ثمانية عشر ألف فرنك! ثمانية عشر ألف فرنك! يا له من مبلغ محترم!

اتجه إلى شارع السلام وبدأ يتمشى في طول الرصيف وعرضه، مقابل الدكان. ثمانية عشر ألفاً! عشرين مرة كاد أن يدخل، لكن الخجل كان يوقفه.

كان يتضور جوعاً وما في جيبه فلس واحد، فجأة استجمع شجاعته وعبر الشارع مسرعاً كي لا يبقي لنفسه وقتاً للتفكير، ثم اندفع إلى الجواهري.

ما إن رآه الرجل حتى سارع وقدم له مقعداً وهو يبتسم بأدب. وصل الموظفون وصاروا ينظرون إلى لانتان والمرح يملأ عيونهم وشفاههم.

قال الجواهري: «لقد استعلمت يا سيدي، فإن أنت مازلت على نفس الاستعداد فأنا سأدفع لك المبلغ الذي عرضته عليك».

فأجابه لانتان: «بالتأكيد».

سحب الجواهري من دُرْجه ثماني عشرة قطعة كبيرة وعدَّها، ثم قدمها إلى لانتان الذي وقع على إيصال ووضع المال بيده المرتجفة في جيبه.

لما صار عند الباب التفت نحو التاجر الذي لم تفارق الابتسامة وجهه، وقال وعيناه في الأرض: «لدي.. لدي حلي كثيرة.. وصلت إليَّ من الإرث ذاته، هل يناسبك شراؤها أيضاً؟».

انحنى التاجر وقال: «بالطبع يا سيدي». حينها خرج أحد المساعدين ليضحك ملء شدقيه وآخر كان يمسح عينيه وأنفه من شدة الضحك.

بأعصاب هادئة ووجه محمر، أعلن لانتان «سآتيك بها».

ركب عربة وذهب لجلب بقية الحلي.

حين عاد إلى التاجر بعد ساعة، لم يكن قد أفطر بعد، جلسا معاً لتفحص الجواهر قطعة قطعة، يتباحثان في قيمتها، كلها تقريباً كانت من المصدر ذاته.

أثناء ذلك، بدأ لانتان يناقش التقييم، فكان ينزعج ويطالب بالكشف عن سجلات البيع، وصار صوته يعلو أكثر فأكثر كلما كان السعر يرتفع.

الأقراط الكبيرة تساوي عشرين ألف فرنك، الأساور خمسة وثلاثين ألفاً، المشابك والخواتم والميداليات ستة عشر ألفاً. حلية من الزمرد والياقوت الأزرق بأربعة عشر ألفاً. ماسة منفردة على سلسلة ذهبية شكّلت عِقْداً، بأربعين ألفاً، والكل بمبلغ قدره مئة وستة وثمانون ألف فرنك.

قال التاجر بسذاجة ساخرة: «كل هذا مصدره شخص كان يوظف كل مدخراته بالحلي».

أجابه لانتان برصانة: «إنه أسلوب كغيره لتوظيف الأموال». غادر بعد أن قرر مع الشاري أن تخضع تلك المجوهرات للخبرة ثانية في اليوم التالي.

حين صار في الشارع، نظر إلى عمود فاندوم (نصب تذكاري) وفيه رغبة أن يتسلقه وكأنه صاري الحلوى(*)، لقد شعر بخفةٍ في جسمه تتيح له أن يلعب لعبة القفز فوق تمثال الإمبراطور المنتصب عالياً.

ذهب وتناول طعامه عند «فوازان» وشرب خمراً، سعر الزجاجة منه عشرون فرنكاً.

ثم ركب عربة وقام بجولة في الغابة، كان ينظر إلى العربات بشيء من الاحتقار، وتأكله رغبة في أن يصيح بالمارة: «أنا غني أيضاً، أملك مئتي ألف فرنك!».

تذكر الوزارة، فطلب من الحوذي أن يأخذه إليها؛ دخل عند رئيسه وقال له بعزم: «جئت يا سيدي لأقدم لك استقالتي، لقد ورثت ثلاثمئة ألف فرنك»، ثم ذهب يشد على أيدي زملائه القدامى وأسرَّ إليهم بمشاريع حياته الجديدة، ذهب بعدها إلى المقهى الإنكليزي ليتعشى.

(*) صاري، وفي أعلاه حلوى لا ينالها إلا من يتسلقه.

وجد نفسه جالساً قرب رجل بدا مميزاً، فلم يقدر أن يقاوم رغبة ملحة في أن يبوح له، بنوع من الدلال، بأنه ورث لتوّه أربعمئة ألف فرنك.

لأول مرة في حياته لم يصبه الملل في المسرح وأمضى ليلته مع بنات الهوى. بعد ستة أشهر تزوج من امرأة فاضلة، ذات طبع صعب فأذاقته مر العذاب.

٢٧ آذار ١٨٨٣

قاطع طريق كورسيكي

الطريق يتجه بلطف صُعُداً وسط غابة «آيتـون»، أشـجار الـسرو المتفاوتـة في علوها شكلت قبةً عريضة تئن فوق رؤوسنا، وترسل نوعاً مـن الـشكوى المـستمرة الحزينة؛ وإلى اليمين كما هو حال اليسار، كانت جذوعها الدقيقـة المـستقيمة، بمثابـة جيش من أنابيب أرغن تخرج من جوفها تلك الموسيقى الرتيبة لريح القمم.

بعد ثلاث ساعات من السير تناقصت تلك الأعمـدة الطويلـة، ومـن مكـان لآخر كنت ترى شجرة صنوبر مظلية الشكل بعيدة عن بقية الأشـجار وقـد فتحـت مثل شمسية ضخمة ذات قبة خضراء داكنة. فجأة بلغنا حدود الغابة على ارتفاع مئـة متر من معبر يقود إلى وادي «نيولو» الموحش.

فوق القمتين المرتفعتين المطلتين على ذلك الممر، كنـت تـرى بـضع شـجرات قديمة مشوهة حاولت تـسلق ذلـك المرتفـع بعنـاء مثـل رجـال الاسـتطلاع الـذين يسيرون أمام الحشود المتجمعة خلفهم. حين استدرنا شـاهدنا الغابـة بأكملهـا وقـد امتدت تحتنا، كوعاء أخضر واسع، حوافه تكاد تلامـس الـسماء، وكأنهـا مُـدَّت مـن صخور جرداء تحيط بها من كل جانب.

تابعنا المسير، وبعد عشر دقائق وصلنا إلى المعبر.

حينئذ لفتت انتباهي غرابة المنطقة. فبعد غابة أخرى، هناك وادٍ لكنه واد كما لم ترَ عيني من قبل له شبيهاً، فيه صخورٌ طويلة على مدى عشرة فراسخ، كأنه حفر بـين جبلين يربو ارتفاعهما على ألفيْ متر، أجرد، لا ترى فيه للأشجار أثراً، إنـه «النيولـو» وطن الحرية في كورسيكا، القلعة الحصينة والبعيدة المنال حيث لم يستطع الغزاة طرد السكان الجبليين منها.

قال مرافقي: هنا يلجأ كل قطَّاع الطرق.

بعد قليل صرنا في قلب تلك الحفرة الموحشة، الجميلة بشكل يفوق كل تصور. لا عشب، ولا نبات؛ غرانيت، لا شيء غير الغرانيت. وعلى مدى بصرنا، صحراء من الغرانيت المتلألئ، سخنته كالفرن شمس ملتهبة كأنها عُلِّقت عن عمد فوق تلك الشعاب الجبلية الحجرية؛ حين تلتفت إلى القمم تقفُ مشدوهاً حائراً، إذ تبدو حمراء مسننة مثل أكاليل مرجان، لأن كل القمم هي من الرخام السمَّاقي؛ والسماء فوقها بلون بنفسجي ليلكي يمَّحي من جراء تجاورها مع تلك القمم الغريبة. في الأسفل ترى الغرانيت ذا لون رمادي متلألئ وتحت أرجلنا تحسبه مفتتاً، أو مسحوقاً؛ فنحن نسير فوق مسحوق يلمع. وإلى يميننا في أخدود طويل متعرج، ثمة سيل جارف يهدر جارياً. كنا نترنح تحت تلك الحرارة وذلك الضوء، وسط واد محرق، قاحل، موحش، يقسمه ذلك السيل من المياه الجارفة التي تسعى هاربة غير قادرة على إخصاب هذه الصخور، وقد تاهت في أتون يشربها بنهم دون أن تتسرب داخل الصخور لترطبها.

بغتة ظهر إلى يميننا صليب خشبي صغير مغروز في كومة حجارة. هنا قتل أحدهم. فقلت لمرافقي: كلمني عن قطاع الطرق عندكم.

فقال: لقد عرفت أشهرهم وأكثرهم عنفاً، «سانتا لوسيا»، سأروي لك قصته.

* * *

قُتِلَ والده في مشاجرة، والقاتل شاب من نفس البلد، كما قيل؛ بقي «سانتا لوسيا» وحيداً مع أخته، كان شاباً ضعيفاً وخجولاً، صغير الحجم، مريضاً في أغلب الأحيان ودون أي نشاط. لم يعلن عن طلب الثأر من قاتل أبيه، كل أقربائه جاؤوا إليه ورجوه أن يثأر؛ لكنه أصمَّ أذنيه لتهديداتهم وتوسلاتهم.

حينئذ وحسب عادة كورسيكية قديمة، لم تترك له أخته التي غضبت واغتاظت، ثياباً سوداء حتى لا يرتدي لباس الحِداد على ميت لم يُثأر له، بقي غير آبهٍ حتى بتلك الإهانة، وبدلاً من أن يمسك ببندقية والده التي مازالت محشوة، حبس نفسه في البيت ولم يعد يخرج إذ لم يكن يجرؤ على تحدي نظرات ازدراء شباب البلد.

شهور مرت، بدا وكأنه نسي حتى الجريمة، وعاش مع أخته في بيته.

ذات يوم تزوج من اشتبه به في قتل والد «سانتا لوسيا» فلم يبدُ عليه التأثر بهذا النبأ، ولكن العريس، بقصد التحدي ولاشك، مرَّ في طريقه إلى الكنيسة أمام بيت اليتيمين.

عند النافذة، كان الأخ والأخت يأكلان بعض الحلوى عندما لاحظ الشاب موكب العرس يجتاز منزله. فجأة بدأ يرتجف ثم نهض دون أن ينبس ببنت شفة، ورسم إشارة الصليب، وأخذ البندقية المعلقة فوق الموقد وخرج.

حين كان يذكر ذلك فيما بعد كان يقول: لا أعرف ما جرى لي؛ أحسست بنارٍ تسري في دمي؛ شعرت أن ذلك واجب؛ وأنه بالرغم من كل شيء لن أتمكن من المقاومة، إذ ذهبت وخبأت البندقية في دغلٍ على طريق «كورت».

بعد ساعة عاد فارغ اليدين لكن بسحنته العادية الحزينة والمرهقة. واعتقدت أخته بأنه لم يعد يفكر في شيء، ولكن عند هبوط الليل اختفى.

كان من المقرر أن يمر عدوه في تلك الليلة في طريقه إلى كورت مع شاهدي زواجه.

جاؤوا يغنون عِلى الطريق؛ فجأة انتصب «سانتا لوسيا» في وجههم وصاح وعيناه تحدقان في وجه القاتل: لقد آن الآوان، ومن مسافة قريبة أطلق رصاصة اخترقت صدره.

أحد الشاهدين أطلق ساقيه للريح أما الآخر فكان ينظر إليه وهو يردد: ماذا فعلت يا «سانتا لوسيا» ثم أراد أن يسرع إلى «كورت» ليأتي بنجدة، لكن «سانتا لوسيا»، صاح به: إذا خطوت خطوة واحدة سأكسر لك ساقك. ولما كان يعرفه جباناً حتى ذلك الحين، قال له: لن تجرؤ!، ومر، لكنه سقط فوراً وقد أصيبت ساقه برصاصة.

دنا «سانتا لوسيا» منه وقال: سألقي نظرة على جرحك، فإن لم يكن خطيراً سأتركك هنا، أما إذا كان مميتاً، سأجهز عليك.

نظر بإمعان إلى الجرح، وارتأى أنه مميت، فحشا بندقيته ببطءٍ ثم دعا الجريح ليتلو صلاة، وفجر جمجمته.

في اليوم التالي صار في الجبل.

هل تدري ما قام به فيما بعد، هذا «السانتا لوسيا»؟.

أوقف الدرك كل عائلته. وعمه الكاهن، الذي كان مشتبهاً بتحريضه على الثأر، سجن هو أيضاً وادعى عليه أهل القتيل. لكنه فرَّ من السجن وأخذ بدوره بندقية ولحق بابن أخيه في الأدغال.

بعد ذلك، قتل «سانتا لوسيا» كل من اتهم عمه، الواحد بعد الآخر، واقتلع عيونهم ليعلِّم الآخرين ألا يؤكدوا على أي شيءٍ لم يروه بأعينهم.

قتل كل أقرباء وحلفاء العائلة المعادية. وقتل خلال حياته أربعة عشر دركياً، وأحرق منازل خصومه، وظل حتى موته أخطر وأرهب قاطع طريق بقي ذكره بين الناس.

* * *

كانت الشمس تميل نحو الغروب خلف «المونتي تشينتو»، وكان ظل جبل الغرانيت ينحني على غرانيت الوادي. كنا نسير بسرعة لنبلغ قبل هبوط الليل، قرية «البيرتاتشه» الصغيرة، وهي كناية عن كتلة حجارة ملتحمة بمنحدر شعاب الجبل الصخرية. قلت وأنا أفكر في قاطع الطريق: يا لها من عادة رهيبة لديكم، عادة الثأر تلك!.

أجاب مرافقي باستسلام: لا حيلة لنا في ذلك، فنحن نقوم بواجبنا!

٢٥ أيار ١٨٨٢

نــدم

إلى ليون ديركس

السيد سافال، الذي لقِّبَ في مدينـة مانـت «بـالعم سـافال» نهـض لتـوه مـن فراشه. الجو ماطر في يوم خريفي كئيب؛ أوراق الشجر تتساقط ببطء مع مطـر، هـو كمطر آخر أشد كثافة وبطئاً. فارق المرح السيد سافال، فها هو يذرع أرض غرفتـه جيئـة وذهاباً، من الموقد إلى النافذة ومن النافذة إلى الموقد. في حياة كـل منـا أيـام مظلمـة، لـن تكون بالنسبة إليه من بعد سوى أيام مظلمة، فقد بلغ الثانية والستين! إنه وحيـد عـازب ولا أحد حوله، يا لتعاسته أن يموت هكذا، وحيداً، دون حنان وفيٍّ مخلص.

جلس يفكر في وجوده الذي لا معنى له؛ يتذكر الماضي الغابر، ماضي طفولته، البيت والأهل، ثم الثانوية والمشاوير، وبعدها الحقوق في باريس، ومرض والـده ثـم وفاته.

عاد بعد ذلك ليسكن مع والدته التي عاش معها، هو في ريعان شبابه وهي في خريف العمر، بهدوء وسكينة دون التوق إلى أكثر من ذلك؛ هي أيـضاً توفيـت. كـم كانت حياته كئيبة!

بقي وحيداً. والآن هو بدوره سيموت، سيختفي أيـضاً وينتهـي. لـن يكـون هناك «سيد سافال» من بعد على هذه الأرض. يا لبشاعة هذا الوضع! أناس آخـرون سيعيشون ويتحابون ويمرحون، نعم سيمرحون بينما يكون هو قد غـاب! هـل مـن المستغرب أن يتمكن المرء من الضحك والتسلية والسعادة في ظـل هـذا اليقـين مـن

الموت؟ لو كان الموت محتمل الحدوث فقط، لكان الأمل ممكناً؛ لكن على العكس، فهو محتوم ولا مفر منه، كحتمية تعاقب الليل بعد النهار.

لو كانت حياته ملأى! لو فعل شيئاً، لو قام بمغامرات، أو استمتع بملذات أو نجاحات ومسرات من كل الأشكال. ولكن لا، لا شيء من هذا القبيل. لم يكن قد فعل شيئاً، لا شيء أبداً إلا أن ينهض ويأكل في نفس الأوقات وينام، حتى إنه لم يتزوج كسائر الرجال، لماذا؟ نعم، لماذا لم يتزوج؟ كان ذلك بإمكانه لأنه كان يملك ثروة ما. هل الفرصة هي التي فاتته؟ ربما! إن المرء يستطيع إيجاد فرص كهذه! كان خاملاً، هذا ما في الأمر. كان الخمول مرضه المزمن، وعيبه وإحدى نواقصه. كم من الناس يضيعون حياتهم بالخمول، فمن الصعب جداً بالنسبة لبعض الطبائع أن ينهض صاحبها ويتحرك ويقوم بإجراءات أو يتكلم أو يدرس بعض المسائل.

لم يحببه أحد. ما من امرأة اتكأت على صدره في عفوية حب كاملة، لم يكن يعرف جزع الانتظار اللذيذ، ولا الرعشة الإلهية للمسة يد، أو انخطاف العاطفة المنتصرة.

أي سعادة تفوق إدراك البشر وتغرق القلب عندما تلتقي الشفاه لأول مرة، وحين يبدع عناق الأذرع الأربعة كائناً واحداً، كائناً في منتهى السعادة، من كائنين جُنَّ كل منهما بالآخر.

جلس السيد سافال وقدماه باتجاه النار، وقد ارتدى مبذله.

صحيح أن حياته أخفقت تماماً، مع ذلك فقد كان يحب، أحب سراً بألم وبخمول، كما كان يفعل كل شيء؛ نعم، لقد أحب صديقته القديمة السيدة ساندر، زوجة رفيقه السيد ساندر. آه، لو أنه عرفها قبل أن تتزوج، لكنه التقى بها متأخراً؛ كانت قد تزوجت.. نعم كان ليطلب يد هذه المرأة! كم أحبها بالرغم من ذلك، دونما كلل ومنذ أول يوم.

كان يتذكر تأثره كلما شاهدها، وأحزانه حين يبتعد عنها، والليالي التي لم يذق فيها طعم النوم لأنه كان يفكر فيها.

في الصباح كان يستيقظ دوماً أقل محبة منه في المساء، لماذا؟

كم كانت جميلة فيما مضى، لطيفة وضحوكة ذات شعر مجعد وشقراء! أما «ساندر» فلم يكن الرجل الذي يناسبها. والآن فقد بلغت من العمر ثمانية وخمسين عاماً، وهي على ما يبدو سعيدة. آه لو أحبته تلك المرأة من قبل؛ لو أحبته! ولِمَ لا تحبه هو، سافال، لأنه كان يحبها هي، مدام ساندر؟

لو أنها حزرت شيئاً ما فقط... ألم تكتشف أمراً ما، ألم ترَ أو تفهم ما كان يعانيه؟ حينئذ بماذا كانت ستفكر لو تكلم، بماذا كانت ستجيب؟.

وبقي سافال يطرح على نفسه آلاف الأسئلة. كان يعيش حياته من جديد ويحاول أن يسترجع جملةً من التفاصيل.

تذكر كل سهرات لعب الورق الطويلة لدى آل ساندر حين كانت زوجة الأخير في أوج شبابها وسحرها.. تذكر الكلمات التي قالتها له، ونغمات صوتها في ذلك الزمان، والابتسامات الناعمة الخرساء التي كانت تعني الكثير من الخواطر.

صار يتذكر النزهات الثلاثية على طول نهر السين، وطعام غدائهم على العشب أيام الأحد، لأن السيد ساندر كان موظفاً في مديرية المنطقة. فجأة قفزت إلى مخيلته ذكرى واضحة لبعد ظهر أحد الأيام أمضياه في غابة صغيرة على ضفة النهر.

كانوا قد انطلقوا صباحاً يحملون زادهم الجاهز، وفي يوم من أيام الربيع التي تضج بالحياة، يومٍ يبعث النشوة في الإنسان؛ كل شيء جميل له أريج ويبعث على الفرح. العصافيرُ تعزف ألحاناً أكثر عذوبة، حتى ضربات أجنحتها بدت أسرع من المعتاد. تناولوا الطعام على العشب تحت الصفصاف قرب المياه المسترخية تحت دفء الشمس. الهواء فاتر، مفعم بعطور النسغ، فعبوا منه مستمتعين.. كم كان الطقس جميلاً في ذلك اليوم.

بعد الغداء، نام السيد ساندر على ظهره: «أفضل غفوة في حياتي»، قال حين استفاق. كانت السيدة ساندر قد تأبطت ذراع سافال وذهبا معاً على ضفة النهر.

اتكأت عليه وكانت تضحك وتقول: «أنا سكرى، يا صديقي، سكرى حتى العظام». فكان يرنو إليها مرتعشاً حتى أعماق قلبه، وقد شحب لونه لخشيته أن تكون عيناه قد أبدتا جرأة، أو أن تفصح هزة من يده سره الدفين.

صنعت لنفسها إكليلاً من الأعشاب الطويلة والزنابق المائية، وسألته: «أتحبني هكذا».

بما أنه لم يجب بشيء - لأنه لم يجد شيئاً يجيب من خلاله، كان يود بالأحرى أن يركع على ركبتيه - فجعلت تضحك، ضحكة مستاءة ساخطة ورمت في وجهه: «يا أحمق تكلم على الأقل!».

كاد أن يبكي ولم يجد كلمة يقولها.

كل ذلك استعاده في ذلك الحين، بدقة كما في ذلك اليوم. لماذا قالت له ذلك: «يا أحمق، تكلم على الأقل».

ثم تذكر كيف كانت متكئة عليه بحنو. وحين مرا تحت شجرة منحنية، أحس بأذنها هي على خده هو، فتراجع بغتة خشية أن تحسب تلك الملامسة مقصودة، وحين قال: «أما حان الوقت لنعود؟» رمته بنظرة غريبة، نظرت إليه فعلاً بطريقة لم يعرفها من قبل. لم يفكر بذلك حينها، وها هو الآن يستعيد ذكراها.

أجابته يومها: «كما تريد يا صديقي، إذا كنت متعباً فلنعد».

فقال: «ليس لأنني متعب، لكن من الممكن أن يكون ساندر قد استفاق الآن».

أجابته رافعة كتفيها: «إذا كنت خائفاً أن يكون زوجي قد استفاق، هذا شيء آخر، لنعد».

بقيت صامتة حين عادا ولم تكن متكئة على ذراعه، لماذا؟.

كلمة «لماذا» هذه، لم يكن قد طرحها على نفسه. والآن كان يبدو أنه يلاحظ ما لم يكن قد فهمه من قبل مطلقاً.

هل؟...

احمر لون سافال ونهض مضطرباً كما لو أنه، وقد عاد ثلاثين عاماً إلى الوراء، سمع السيدة ساندر تقول له: «أحبك!».

هل كان ذلك ممكناً؟ هذا الشك الذي اعترى روحه للتو، كان يعذبه! هل من المعقول أنه لم يرَ ولم يحزر.

ليت ذلك كان حقيقة، لو أنه مرَّ بتلك السعادة دون أن يمسك بها!

قال لنفسه: أريد أن أعرف، لا أستطيع البقاء في خضم هذا الشك، أريد أن أعرف.

ارتدى ثيابه بسرعة، كان يفكر: أنا في الثانية والستين، وهي في الثامنة والخمسين، أستطيع بالتأكيد أن أسألها ذلك..

وخرج...

بيت آل ساندر كان في الجهة الأخرى من الشارع مقابل بيته تقريباً. ذهب إليه.. وجاءت خادمة صغيرة لتفتح له الباب بعد أن قرعه.

استغربت مجيئه الباكر، وقالت: «أنت في هذا الوقت، سيد سافال! هل حدث مكروه؟»

أجابها: «لا يا ابنتي، لكن اذهبي وقولي لسيدتك إنني أريد التحدث إليها فوراً».

- سيدتي تقوم بإعداد مؤونتها من مربى الإجاص للشتاء، وهي الآن أمام فرنها، وليست في ثيابها اللائقة.

- نعم، لكن قولي لها إن الأمر مهم جداً.

ذهبت الخادمة الصغيرة، وبدأ سافال يمشي في الصالون بخطى واسعة عصبية، ومع ذلك لم يشعر بالارتباك.. آه! سيطرح عليها السؤال كما لو أنه يطلب وصفة طعام، فهو قد بلغ الثانية والستين!

فتح الباب؛ فظهرت. كانت حينذاك امرأة بدينة، عريضة، مستديرة، ذات خدود ملأى وضحكة رنانة، كانت تمشي وقد ابتعدت يداها عن جسمها، وأكمامها مرفوعة عن ساعديها العاريين الملطخين بالقطر السكري، فسألته مضطربة:

- ماذا بك يا صديقي؛ أأنت مريض؟ فأجابها:

- لا أيتها العزيزة، لكنني أريد أن أطرح عليك سؤالاً له عندي أهمية كبرى، وهو يعذب قلبي، أتعدينني بأن تجيبي بصراحة؟

ابتسمت وقالت:

- كنت وما زلت صريحة. هات ما عندك.

- هذا ما عندي: لقد أحببتكِ يوم رأيتكِ. هل خامرك أي شك بذلك؟

أجابته ضاحكة بلهجة تقارب لهجتها الغابرة:

- يا أحمق، أكيد! لقد رأيت ذلك من أول يوم!.

بدأ سافال يرتجف؛ فتمتم:

- كنت تدرين؟.. إذاً..

ثم صمت.. فسألته:

- إذاً ماذا؟، فقال:

- إذا.. ماذا كنتِ تعتقدين؟.. ماذا.. ماذا.. ماذا كنت ستقولين؟

ازداد ضحكها وسالت نقطتان من القطر عند أطراف أصابعها وسقطتا على الأرض..

- أنا؟ لكنك لم تطرح عليّ أي سؤال. فلست أنا من عليه البوح بـ..!

حينئذ تقدم منها خطوة وقال:

- قولي لي.. أخبريني.. أتذكرين ذلك اليوم حين نام ساندر على العشب بعد الغداء.. حين كنا معاً حتى ذلك المنعطف، هناك..

وانتظر كانت قد توقفت عن الضحك وحدجته ببصرها:

- بالتأكيد أتذكر..

فاستأنف مرتعشاً:

- حسناً.. في ذلك اليوم.. لو كنت.. لو كنت.. أكثر جرأةً.. ماذا كنت ستفعلين؟..

صارت تبتسم ابتسامة امرأة سعيدة لا تأسف على شيء، وأجابته بصراحة، بصوت جلي كان الهزء فيه واضحاً:

- كنت استسلمت يا صديقي.

ثم استدارت وفرت نحو مُرَبِّياتها.

خرج سافال إلى الطريق ذاهلاً كمن فرَّ من كارثة، كان يمشي بخطوات واسعة تحت المطر، إلى الأمام باتجاه النهر دون أن يفكر إلى أين هو ذاهب؛ حين بلغ حافة النهر، انعطف يميناً وتابع طريقه، مشى طويلاً وكأن غريزة تدفعه، تبللت ثيابه وصارت تقطر ماءً، وتغضنت قبعته، وصارت كخرقة يرشح منها الماء، ظل يسير ويسير إلى أن وصل إلى المكان الذي فيه تناولوا غداءهم في ذلك النهار البعيد الذي عصرت ذكراه قلبه.

هناك جلس تحت الأشجار العارية، وبكى...

٤ تشرين الثاني ١٨٨٣

الـولـيـد

بعد أن أقسم الأيمان المغلظة بألا يتزوج مطلقاً، غيَّر «جاك بوردييير» رأيه فجأة، لكن ذلك حدث دون سابق إنذار، في الصيف، وعلى شاطئ البحر.

صباح أحد الأيام بينما كان متمدداً على الرمال، مشغولاً بالنظر إلى النساء وهنَّ خارجات من الماء، صدم برؤية قدم صغيرة ناعمة ولطيفة تلامسه. حين رفع بصره نحو الأعلى، فتنته شخصية صاحبتها، فلم يعد يرى منها سوى العرقوب والرأس البارز من خلال مئزر من الفانيلا البيضاء، وقد أُحْكِمَ إغلاقه. قيل إنه كان شهوانياً فاسقاً. لذا لم يفتتن حينها إلا بجمال الشكل؛ ثم توقف عند سحر فتاة ذات روح طيبة الشمائل، بسيطة وناعمة نعومة الخدود والشفاه.

حين تعرف إلى العائلة أعجب الجميع لكنه من ناحيته، أحب بجنون، ولما كان يلمح «بيرت لانيس» من بعيد على الشاطئ الرملي الطويل، كان يرتعش من رأسه حتى قدميه. وحين يدنو منها كان يصمت غير قادر أن ينبس ببنت شفة، ولا حتى أن يفكر، ويصاب بنوع من الغليان في قلبه، وطنين في أذنيه، وتشويش في عقله. أكان ذلك هو الحب؟.

لم يكن يدري أو يفهم شيئاً، لكنه بقي في كل الأحوال مصمماً أن يتخذ تلك الصبية زوجة له.

تردد أهل الفتاة طويلاً متأثرين بسمعة الشاب السيئة، فقد قيل بأن له صاحبة قديمة، على علاقة متينة به منذ زمن، هي سلسلة يظن المرء أنها انقطعت، لكنها تبقى صامدة.

إضافة إلى ذلك كان يقع خلال فترات تطول أو تقصر في حب النساء اللواتي يقعن على مرمى من شفتيه.

في تلك الفترة استقامت سيرته ولم يعد يرضى برؤية تلك التي عاشرها طويلاً، وتكفل أحد أصدقائه بتنظيم نفقة لتلك المرأة، وأمَّن لها المعيشة. دفع جاك مالاً، غير أنه لم يرد من بعد سماع أخبارها، مدعياً جهله بمعرفة حتى اسمها؛ كتبت له الرسالة تلو الأخرى لكنه لم يفتحها. كل أسبوع كان يعرف خط تلك التي هُجِرت؛ وكل أسبوع كانت تثير غضبه أكثر فأكثر فكان يمزق المغلف والورقة دون أن يفتحها ولو لقراءة سطر، سطر واحد، عالماً مسبقاً بأنها ستلقي عليه الملامة والعتب في تلك الرسائل.

بما أن أهل الفتاة ما كانوا يوماً مقتنعين بثبات رأيه فإنهم مددوا الاختبار إلى نهاية الشتاء وحين أقبل الربيع فقط أجيب طلبه.

تم الزواج في باريس في الأيام الأولى من أيار.

كانوا قد قرروا بأنه لن يذهب في رحلة عرس تقليدية. فبعد الحفلة الراقصة البسيطة التي أحيتها صبايا من بنات أعمامه وأخواله، والتي لم تتجاوز الحادية عشرة ليلاً، وذلك كي لا يطول إرهاق ذلك اليوم الاحتفالي؛ فالعروسان سيمضيان أول ليلة في بيت العائلة ومن ثم يذهبان وحدهما في اليوم التالي إلى الشاطئ العزيز على قلبيهما حيث تعارفا وتحابا.

أرخى الليل سدوله، والرقص على أشده في البهو، وانسحب العروسان إلى غرفة استقبال صغيرة يابانية تزينها ستائر حريرية ذات ألوان زاهية، وتضيئها أنوار ثريا ملونة تتدلى من السقف على شكل بيضة ضخمة. ومن النافذة المفتوحة كان الهواء الندي يلج ويداعب وجهيهما، ويحمل معه عطراً ربيعياً منعشاً.

جلسا صامتين لتتكلم أيديهما فتشد إحداها على الأخرى بقوة. أما هي فقد بقيت عيناها شاردتين، تفصحان عن اضطرابها بسبب تغير نمط حياتها، لكنها كانت تبتسم وقلبها يهتز ويكاد الدمع ينفر من عينيها، وهي مستعدة أيضاً لأن تنهار من الفرح، ظناً منها أن العالم كله قد تغير بسبب ما حصل لها؛ كانت قلقة دون أن تعرف سبباً لذلك القلق، وأحست بأن جسدها كلَّه وروحها قد امتلأا عياءً لذيذاً لا يوصف.

أما هو فكان ينظر إليها بعناد مبتسماً ابتسامة ثابتة. أراد أن يتكلم غير أنه لم يجد ما يقوله فبقي صامتاً، واضعاً كل شوقه في يده التي كانت تضغط على يدها. من وقت لآخر، كان يتمتم: «بيرتا!»، وفي كل مرة كانت ترفع بصرها نحوه في نظرة حلوة وحانية؛ كان واحدهما يحدق في الآخر لحظة، ثم تخفض بصرها وقد اخترقها بصره وفتنها.

لم يعثرا على أية فكرة يتبادلانها، تُرِكا منفردين، لكن زوجاً من الراقصين كان يلقي نحوهما أحياناً نظرة عابرة وكأنه شاهدٌ كتومٌ ومؤتمنٌ على سرهما.

فتح باب جانبي ودخل أحد الخدم وبين يديه صينية عليها رسالة جاء بها موظف البريد؛ أمسك جاك بالرسالة وهو يرتجف وقد تملكه خوف غامض مفاجئ، خوف المصائب المباغت.

نظر ملياً إلى المغلف فلم يعرف الخط، ولم يجرؤ على فتحه، بل كانت لديه رغبة جامحة ألا يقرأ ولا يعرف ما فيه، أو أن يضعه في جيبه ويقول: «إلى الغد.. فغداً سأكون بعيداً فالأمر لا يهمني!»، ولكن هناك على إحدى زواياه قرأ كلمتين: عاجل جداً، فارتاع وسأل عروسه: «أتسمحين يا حبيبتي؟»، وفضّ المغلف وقرأ. قرأ الورقة بسرعة وقد شحب لونه بشكل مريع، ثم جال بطرفه فيها ببطءٍ كأنه يتهجأ كل كلمة فيها.

حين رفع رأسه، كل سحنته كانت قد انقلبت، فتمتم: «يا صغيرتي الحبيبة، هذا.. إنه أعز أصدقائي وقد تعرَّض لمصيبة كبيرة، كبيرة جداً، وهو محتاج إليَّ على الفور.. على الفور.. بمسألة فيها موت أو حياة، أتسمحين أن أتغيب عشرين دقيقة؟.. سأعود بعدها مباشرةً».

تلعثمت مرتعدة خائفة وقالت: «اذهب يا حبيبي!» حيث إنها لم تكن بعد زوجته تماماً، ولم تجرؤ على سؤاله لتستعلم عن الأمر. وذهب. بقيت وحدها، وهي تسمع حركات الراقصين في البهو المجاور.

كان قد أخذ قبعة وجدها أمامه ومعطفاً، ونزل مهرولاً على الدرج، ولحظة قفزه إلى الشارع، توقف تحت ضوء الممر وأعاد قراءة الرسالة، وهذا ما قرأه:

سيدي،

فتاة تدعى «رافيه» عشيقتك السابقة كما يبدو، قد وضعت للتو صبياً ادعت أنه لك؛ أمه ستموت وتطلب منك أن تزورها. أسمح لنفسي أن أكتب إليك وأطلب منك فيما لو استطعت، أن تمنح هذه المرأة فرصة محادثة أخيرة، فهي تبدو في منتهى التعاسة وأهلاً للشفقة.

خادمكم الدكتور بونار

حين دخل إلى غرفة المحتضرة، كانت في نزاعها الأخير؛ في بادئ الأمر لم يعرفها، كان الطبيب يعالجها بمساعدة ممرضتين، وأرض الغرفة ملأى بأوعية الثلج، والخرق المشبعة بالدم.

الماء يغمر أرض الغرفة، وقد وضعت شمعتان على إحدى قطع الأثاث وخلف السرير، كان الوليد يصرخ في مهده، وعند كل صرخة كانت الأم المعذبة تحاول القيام بحركة وهي ترتجف تحت الضمادات الجليدية.

نزفت، ونزفت طويلاً من جرحها المميت، قتيلة تلك الولادة، كل حياتها سالت؛ بالرغم من الثلج وبالرغم من العناية كان تصلّب النزيف مستمراً ويدني ساعتها الأخيرة.

عرفت جاك وحاولت رفع ساعدها غير أنها لم تستطع لشدة الوهن، لكن على خديها الشاحبين بدأت تسيل دموعها.

خرَّ على قدميه أمام السرير وأمسك بيدها المتدلية وقبلها بجنون، ثم اقترب بهدوء نحو ذلك الوجه الشاحب النحيل الذي ارتجف من ملامسته. إحدى الممرضتين أمسكت بشمعة وابتعد الطبيب وهو ينظر إليهما من صدر الغرفة.

قالت له بصوت متهدج كأنه آتٍ من بعيد: «سأموت يا حبيبي، عدني أن تبقى حتى النهاية. آه! لا تتركني الآن، لا تتركني في لحظتي الأخيرة!».

قبّل جبينها وشعرها وهو يشهق بالبكاء وتمتم: «إهدئي، سوف أبقى»..

سكتت بضع دقائق قبل أن تتمكن من الكلام ثانية، لشدة عذابها وضعفها وقالت: «الصغير هو ابنك، أقسم بالله، أقسم بحياتي، أقسم لك، وأنا أحتضر، لم أحبب رجلاً إلاك.. عدني بألا تتخلى عنه». كان يحاول أن يحضن بين ذراعيه هذا الجسد البائس الممزق الذي أصبح بلا دم. تمتم وقد ذهب عقله من عذاب الضمير والأسى: «أقسم لك، سأربيه وأحبه ولن يفارقني»، حينئذ حاولت أن تقبله، ولما كانت عاجزة عن رفع رأسها لضعفها، مدت شفتيها المبيضتين كنداء لقبلته، فأدنى فمه ليقطف تلك المداعبة المتوسلة المحزنة.

تمتمت وقد هدأت قليلاً: «هاته لأرى إن كنت تحبه»، فذهب وأتى بالطفل.

وضعه بلطف على السرير بينهما فتوقف عن البكاء. همست: «لا تتحرك!» فهدأ، بقي هناك ممسكاً بيده الملتهبة تلك اليد التي كانت تهزها رعشات الاحتضار، كما أمسك منذ لحظة يداً أخرى تتقلص من رعشات الحب. من وقت لآخر، كان يلقي نظرة خاطفة إلى الساعة وهو يراقب العقارب تنتقل إلى منتصف الليل، ثم إلى الواحدة وبعدها إلى الثانية.

انسحب الطبيب؛ أما الممرضتان فبعد قيامهما بجولة قصيرة بخطىً هادئة في الغرفة، راحتا في إغفاءة على الكراسي. والطفل نام وأمه أغمضت عينيها وكأنها ترتاح.

بغتة تسرب ضوء النهار الشاحب عبر الستائر؛ مدت يديها بحركة فجائية وعنيفة حتى كادت تلقي بالطفل إلى الأرض، خرجت من حنجرتها حشرجة ثم هدأت على ظهرها وأسلمت الروح. هرعت الممرضتان وأعلنتا: «لقد رحلت».. ألقى نظرة أخيرة على تلك المرأة التي أحبها، ثم إلى الساعة التي كانت تشير إلى الرابعة. فرّ والوليد بين ذراعيه ناسياً معطفه.

لما ترك زوجته وحدها، انتظرته أول الأمر بهدوء في الصالة الصغيرة، ثم حين وجدت أنه لم يعد، عادت إلى البهو الكبير بهيئة تنم عن الهدوء واللامبالاة، لكنها كانت قلقة تماماً، رأتها أمها وحيدة فسألتها: «أين زوجك؟»، فأجابت: «في غرفته وسيعود».

بعد ساعة، حين سألها الجميع، أعلنت عن الرسالة وعن سحنة زوجها المضطربة، وتخوفه من مصيبة وقعت.

غادر المدعوون، وبقي الأهل والأقربون فقط ينتظرون؛ عند منتصف الليل أوت العروس إلى فراشها وقد برَّحها النحيب، وجلست أمها وعمتاها حولها، يسمعن بكاءها صامتات حزينات. والدها ذهب إلى مفوض الشرطة للبحث عن معلومات.

عند الخامسة حدثت حركة في الممشى، فتح باب ثم أغلق بهدوء، بعد ذلك سمعت صرخة، أقرب إلى مواء قطة، في أركان المنزل الصامت.

نهضت كل النساء دفعة واحدة وأولهن بيرتا التي انطلقت بالرغم من أمها وعماتها وقد التفَّت بثياب النوم.

وقف جاك في منتصف الغرفة، شاحب اللون لاهثاً وبين ذراعيه الطفل الوليد.

حدجته النساء الأربع بعيون حائرة، لكن بيرتا، التي صارت جسورة حينها مع أن قلبها كان يعتصر من الغم.. هرعت نحوه قائلة: «ما الأمر؟ قل.. ما الأمر؟».

بدا كالمجنون وأجابها بصوت متلعثم: «القصة... هي أن لي ولداً أمه قد توفيت للتو..»، وقدم بذراعيه الطفل الباكي.

وبدون أن تتكلم، أمسكت بيرتا الطفل وضمته إلى صدرها، ثم رفعت نحو زوجها عينين باكيتين: «قلت إن أمه توفيت؟»، أجابها: «نعم لتوها.. بين ذراعي.. لقد هجرتها منذ الصيف.. لم أكن أعرف أي شيء عنها... إنه الطبيب الذي استدعاني..».

تمتمت حينئذ بيرتا، وقالت: «حسناً، نحن سنربي هذا الصغير».

١٨ أيلول ١٨٨٣

زوجتي

حدث ذلك في نهاية عشاء مجموعة من الرجال المتزوجين، أصدقاء قدامى يجتمعون أحياناً بلا زوجاتهم كعازبين، كما في الأيام الخوالي. مائدتهم تبقى ممدودة ساعات طويلة، ويحتسون الكثير من الخمر؛ حديثهم يشمل كل شيء وينبش ذكريات قديمة سارّة، هذه الذكريات الدافئة التي تبعث البسمات على الشفاه، والرعشات في القلب. كانوا يتندرون هكذا:

«هل تذكر يا جورج، رحلتنا إلى «سان جرمان»، مع فتاتَيْ «مونمارتر؟»».

- كيف لا! أجل إني أتذكر.

فيستعيدون التفاصيل، وهذا وذاك، وألف قصة مازالت تبعث فيهم البهجة اليوم.

وفُتحت سيرة الزواج، وكل منهم قال بصدق: «آه، لو يتكرر ذلك!..»، فأضاف: «جورج دو بورتان»: «غريب كيف يقع المرء فيه بهذه السهولة، كنا قد قررنا بحزم ألا نتخذ امرأة مطلقاً، لكن في الربيع يذهب أحدنا إلى الريف؛ هناك الدفء. ثم يهل الصيف وتنبت الزهور بين الأعشاب، يلتقي بشابةٍ عند أصدقاء. وإذا به يقع، ويعود متأبطاً ذراع امرأة».

صاح «بيير ليتوال»: بالضبط! هذه قصتي، ولكن لدي تفاصيل خاصة.

قاطعه صديقه: أما أنت، فلا تتأفف فلديك المرأة الأكثر سحراً وجمالاً في العالم، وهي إلى ذلك لطيفة وكاملة؛ أنت بالتأكيد أسعدنا.

أجابه الآخر: لم تكن غلطتي.

- ماذا تقول؟
- صحيح أن زوجتي كاملة الأوصاف، لكنني تزوجتها بالرغم من أنفي.
- لا تمزح!.
- نعم.. وإليكم القصة: كنت في الخامسة والثلاثين من عمري، ولم أكن أفكر في الزواج أكثر من شنق نفسي. كنت أحسب الفتيات تافهات، كما كنت مولعاً بالملذات.

دعيت يوماً إلى عرس ابن عمي سيمون ديرابيل في شهر أيار و... في مقاطعة النورماندي. كان عرساً نورماندياً أصيلاً. جلسنا إلى الطاولة في الخامسة مساءً؛ وفي الحادية عشرة كنا ما نزال نأكل، وللمناسبة اختيرت لمرافقتي الآنسة (دو مولان)، وهي ابنة عقيد متقاعد، شقراء ذات شخصية عسكرية وتحترم الأصول، جريئة ومهذارة. استأثرت بي النهار كله وجرتني إلى الحديقة وجعلتني أرقص طوعاً وكرهاً، أرهقتني فقلت في نفسي:

- ليمضِ اليوم، ولكن غداً سأنسل هارباً، فلقد تحملت ما فيه الكفاية.

حوالي الحادية عشرة مساءً، انسحبت النساء إلى غرفهن وبقي الرجال يدخنون وهم يشربون أو يشربون وهم يدخنون إذا أردتم.

من النافذة كنت ترى الرقص الريفي. رجال ونسوة غلاظ المظهر يقفزون في دائرة ويغنون بصوت مرتفع لحن رقص وحشي يرافقه بنعومة عازفا كمان مع كلارينيت، جلس ثلاثتهم على طاولة مطبخ استخدمت كمنصة؛ غناء القرويين المرتفع كان يغطي أحياناً صوت الآلات؛ والموسيقى الناعمة، التي مزقتها الأصوات الهائجة بدت كأنها سقطت من السماء مزقاً، أو بالأحرى قطعاً منثورة من العلامات الموسيقية.

هناك في زاوية وضع برميلان كبيران لملء كؤوس الجميع أحيطا بمشعلين للإنارة. ووقف رجلان يغسلان تلك الكؤوس في سطل، لتوضع فوراً تحت الصنابير التي منها كان يسيل خيط النبيذ الأحمر أو السيدر الذهبي النقي؛ الراقصون استبد بهم العطش، وكبار السن هدؤوا، والفتيات تصبب منهن العرق، يتدافعون جميعهم

ويمدون أيديهم ليمسك كل بدوره أي إناء ويصبوا في حلوقهم بغزارة، وهم يردون رؤوسهم إلى الخلف، مشروبهم المفضل. وعلى طاولة قريبة كُنت تجد خبزاً وزبدة وأنواعاً من الجبن والنقانق، كل واحد منهم كان يزدرد لقمة من وقت لآخر، وتحت نجوم الليل كان ذلك الاحتفال البهي المنظر، يذكي رغبة الشرب أيضاً في بطون تلك البراميل الحية الضخمة، ورغبة أقوى في أكل الخبز والزبدة والبصل النيء.

اجتاحني ميل مجنون أن أشارك في ذلك المرح، وتركت أصحابي.

يجب أن أقرَّ بأنني كنت ثملاً إلى حدٍ ما، ولكن بعد قليل أخذ السكر يتعتعني.

أمسكت بيد قروية متينة الجسم، لاهثة، وجعلتها تقفز معي بعنف حتى كدت أفقد أنفاسي، ثم أخذت جرعة من الخمر وأمسكت بيد امرأة أخرى، ومن أجل أن أرطب جوفي شربت كوباً كاملاً من السيدر وعدت لأرقص كمن سكنه عفريت.

كنت حينها مرن الجسم؛ وكان الشباب يتأملونني ويحاولون تقليد حركاتي؛ وجميع الفتيات كن يرغبن في مراقصتي ويقفزن حولي برشاقة وتثاقل الدببة.

أخيراً بعد أن تنقلت من حلقة رقص إلى أخرى، ومن كأس خمر إلى كأس سيدر، وجدت نفسي، حوالي الثانية صباحاً، كمخمور لا يستطيع الوقوف على رجليه.

انتبهت لحالتي وأردت الذهاب إلى غرفتي؛ كان القصر نائماً في صمت وعتمة.

لم يكن لدي أعواد ثقاب والكل نيام، وحين صرت في الرواق كان السُكر قد غلبني وتعذبت كثيراً لأجد الدرابزون؛ أخيراً لقيته بالتلمس صدفةً وجلست على أول درجة محاولاً ترتيب أفكاري قليلاً.

غرفتي كانت في الطابق الثاني، الباب الثالث إلى اليسار، لحسن حظي أنني لم أنسَ ذلك، شجعتني تلك الذكرى، فنهضت بصعوبة وبدأت الصعود، درجة فدرجة، ويداي ملتحمتان بقضبان الحديد كي لا أقع وفي نيتي ألا أحدث ضجة.

انزلقت قدمي ثلاث أو أربع مرات فقط، وسقطت على ركبتيَّ، ولكن بفضل قوة ساعديَّ وضغط إرادتي تجنبت تدحرجاً تاماً إلى أسفل الدرج.

أخيراً بلغت الطابق الثاني وغامرت بالسير في الممشى وأنا أتلمس الجدران.

هوذا باب؛ شرعت في العدّ: «واحد»؛ لكن دواراً تملكني واقتلعني من الجدار فجأةً وجعلني ألتفُّ في دوران غريب وأرتمي على الجدار الآخر، أردت العودة بخط مستقيم، فكانت الرحلة طويلة ومرهقة، أخيراً أدركت شاطئ الأمان وسرت بمحاذاته من جديد بتؤدة إلى أن وجدت باباً آخر. ولكي أتأكد من أنني لم أخطئ، بدأت العدّ بصوت مرتفع: «اثنان»، وتابعت المسير، انتهيت أخيراً إلى الثالث، فقلت: «ثلاثة، هذا لي»، وأدرت المفتاح في القفل، فتح الباب. فكرت، بالرغم من التشويش الذي أصابني: بما أنه قد فتح فمن المؤكد أنها غرفتي، وتقدمت في العتمة بعد أن أغلقت الباب بهدوء.

اصطدمت بشيء طري: إنه الكرسي الطويل فتمددت عليه فوراً.

في الوضع الذي كنت فيه، كان من غير المستحسن أن أبحث بعناد عن الصوان أو شمعدان أو كبريت، فقد يستغرق ذلك ساعات، وبضع ساعات إضافية كي أخلع ثيابي، ومن الممكن ألا أتوصل لذلك، فتخليت عن تلك الفكرة.

خلعت فقط حذائي، وفككت أزرار سترتي التي كادت تخنقني، وحللت بنطالي ورحت في نوم طاغ.

مضى وقت طويل، بلا شك.. أيقظني فجأة صوت يوبخ قائلاً: أيتها الكسولة، ما زلت نائمة؟ إنها العاشرة، أتدرين؟.

أجابها صوت أنثوي: صحيح! كنت مرهقة البارحة.

تساءلتُ بدهشة عما كان يعني ذلك الحوار.

أين كنت؟ وماذا فعلت؟ فكري كان يحلِّق ملتفاً بضباب كثيف.

استأنف الصوت الأول قائلاً: سأفتح الستائر.

حينها سمعت خطوات تقترب مني، فجلست وقد ذهلت تماماً، وأحسست بيد تمتد إلى رأسي، فأتيت بحركة مباغتة، وإذا بالصوت يسأل بقوة: من أنت؟ فلم أُجِبْ. فما شعرت إلا بقبضتين غاضبتين تمسكان بي، بدوري أحطت شخصاً بذراعيّ واندلعت بيننا معركة مرعبة، كنا نتدحرج آخذين معنا الأثاث، مصطدمين بالجدران.

صوت المرأة ارتفع بشكل مخيف، صارخاً: النجدة!.. النجدة!.

هرع الخدم مع جيران وسيدات جن جنونهم، فتحت مصاريع النافذة ورُفِعت ستائرها.. تماسكنا أنا والعقيد «دي مولان»!

إذ كنت نائماً بجوار سرير ابنته.

عندما فُصِلَ فيما بيننا، فررت إلى غرفتي، وقد غلبني الذهول، أقفلت بابي وجلست وقدماي على كرسي، لأن حذائي بقي لدى الصبية.

سمعت ضوضاء في أرجاء القصر، أبواباً تفتح وتغلق، وشوشات وخطىً سريعة.

بعد نصف ساعة قرع بابي فصحت: من هناك؟، كان عمي والد عريس الأمس، ففتحت.

رأيته شاحب الوجه غاضباً، وعاملني بقسوة:

- لقد تصرفت في بيتي بفظاظة، أتسمع؟ ثم أضاف بصوت أكثر لطفاً:

- كيف، تجعلهم يفاجئونك عند العاشرة صباحاً أيها الغبي!، فتنام ككتلة طين في هذه الغرفة بدلاً من أن تغادرها فوراً. بعد فعلتك.

صحت به: يا عمي، أؤكد لك بأنه لم يحدث شيء مطلقاً. لقد أخطأت الباب لأنني كنت ثملاً.

رفع كتفيه وقال: لا تفه بحماقات. فرفعت يدي وقلت: أقسم بشرفي، فقال عمي: نعم، هذا جيد، ومن واجبك أن تقوله.

وبدوري بدأت أغضب ورويت له كل ما حدث. كان ينظر إليّ بعينين ذاهلتين دون أن يعرف ما عليه أن يصدق.

ثم خرج ليتفاوض مع الكولونيل.

علمت بعدها أنهم شكلوا ما يشبه محكمة من النساء، وُضِعَت أمامها أوجه القضية المختلفة.

عاد بعد ساعة وجلس متخذاً مظهر قاضٍ وشرح يقول: مهما يكن الأمر، أنا لا أرى إلا وسيلة واحدة للتخلص من هذه الورطة، وهي أن تتزوج الآنسة «دي مولان».

قفزت مرتاعاً: أما هذه الوسيلة، فقطعاً لا.

فسألني بجدية: ماذا تنوي أن تفعل إذاً.

أجبته ببساطة: .. أن أرحل.. بعد أن يردوا لي حذائي.

استأنف عمي: لا مزاح الآن، أرجوك فإن الكولونيل مصمم أن يفجر دماغك ما إن يراك ويمكنك التأكد بأنه لا يهدد بلا طائل، كلّمته عن مبارزة فأجابني: لا، فقد قلت لك بأنني سأفجر دماغه.

والآن لننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى؛ فإما أن تكون قد أغويت هذه الفتاة، إذاً، واأسفاه عليك يا بني، فالمرء لا يقصد العذارى. أو أنك أخطأت بسبب سكرك كما تقول؛ مرة أخرى أكرر أسفي عليك. كان من الأفضل ألا تضع نفسك في مواقف محرجة كهذا الموقف. بكل الأحوال، لقد فقدت المسكينة سمعتها، إذ ما من أحد يصدق كلام سكير، فالضحية الوحيدة، الضحية الحقيقية في هذه المسألة، هي تلك الفتاة، فكر في الأمر.

ذهب وأنا أصرخ خلفه: قل ما تريد، فأنا لن أتزوج.

بقيت وحيداً ساعة أخرى.

جاءت زوجة عمي بدورها، كانت الدموع تملأ عينيها، حاولتْ بكل ما أوتيت من منطق، لكن أحداً لم يصدق الخطأ الذي وقعت فيه. ما استطاع أحد أن يقبل بأنها نسيت إقفال باب غرفتها بالمفتاح في بيت امتلأ بالناس. ضربها الكولونيل، وكانت تبكي منذ الصباح. ما جرى كان فضيحة مريعة لا يمكن نسيانها.

تابعت زوجة عمي الطيبة قائلة: اطلبها للزواج، فقد نتمكن من إيجاد وسيلة لتتملص من المشكلة لدى كتابة شروط العقد.

ارتحت لوجهة النظر هذه، ووافقت على كتابة طلبي يد الفتاة؛ بعد ساعة غادرت إلى باريس.

أُبلِغْت في اليوم التالي بأن طلبي قد قبل.

في غضون ثلاثة أسابيع، ودون أن أجد مخرجاً، هُزِمْت.. فقد تم الإعلان عن الزواج وأرسلت بطاقات الدعوة، ووقع العقد ووجدت نفسي صباح أحد الأيام

وسط كنيسة شعت أنوارها، وإلى جانبي فتاة تبكي، بعد أن أعلنتُ أمام العمدة أنني قبلتها رفيقة. حتى يمات أحدنا.

لم أكن قد رأيتها بعد تلك الحادثة، وكنت أنظر إليها بطرف عيني بعدوانية ودهشة. على أنها لم تكن بشعة أبداً، صرت أقول لنفسي: هذه لن تجد ما يضحكها كل يوم.

أما هي فلم تنظر إليَّ ولو مرة حتى المساء، ولم تفه بكلمة.

حوالي منتصف الليل، دخلت إلى الغرفة وفي نيتي أن أنقل إليها قراراتي لأنني حينها كنت السيد المطلق.

وجدتها جالسة في مقعد مرتدية ثياب النهار، عيناها كالجمر، والشحوب بادٍ على وجهها. نهضت ما إن دخلت وجاءت إليَّ بهدوء ووقار ثم قالت:

- أيها السيد، أنا على استعداد لأن أفعل ما تأمر به. سأقتل نفسي لو رغبت.

كانت، كما في كل شيء، جميلة في هذا الدور البطولي وابنة للكولونيل، قبَّلتها، وهذا حقي.

وبعد قليل لاحظت بأنني لم أخدع، وها قد مضت خمس سنين على زواجنا، وأنا لست نادماً حتى الآن على ذلك.

* * *

صمت بيير ليتوال، وضحك أصدقاؤه فقال أحدهم: الزواج ورقة يانصيب، يجب ألا تختار الرقم لأن أرقام الصدفة هي الفضلى.

أضاف آخر: نعم ولكن لا تنسوا أن إله السكارى هو من اختار لبيير.

٥ كانون الأول ١٨٨٢

مأساة حقيقية

ما هو حقيقي قد يكون أحياناً لا يصدق

كنت أقول في أحد الأيام، وفي هذا المكان، إن المدرسة الأدبية في الأمس كانت تستخدم، من أجل رواياتها، مغامرات أو وقائع استثنائية قد تصادفنا في الحياة؛ بينما المدرسة المعاصرة، وهي التي لا تهتم إلا بما يتفق مع الحقيقة الممكنة، فهي تقيم نوعاً من التوازن للأحداث العادية.

وها أنا قد وصلتني قصة كاملة، حصلت على ما يبدو، وكأن أحد الرواة الشعبيين، أو كاتب مسرح كتبها وهو تحت تأثير الهلوسة.

في كل الأحوال، هي قصة أخاذة، جيدة التدبير ممتعة جداً بغرابتها.

في إحدى الممتلكات الريفية وهي نصف مزرعة، ونصف قصر، كانت عائلة تعيش مع ابنة يخطبُ ودَّها أخوان.

كان الشابان، وهما من عائلة عريقة، يسكنان بيتاً مجاوراً.

اختير البكر. أما الثاني، والذي كان حبه العنيف يزيد قلبه اضطراباً، فقد أصبح مغتماً وحالماً وتائهاً، كان يغيب أياماً بكاملها أو يحبس نفسه في غرفته ليقرأ ويتأمل.

كلما كانت ساعة الزواج تقترب، كلما ازداد قلقاً.

قبل ما يقارب الأسبوع من التاريخ المحدد، كان الخطيب عائداً مساءً من زيارته اليومية لفتاته، وإذا به يتلقى رصاصة من مسافة قريبة عند زاوية الغابة. نقلت مجموعة من الفلاحين جثته إلى بيته صباحاً. وغرق أخوه في يأس قاتل استمر عامين وظن الناس أنه سيترهب أو ينتحر.

في نهاية عامَيْ اليأس هذين تزوج خطيبة أخيه.

خلال تلك الفترة لم يستطع أحد اكتشاف القاتل، إذ لم يبقَ من الجريمة أثر مؤكد؛ الشيء الوحيد الدال عليها كان قطعة ورقة محترقة تقريباً، اسودت من البارود لأنها استخدمت كحشوة في بندقية القاتل، وعلى هذه القصاصة طبعت بضعة أبيات شعرية، هي بلاشك، نهاية أغنية، لكن ما من أحد استطاع اكتشاف الكتاب الذي أخذت منه.

وقع الشك على صياد مخالف كان سلوكه يبعث على الارتياب. لوحق وسجن واستجوب وعذّب، غير أنه لم يعترف، فبرِّئت ساحته لعدم توافر الأدلة.

تلك كانت حيثية المأساة. فهي أشبه برواية مغامرات مريعة. احتوت على كل شيء: حب الأخوين، غيرة أحدهما، وفاة المفضل، الجريمة عند زاوية الغابة، العدالة المضلَّلة، تبرئة المتهم، والخيط الدقيق الذي بقي بين أيدي القضاة، أي قصاصة الورق المسودَّة بسبب البارود.

وها هي سنوات عشرون تمر. الابن الأصغر متزوج، سعيد، غني ومحترم؛ وقد رزق ثلاث بنات. إحداهن بدورها ستتزوج ابناً لأحد القضاة القدامى، كان واحداً ممن جلسوا في كراسي القضاء حين جرى اغتيال الأخ البكر.

وتم عقد القران في عرس ريفي بهيج. تصافح الأبوان وملأ السرور قلب العروسين، وتوج الاحتفال بعشاء في قاعة القصر الطويلة؛ شرب الجميع وضحكوا وتمازحوا، وحين وصلت الحلوى اقترح أحدهم غناء أهازيج وأغنيات كما كانوا يفعلون فيما مضى من الزمن.

أعجبتهم الفكرة والكل بدأ في الغناء.

حين جاء دور أبي العروس، شرع يبحث في ذاكرته عن أغنية كان يدندنها قديماً، فاستعادها رُويداً رُوَيداً..

أضحكت الأغنية الجميع فصفقوا، تابع غناء آخر مقطع فيها؛ وحين انتهى سأله جاره القاضي:

- بحق الشيطان، من أين جئتنا بهذه الأغنية؟ فأنا أعرف منها الأبيات الأخيرة، ويبدو لي بأنها تتعلق بمناسبة خطيرة في حياتي، لكنني لا أعرف بالضبط، فقد بدأت أفقد ذاكرتي.

في اليوم التالي سافر العروسان في رحلة زفافهما.

أثناء ذلك، كان هاجس ذكريات غير واضحة المعالم، مع رغبة جامحة في أن يستعيد شيئاً يفلت منه بلا هوادة، يلحان على والد العريس. فصار يدندن دون توقف لازمة الأغنية التي غناها صديقه، ولم يستطع أن يعرف من أين جاءته تلك الأبيات؛ مع ذلك، كان يحس بأنها منقوشة ومغروسة في رأسه منذ أمد بعيد، وكأن لديه مصلحة جدية في ألا ينساها.

مضت سنتان، وإذا به يجد، وهو يقلِّب أوراقاً قديمة نسخها بنفسه، هذه الأبيات التي طال بحثه عنها.

كانت الأبيات هي ما بقي مقروءاً على حشوة البندقية التي استخدمت فيما مضى سلاحاً للجريمة.

حينذاك بدأ وحده بإعادة التحقيق؛ يسأل بدهاء، ويفتش في أثاث صديقه إلى أن وجد الكتاب الذي انتزعت منه تلك الورقة.

في قلب الأب هذا كانت المأساة تجري. ولده صهر المشتبه به؛ ولكن إن كان من يشك فيه مذنباً، فلأنه قتل أخاه ليسلبه خطيبته! هل هناك جريمة أكثر وحشية؟.

تغلب آنذاك ضمير القاضي على شعور الأب. أعيدت القضية للمحكمة، وكان القاتل الحقيقي هو الأخ، فحوكم.

***

ها هي ذي الأحداث كما وصلتني من أناس يؤكدون صحتها.

إذاً، في الأدب كما في الحياة، المسلَّمة التي تقول: «ليست كل حقيقة تصلح لأن تعلن»، تبدو لي قابلة للتطبيق تماماً.

وأنا أؤيد هذا المثال الذي يبدو لي لافتاً. فإن رواية تستند إلى معطيات كهذه، تجعل القراء لا يصدقون وتثير غضب كل فنان حقيقي.

٦ آب ١٨٨٢

القاتـل

محام مبتدئ شاب أُوكل إليه الدفاع عن مجرم، فما كان منه إلا أن تقدم بالمرافعة التالية:

الأحداث، كما جرت أيها السادة المحلفون، لا يمكـن إنكارهـا. مـوكلي، هـو رجل شريف، موظف لا مأخذ عليه، لطيف وخجول، قام بقتـل رب عملـه بـسورة غضب تبدو لي غير مفهومة. هل تسمحون لي أن أحلل سيكولوجية هـذه الجريمـة؟ إن جاز لي ذلك دون التخفيف مـن أي شيء ودون انتحـال الأعـذار، أمـا حكمكـم فستصدرونه فيما بعد.

«جان نيكولا لوجير»هو سليل أناس شرفاء جعلوا منه رجلاً بسيطاً ومحترماً.

هنا تكمن جريمته: الاحترام! إنه شعور، أيها السادة، لم نعـد نعرفـه في أيامنـا هذه، لكن اسمه بقي واختفـى بأسـه وسـلطانه. يتوجـب علينـا الـدخول إلى قلـب عائلات متخلفة، ومتواضعة لكي نجد هذا التقليد المتوارث الـصارم، هـذا التـديُّن المرتبط بالأشياء أو بالإنسان، بالشعور أو بالعقيدة المرتديـة لهـذه الـسجايا المقدسـة، هذا الإيمان الذي لا يتحمل الشك ولا الابتسام ولا مِسّاً من الريبة.

لا يمكن لأحد أن يكون رجلاً شريفاً، شريفاً حقاً، بكل ما للكلمة من معنى، إلا إذا كان يحترم الآخرين. فالرجل الذي يُجِلُّ تكـون عينـاه مغـضمتين. إنـه يـؤمن بذلك أما نحن، ذوي النظر الحاد المسلط على العـالم، والـذين نعـيش هنـا، في قـصر العدل هذا، وهو قاذورة المجتمع، حيث تصب فيه كل أنواع الأفعال الشائنة، نحـن الذين نعتبرَ موضع ثقة لكل عيب أو عار، ومدافعين متفانين عن كل نذالـة أو خِـسَّة بشرية، والسَّنَدَ، كيلا أقول المدافعين عن كل غريب أطوار، من الأمراء أو من الـذين

يحومون حول الأسيجة؛ نحن الذين نستقبل بحلمٍ وكياسة ورفق والابتسامة على محيانا، كل الجناة والمذنبين كي ندافع عنهم أمامكم، نحن من، إذا كنا نحب فعلاً مهنتنا، نجعل تعاطفنا كمحامين بقدر الجرم المرتكب؛ لن نستطيع من بعد أن نملك روحاً تحترم الآخرين. نحن نرى بأم أعيننا، هذا السيل من الفساد، من رؤساء السلطة حتى آخر نذل أو صعلوك، ونعرف تمام المعرفة كيف تجري الأمور، كيف يعطى كل شيء، وكيف تباع المكانات والمناصب والوظائف والتكريم، بشكل فظ، مقابل القليل من الذهب، وبمهارة، مقابل صكوك وحصص في المؤسسات الصناعية، أو بطريقة أكثر بساطة، مقابل قبلة من امرأة. إن واجبنا ومهنتنا يلزماننا ألا نتجاهل شيئاً، أن نجعل من الجميع موضع شك، لأن الكلَّ مشتبهٌ به؛ وتصيبنا الدهشة حين نواجه شخصاً، كالقاتل الماثل أمامكم، يَدينُ باحترامٍ شديد يجعل منه آخر الأمر شهيد هذا الاحترام.

نحن أيها السادة، لنا من الشرف بقدر ما لدينا عناية بالنظافة، وذلك لاشمئزازنا من الدناءة، بفضل شعور من الكرامة الشخصية والأنفة؛ غير أننا لا نحمل لهذا الشعور الإيمان الأعمى الفطري والعنيف كما هو لدى هذا الرجل.

دعوني أروي لكم سيرة حياته.

تربّى، كما تربّى الأولاد فيما مضى، وقد جعل من كل الأفعال البشرية قسمين: ما هو خير وما هو شر. أظهروا له الخير بسلطة لا تقاوم جعلته يميزه عن الشر، كما يميز الليل عن النهار. لم يكن والده سليل جنس ذوي الأذهان الراقية التي حين تنظر من علٍ، ترى ينابيع المعتقدات وتتعرف على الاحتياجات الاجتماعية التي فيها ولدت هذه التمايزات.

شبَّ إذاً، متديناً واثقاً، متحمساً ومحدوداً.

زُوِّج حين بلغ الثانية والعشرين، من قريبةٍ له تَرَبَّتْ مثله وكانت بسيطة ونقية على غراره. حالفه حظ لا يقدر بثمن في أن تكون رفيقة عمره امرأة عفيفة، ذات قلب مستقيم، أعني ما هو الأشد ندرة والأكثر مدعاة للاحترام في العالم. عاش وهو

يكنُّ لوالدته الإجلال الذي يحيط بالأمهات في العائلات ذات النظام الأبوي، هذا التكريم المخصص للآلهة. تحوَّل كل هذا إلى زوجته مع تبديل ضئيل أوجبته العِشْرَة الزوجية. مضى يعيش في جهل مطلق للاحتيال والغش؛ في حالة من الاستقامة الراسخة والسعادة الهادئة، جعلت منه كائناً منفرداً. فهو لا يخدع أحداً، ولم يكن يشكك بأن أحداً يمكن أن يخدعه هو.

قبل فترة من زواجه، عمل كموظف صندوق لدى السيد «لانغليه» الذي قتله موكلي مؤخراً.

نعلم، أيها السادة المحلفون، من خلال شهادات السيدة «لانغليه» وأخيها السيد «بيرتوي»، شريك زوجها، وكل العائلة وجميع كبار الموظفين في هذا المصرف، أن «لوجير» كان موظفاً نموذجياً بأمانته واستقامته، وبطاعته ولطفه واحترامه لرؤسائه، وبدقته.

وفعلاً كان «لوجير» يُعامَلُ باحترام استحقه بسلوكه المثالي. وقد اعتاد هذا التكريم وهذا النوع من التقديس الذي أبداه نحو السيدة «لوجير» التي كان مديحها على كل لسان.

توفيت السيدة «لوجير» بحمَّى التيفوئيد خلال بضعة أيام.

من المؤكد أنه شعر بألمٍ عميق، لكنه ألمٌ بارد، وبهدوءِ قلبٍ منسَّقِ العواطف. شحوبه وتغير ملامحه كانا يفصحان عن مواجعه.

حينئذ أيها السادة، حدث أمر طبيعي.

هذا الرجل كان قد تزوج منذ عشر سنوات. ومنذ عشر سنوات اعتاد أن يشعر على الدوام بوجود امرأة بالقرب منه. اعتاد أن يحظى بعنايتها، وعلى صوتها المألوف حين يعود، وعلى تمنياتها له بليلة هانئة، وعلى تحية الصباح. اعتاد أيضاً على الحفيف الناعم، الغالي على النساء، لثوبها، وعلى مداعبتها الغرامية حيناً والأمومية حيناً آخر، والتي تخفف من أعباء الوجود، وعلى ذلك الحضور المحبوب الذي يجعل

الساعات تمر سراعاً. أدمن أيضاً على الدلال الحسي لما كانت تقدم له من طعام، وعلى اللفتات التي تزجى دون أن يمر ذكرها والتي تصبح على المدى من الضرورات التي لا يستغنى عنها. ما عاد يستطيع العيش وحيداً. فمن أجل أن يمضي أمسياته التي لا نهاية لها، طفق يذهب ليجلس ساعةً أو اثنتين في حانة مجاورة. كان يشرب كأساً من الجعة ويبقى هناك ساكناً، يتابع بعينيه الشاردتين كرات البلياردو تجري، الواحدة بعد الأخرى، تحت ضباب المدخنين، ويسمع دون تفكير، مشاحنات اللاعبين، ونقاشات جيرانه في السياسة، والضحكات التي كانت تثيرها بعض الفكاهات عند الطرف الآخر للقاعة. غالباً ما كان ينتهي به الأمر إلى النوم من فرط تعبه ومللـه. لكنه كان يحمل بين أضلعه وجسده حاجة لا تقاوم، لقلبٍ، ولجسدِ امرأة؛ ودون تفكير في ذلك، كان يقترب قليلاً كل مساء من طاولة المحاسبة، حيث كانت أمينة الصندوق، وهي فتاة شقراء صغيرة القد، تتبوأ ذلك المقام، فينجذب نحوها بقوة لا تُرَدُّ، فهي امرأة.

بعد فترة وجيزة أصبحا يتحدثان، فتملكته عادة، لذيذة بالنسبة له وهي أن يمضي كل سهراته إلى جانبها. كانت ناعمة وودودة كما هو مفترض أن تكون حين تعمل في مثل هذه المهنة، وكانت تتسلى في ملء كأسه مرات ومرات، حسب متطلبات عملها. لكن «لوجير» كان يزداد تعلقاً، يوماً بعد يوم، بتلك المرأة التي لم يكن يعرفها، لا بل كان يجهل حياتها، لكنه أحبها فقط لأنه لم يكن يرى غيرها امرأة.

كانت تلك المرأة الصغيرة ماكرة، إذ لاحظت بسرعة أنها قد تجني فائدةً من هذا الساذج فبحثت عن أفضل طريقة لاستغلاله. وكانت أذكاها بالتأكيد، أن يتزوجها.

ونجحت دون أية صعوبة.

هل عليَّ أن أخبركم، سادتي المحلفين، بأن سيرة تلك الفتاة كانت نافلة إلى أقصى حد، وأن الزواج لم يكبح شذوذها، بل على العكس، زادها سفاهة وانحلالاً؟

بدهائها الأنثوي، بدت وكأنها تتلذذ بخيانة هذا الرجل الشريف، مع كل موظفي مكتبه. أقول: مع الجميع. لدينا رسائل أيها السادة. نتج عن ذلك فضيحة مجلجلة، وحده الزوج، كما هو الحال دائماً، كان آخر من يعلم.

أخيراً، أوقعت تلك السافلة في حبائلها، لمنفعة يسهل فهمها، ابن رب العمل بذاته وهو شاب لم يتجاوز عامه التاسع عشر، وقد أحدثت على روحه وأحاسيسه تأثيراً يُرثى لحاله. كان السيد «لانغليه» قد أشاح بوجهه، بدافع طيبه وصداقته لذلك الموظف، عن تصرفات تلك المرأة. لكنه حين شاهد ابنه بين يدي، بل ذراعي ذلك المخلوق الخطير، شعر بغضب شديد مبرر ومشروع.

غير أنه ارتكب خطأ حين استدعى على الفور «لوجير» وكلمه، تحت تأثير سخطه الأبوي.

لم يبقَ لي أيها السادة، إلا أن أقرأ على مسامعكم عرضاً لوقائع الجريمة من فم المحتضر ذاته، دوَّنه المحقق.

«كنت قد علمت للتو أن ولدي، أعطى قبل يوم، عشرة آلاف فرنك لهذه المرأة، فتجاوز غضبي حدود العقل. صحيح، أنا ما شككت يوماً بكرامة وشرف «لوجير»، لكن بعض الضلال والتعامي، يصبح أشد خطراً من الزلل.

استدعيته وقلت له بأنني مضطر أن أحرم نفسي من خدماته.

بقي واقفاً أمامي، مشدوهاً غير قادر أن يفهم. أخيراً طلب مني تفسيراً بلهجة محتدة.

رفضتُ أن أقدم له أي تفسير، مؤكداً أن الأسباب خاصة. حينئذ اعتقد بأنني كنتُ أعزو ذلك لفظاظته أو خشونته. استحلفني، وهو ممتقع اللون، وأنذرني بأن أفصح. ولما تملكته تلك الفكرة، أحس بحقه بالكلام جهاراً.

وبما أنني لزمت الصمت شتمني وأهانني وقد وصل إلى درجة من الغيظ خشيت بعدها لجوءه للعنف.

وعند كلمة جارحة منه أصابتني في صميم قلبي، رشقته بالحقيقة أمام عينيه.

بقي واقفاً بضع ثوانٍ ينظر إليَّ بعينين تائهتين؛ ثم رأيته يأخذ من مكتبي مقصاً استخدمه في قرط بعض السجلات ليهاجمني بساعده المرفوع. فشعرت بشيء يخترق حلقي، عند قمة الصدر، دون أن أشعر بأي ألم»

هاكم يا سادتي المحلفين، عرضاً ووصفاً لهذه الجريمة. ماذا أقول للدفاع عنه؟ لقد احترم زوجته الثانية بلا تبصُّر، لأنه كان قد احترم الأولى بعقلانية.

بعد مداولة قصيرة أعلنت براءة المتهم.

١ تشرين الثاني ١٨٨٧

في الحقول

بالقرب من مدينة اشتهرت بحماماتها المعدنية، قام كوخان عند سفح رابية هناك. كان صاحبا الكوخين فلاحين يعملان بجد في أرض خصبة لإعالة صغارهما: أربعة لكل منهما. وأمام البابين كانت مجموعة الأطفال من العائلتين تعجُّ من الصباح حتى المساء. البكران بعمر ست سنوات والصغيران بحدود خمسة عشر شهراً؛ جرى الزواج ومن ثم الولادات بالتزامن تقريباً في كلا البيتين.

كانت الأمَّان تعرفان إنتاجهما بصعوبة حين يكون الأولاد معاً؛ أما الأبوان فكانا لا يميزان كلياً، إذ كانت الأسماء الثمانية تتراقص في رأسيهما وتختلط، وحين يُنادى واحدٌ كان الرجلان يذكران على الأقل ثلاثة أسماء قبل الوصول إلى الولد المطلوب.

أول منزل في اتجاه حمامات «رولبور» كان آل «توفاش» يشغلونه، ولهم ثلاث بنات وصبي؛ ويأوي إلى الكوخ الآخر آل «فالان» ولهم ثلاثة صبيان وابنة واحدة.

عاش الجميع بمشقة يقتاتون من الحساء والبطاطا والهواء الطلق. في السابعة صباحاً، وظهراً ثم في السادسة مساء كانت الوالدتان تجمعان الأطفال لإطعامهم، كما يجمع الرعاة الإوز. يجلس الأطفال في صفوف حسب الأعمار، أمام طاولة خشبية طلاؤها يعود إلى خمسين عاماً من الاستعمال. أما الولد الأصغر فإن فمه كان بمستوى ترس الطاولة، وعليها كان صحن الخبز اليابس المبلل بماء البطاطا المطبوخة، مع الملفوف وثلاث بصلات، فيأكلون حتى الشبع. أما الصغير فكانت أمه تطعمه بنفسها... نهار الأحد يضاف إلى ذلك قليل من اللحم يشعرهم بأنه عيد للجميع؛ في ذلك اليوم كان الوالد يتأخر بتناول طعامه وهو يعيد: «سيأتي زمن نأكل هذا كل يوم».

ذات يوم من شهر آب، توقفت فجأة عربة صغيرة، تقودها امرأة شابة، أمام الكوخين، فقالت لرجل جالس إلى جانبها:

«ألا انظر يا هنري هذا العدد من الأطفال! ما أجملهم هكذا يعجون في الغبار!».

لم يجب الرجل بشيء وقد اعتاد هذا الإعجاب الذي كان بمثابة ألمٍ أو ما يقارب التأنيب أو الملامة بالنسبة إليه.

استأنفت المرأة قائلة:

«يجب أن أقبلهم! نعم! كم أتوق ليكون لدي واحد... هذا الصغير».

قفزت من العربة وجرت نحو الأولاد؛ أخذت واحداً من الأصغرين، ابن «توفاش» ورفعته بين ذراعيها وقبلته بعاطفة على خديه الوسخين وشعره الأشقر المجدول المشبع بالتراب ويديه الصغيرتين اللتين كان يهزهما ليتخلص من تلك المداعبات المضجرة.

ثم ركبت عربتها وغادرت بسرعة. غير أنها عادت في الأسبوع التالي، وجلست على الأرض وأخذت الطفل بين يديها وحشت فمه بالحلوى ووزعت السكاكر على الآخرين؛ ثم لعبت معهم مثل طفلة، بينما كان زوجها ينتظر بصبر في عربته الخفيفة.

رجعت مرة أخرى وتعرفت إلى الأهل، وعادت للظهور ثانية كل يوم وجيوبها ملأى بالحلوى والنقود.

كان اسمها السيدة «هنري روبيير».

ذات صباح، حين وصلت، نزل زوجها معها، ودون أن تتوقف عند الأطفال، الذين أصبحوا يعرفونها، دخلت بيت الفلاحين.

كانا هناك يقطعان الحطب لطهو الحساء؛ انتصبا في وقفتهما من المفاجأة وقدما الكراسي وانتظرا. حينئذ تكلمت المرأة الشابة بصوت متقطع راجف وقالت:

«أيها الطيبون، جئت إليكم لأنني أود من قلبي... أود أن أصطحب معي ولدَ... ولدَكم الصغير...».

لم يجب الريفيان وقد ذهلا وتوقفا عن التفكير.

أخذت نفساً عميقاً ثم تابعت.

«لم نرزق بأولاد، ونحن وحيدان، زوجي وأنا... سنرعاه ونصونه... أتوافقان؟».

بدأت القروية تفهم الوضع فسألت:

«تريدان أخذ شارلو منا؟ لا، بالتأكيد».

حينئذ تدخل السيد «دوبيير» قائلاً:

«لقد أساءت زوجتي التعبير. نريد أن نتبناه، لكنه سيعود لزيارتكم.فإن أحسن التصرف، كما نعتقد أنه سيفعل سيكون وريثاً لنا. وإذا صدف أن رزقنا بأولاد، سيتقاسم معهم الإرث. لكن إن لم يتجاوب مع اهتمامنا، سنعطيه حين يبلغ سن الرشد مبلغاً وقدره عشرون ألف فرنك وسيسجل هذا المبلغ فوراً لدى الكاتب بالعدل. وبما أننا فكرنا بكما أيضاً، سنقدم لكما، حتى نهاية أيامكما، دخلاً قيمته مئة فرنك شهرياً.. هل فهمتما قصدنا؟».

نهضت القروية وردَّت غاضبة:

«تريدان أن نبيعكما شارلو، لا... هذه الأشياء لا تطلب من أم أبداً! لا، لا! هذا منتهى الفظاعة».

صمت رجلها متهيباً ليفكر؛ وكان يوافق معها بإيماءة مديدة من رأسه.

بكت السيدة «دوبيير» واضطربت، ثم استدارت نحو زوجها وقالت بصوت تخنقه العبرات، أشبه بصوت طفلة مدللة تلبى عادة جميع طلباتها.

«يا هنري، إنهم لا يريدون.. لا يريدون..».

قاما ثانية بمحاولة أخيرة:

«ولكن يا أصدقائي، فكِّروا بمستقبل ولدكم وسعادته، بـ...».

قاطعته القروية وقد عيل صبرها:

«سمعنا وعرفنا وفكرنا في كل شيء... هيا ارحلا... إياكما والعودة إلى هنا. هل من المباح انتزاع طفل هكذا!».

انتبهت السيدة «دوبيبر» وهي تهم بالخروج أنه كان هناك صغيران، فسألت وهي دامعة العينين، بصلابة امرأة مغناج وعنيدة ترفض الانتظار:

«والصغير الآخر، أليس من أولادك؟».

أجاب الوالد «توفاش»:

«لا، إنه ابن الجيران؛ تستطيعان الذهاب إليهم إن رغبتما».

ودخل إلى بيته حيث كان صوت زوجته ما يزال يلعلع غاضباً.

كان آل «فالان» جالسين حول المائدة يأكلان ببطءٍ شرائح الخبز، يمررون عليها بتقتير قليلاً من الزبدة الموضوعة في صحن كان بينهما.

بدأ السيد «دوبيير» يدلي باقتراحاته، ولكن بتلميحات أكثر، وبحرصٍ وتحايلٍ خطابي أكبر.

بدأ القرويان يهزان برأسيهما دلالة على الرفض، ولكن حين علما بأن مئة فرنك تنتظرهما كل شهر، تكلما بالعيون وقد تخلخل تفكيرهما.

صمتا طويلاً؛ ترددا كثيراً وتعذبا. أخيراً سألت المرأة:

«ما رأيك يا زوجي؟».

أجابها بوقار:

«أقول إن ذلك ليس بهذا السوء».

حينذاك، توجهت إليهم السيدة «دوبيير»، التي كانت ترتجف من الغم، بكلام حول مستقبل الصغير، وسعادته وكل الأموال التي سيعطيهما فيما بعد.

سألها الفلاح:

«المئة فرنك هذه، هل تعدينني بها أمام الكاتب بالعدل؟».

أجاب السيد «دوبيير»:

«بالتأكيد، اعتباراً من الغد».

أما القروية التي كانت ما تزال تفكر، فقد قالت:

«مئة فرنك شهرياً، هذا لا يكفي مقابل حرماننا من الصغير، لأنه خلال بضع سنين سيكون قادراً على العمل، يلزمنا مئة وعشرون».

وافقت السيدة «دوبيير» وهي تضرب الأرض بقدمها بنفاذ صبر، وحين أخذت الطفل أعطت والديه مئة فرنك كهدية، بينما كان زوجها يكتب. واستدعي العمدة وأحد الجيران كشاهدين.

وانفرجت أسارير المرأة الشابة وحملت الطفل، الذي كان يصيح بأعلى صوته، كما تحمل التحف أو الأواني المزخرفة من المخازن.

آل «توفاش» كانا واقفين عند الباب يراقبان ذهابهم واجمين عابسين، مع شيء من الندم شعرا به لرفضهما ذلك العرض.

* * *

لم يسمع أحد شيئاً عن «جان فالان» الصغير. أما أهله فكانوا يذهبون كل شهر لقبض مئة وعشرين فرنكاً لدى الكاتب بالعدل؛ كانوا قد تعادوا مع الجيران لأن زوجة «توفاش» كانت ترهقهم بذكر فضيحتهم، مرددة من بيت إلى آخر، أن آل «فالان» فقدوا إنسانيتهم حين باعوا ولدهم وأن ذلك كان بمثابة نذالة وفظاعة وخسة.

كانت تمسك «شارلو» بين ذراعيها متباهية وتصيح به وكأنه يفهم:

«أنا لم أبعكَ، لم أبعكَ يا صِغيري. أنا، أنا لا أبيع أولادي. لست بالغنية، لكنني لا أبيع أولادي».

وعلى مدى سنين وسنين كان المشهد يتكرر كل يوم، وكل يوم كانت التلميحات تتوالى بشكل فظ أمام الباب بحيث تصل إلى بيت الجيران. وانتهى الأمر بزوجة «توفاش» أن تحسب نفسها أرفع منزلة من كل أهل المقاطعة لأنها لم تبع «شارلو». والذين يذكرونها كانوا يقولون:

«نعلم تماماً أن ذلك كان مغرياً، مع ذلك فقد تصرفت كأم صالحة».

ضُرِبَ بها المثل، أما «شارلو» الذي بلغ عامه الثامن عشر، فقد تربّى مع تلك الفكرة التي رُدّدتْ على مسامعه بلا هوادة، فكان يعتبر نفسه أعلى مرتبة من رفاقه لأن الأهل لم يبيعوه.

عاش آل «فالان» في بحبوحة بفضل تلك النفقة؛ وثورة آل «توفاش» الذين ظلت حالتهم بائسة، كان مردها تلك البحبوحة.

ذهب ابنهم البكر لأداء خدمته الإلزامية، وتوفي الثاني. وبقي «شارلو» يكد ويتعب مع والده لتأمين عيش الوالدة وأختين أصغر منه سناً.

بلغ واحداً وعشرين عاماً؛ وفي أحد الأيام توقفت عربة حديثة تلمع، أمام الكوخين، فنزل منها شاب بيده ساعة ذهبية، وبيد أخرى أمسك بذراع سيدة مسنة قد ابيّض شعرها، فقالت له العجوز:

«هناك يا بني، في البيت الثاني».

دخل كما يدخل إلى بيته، كوخ «فالان».

أمه العجوز كانت تغسل مآزرها، وأبوه العاجز غافٍ أمام الموقد. رفع كل منهما رأسه. فقال الشاب:

«صباح الخير يا أبي. صباح الخير يا أمي».

انتصبا مذعورين. وأوقعت العجوز الصابون في الماء لانفعالها وتمتمت:

«هذا أنت يا ابني؟ أهذا أنت؟».

أحاطها بذراعيه وقبلها مردداً: «صباحك سعيد يا أمي» بينما كان الشيخ يرتجف ويقول بصوته الهادئ الذي لم يفقده يوماً: «ها إنك عدت يا جان؟» كما لو كان قد شاهده منذ شهر.

حين عرف بعضهم بعضاً، أراد الأهل إخراج ابنهما ليراه أهل البلد. أخذوه إلى العمدة ومعاونه وإلى الكاهن ثم إلى معلم المدرسة.

كان «شارلو» واقفاً أمام الكوخ يشاهده حين مر.

عند المساء قال لأبيه وهم يتناولون وجبة العشاء:

«هل كان من الضروري أن تكونا أحمقين وتدعاهم يأخذان صغير آل «فالان»؟».

أجابته أمه بعناد:

«لم نرضَ أن نبيع ولدنا».

أما أبوه فقد بقي صامتاً، فتابع الابن قائلاً:

«أليس من التعاسة أن يُضحّى بي هكذا؟»

حينئذ أجابه والده بغضب:

«هل ستلقي علينا اللوم لأننا احتفظنا بك؟»

فقال الشاب بفظاظة:

«نعم إني ألومكما، فأنتما والعدم شيء واحد. فالأهل الذين على شاكلتكم، هم سبب تعاسة الأبناء، وتستحقان أن أرحل عنكما».

بكت تلك المرأة الطيبة فوق صحنها، وسمع أنينها وهي تبتلع الحساء ملعقة بعد أخرى، وقد أراقت نصفه على الطاولة:

«هيا اقتل نفسك لكي تربي أولاداً!»

فقال الشاب بغضب:

«كنتُ أفضل لو أنني ما ولدت من أن أكون ما أنا عليه. حين شاهدت (الآخر) منذ قليل دارت بي الدنيا وقلت في نفسي:

- هذا ما كان مقدراً لي أن أكونه الآن».

ثم نهض وقال:

«حسناً! أشعر بأنه من الأفضل ألا أبقى هنا، لأنني سأظل ألومكما على فعلتكما من الصباح حتى المساء وأنني سأنغّص عليكما الحياة، ولن أغفر لكما أبداً هذا التصرف...».

صمت الوالدان العجوزان وقد أصيبا بالذهول، واغرورقت أعينهما:

تابع قائلاً:

«لا! ستكون تلك الفكرة من القساوة بمكان. يحسن بي الذهاب والبحث عن العيش في مكان آخر».

فتح الباب، فجاءت أصوات الجيران المحتفلين بعودة ولدهم.

ضرب «شارلو» الأرض بقدمه والتفت نحو أهله وصاح:

«أيها الأجلاف!».

واختفى عن أعينهم في الليل البهيم.

* * *

في فصل الربيع

حين تطل الأيام الجميلة، وتستيقظ الأرض وتخضّر، ويداعب الهواء الندي المعطَّر بشرتنا، ويدخل إلى رئتينا وكأنه يتسرب نحو القلب بذاته، تنتابنا رغبات غامضة من السعادة لا حدَّ لها، ومَيْلٌ إلى الركض، والسير بلا هدف، والبحث عن مغامرة، فيسكرنا الربيع.

بما أن فصل الشتاء الماضي كان قاسياً، فإن الرغبة في ما يشرح القلب كانت، خلال شهر أيار، تجتاحني كالسُّكْر والنشوة مندفعة كالنسغ الزاخر.

صباح أحد الأيام استيقظت لأشاهد عبر نافذتي، فوق المنازل المجاورة، السماء الزرقاء، تلهبها الشمس، والعصافير على النوافذ تصدح، وصوت الخادمات يرتفع عبر كل الطوابق؛ وضوضاء مرحة ترتفع من الشارع؛ فخرجت وروحي في عيد، لأذهب حيث لا أدري.

الناس الذين التقيت بهم كانوا يبتسمون؛ نفحة من السعادة كانت تهيم في كل مكان يغزوه نور الربيع العائد والدفء يملؤه، فتكاد تحس بأن هناك رعشة حبٍ تغمر الكون؛ والشابات من النسوة كن في ثياب وهندام الصباح، يحملن في عيونهن حناناً، ونعومة في مشيتهن، فيملأن قلبي بالاضطراب.

دون أن أعرف كيف ولماذا، وصلت إلى ضفة نهر «السين». مراكب بخارية كانت في طريقها إلى «سوريسن» تملكتني فجأة رغبة لأن أجري عبر الغابة.

سطح قارب النزهة كان يعج بالركاب، لأن أول شمس ربيعية تجذبك رغماً عنك من دارك، الكل يتحرك، يغدو ويعود، ويحادث الجيران.

بجواري وقفت عاملة على ما أعتقد، وهي جارة شابة لها جمال الباريسيات، لطيفة المظهر، ذات شعر أشقر مجعد عند فوديها وينحدر حتى أذنيها وقذالها ويطير

مع النسمات، ثم يصبح في المنحدر كالزغب الناعم الخفيف ويزداد شقرة حتى يكاد لا يرى فتحس برغبة لا تقاوم لأن تطبع عليه قبلات لا تحصى.

تحت تأثير نظراتي الملحة، أدارت رأسها نحوي، ثم خفضت فجأةً بصرها، بينما كادت تولد ابتسامة حركت زاوية فمها وظهر بوضوح ذلك الزغب الحريري وقد أضفى نور الشمس عليه لوناً ذهبياً.

شيئاً فشيئاً كان عرض النهر يزداد، والهدوء يملأ الجو وهمس الحياة بدا وكأنه يملأ الفضاء. رفعت جارتي بصرها. هذه المرة نظرتُ إليها ملياً فابتسمت. كانت رائعةً، وفي نظراتها الهاربة رأيت آلاف الأشياء لم أكن قد رأيتها من قبل. شاهدت أعماقاً غير معروفة، كل سحر الحنان، وكل الأشعار التي نحلم بها وكل السعادة التي نبحث عنها. تملكتني رغبة مجنونة لأن أفتح ذراعيَّ وأحملها إلى مكان ما، لأهمس في أذنها عذوبة موسيقى كلمات الحب.

كنت على وشك أن أفتح فمي لأكلمها، حين لمسَ أحدهم كتفي. استدرت متفاجئاً فلمحت رجلاً ذا مظهر عادي، لا هو بالشاب ولا هو بالمسن، ينظر إليَّ نظرة حزينة.

قال: «أود أن أحدثّك».

عبست، وأعتقد أنه لاحظ ذلك، لأنه أضاف: «الأمر هام».

نهضت وتبعته إلى نهاية القارب، فتابع قائلاً: «حين يدنو الشتاء ببرده وثلجه وأمطاره، يقول لك الطبيب كل يوم: أبقِ قدميك في الدفء، واحذر البرد والزكام والتهاب القصبات وذات الجنب. حينها تتخذ ألف احتياط فترتدي قمصان الفانيلا ومعطفاً سميكاً وتنتعل حذاءً غليظاً، لكن هذا لن يحميك من ملازمة السرير مدة شهرين. وحين يعود الربيع بأوراقه الخضراء وزهره ونسماته الدافئة الملطفة وعبير حقوله المتصاعد فيحمل معها إليك هذه الاضطرابات الغامضة واللواعج، وأنتَ لن تجد أي شخص يقول لك: خذ حذرك من الحب أيها السيد! فهو يتربص في كل مكان؛ يكمن لك في كل زاوية؛ فكل أحابيله قد نصبها، وأسلحته قد شحذت، استعد بمكره! احذر الحب!... احذر الحب! فهو أشد خطراً من الزكام أو التهاب القصبات أو ذات الرئة! وهو لا يغفر، ويجعل كل الناس يرتكبون أخطاء غير قابلة للإصلاح... نعم يا سيدي، أقول إنه في كل عام يجب على الحكومة أن تضع

إعلانـات عـلى الجـدران، وعليهـا هـذه الكلـمات: «*عـودة الربيـع... أيهـا المواطنـون الفرنسيون، احذروا الحب*»؛ مثلما يكتب على أبواب البيوت: احذروا الطلاء. - حسناً، بما أن الحكومة لا تفعل ذلك فأنا، نيابة عنها، أقول لك: «احذر الحـب؛ فهـو يقنـصك، وواجبي أن أحذرّك، كما يحذرون في روسيا أحد المارَّة وقد تجمّد أنفه».

وقفت مندهشاً أمام هذا الشخص الغريب؛ فقلت له وقد قلبت سحنتي: «يـا سيد يبدو كأنك تتدخل بشأن لا يعنيك البتة».

قام بحركة فجائية وأجابني: «يـا سـيدي! إذا لاحظـتُ أن رجـلاً سـيغرق في مكان خطر. هل يجب عليَّ أن أدعه يهلك؟ تفضل وأصغِ إلى قصتي وستفهم سبب جرأتي في التحدث إليك بهذه الطريقة».

***

حدث هذا في العام الماضي وفي نفس الفترة. عليَّ أن أخبرك أولاً، يـا سـيدي، بأنني موظف في وزارة البحرية، حيث الرؤساء والمفوضون يأخذون على محمل الجد شارات مراكزهم كموظفين بيروقراطيين ليعاملونا كبحارة - آه! ليت كـل الرؤسـاء كانوا مدنيين - لكن دعنا من ذلك. كنت أرى من مكتبي طرفـاً مـن الـسماء، بزرقـة البحر، حيث تطير طيور السنونو، وكنت أود لو أرقص بين تلك العلـب الكرتونيـة السوداء التي من حولي.

تَوْقي إلى الحرية كان ينمو بحيث أنني بالرغم من نفوري ذهبت لأقابل رئيسي الكريه، وهو رجل صغير الحجم شرس الأخـلاق دائـم الغـضب. قلـت لـه بـأنني مريض... نظر إليَّ وصاح: «لا أصدق شيئاً مما قلت يا سيد، هيـا اغـرب عنـي! هـل تعتقد بأن مكتباً يمكنه العمل بموظفين على شاكلتك؟».

لكنني تسللت وذهبت إلى «الـسين»، وكـان الطقـس كـما هـو اليـوم. ركبـت الزورق لأقوم بجولة في «سان كلو».

آه يا سيدي: ليت رئيسي شدّد عليَّ الخناق ومنعني من الخروج.

بدا لي أنني أتمدد بفعل حرارة الـشمس. أحببـت كـل شيء، الـزورق والنهـر والأشجار والمنازل ومن جاورني، وكل شيء. أخذتني رغبة لأن أقبِّل شيئاً ما. كائنـاً ما كان: كان الحب يهيئ فخاخه.

فجأة، عند «تروكاديرو»، صعدت فتاة وبيدها علبة، وجلست قبالتي.

كانت جميلة؛ نعم يا سيدي؛ ولكن من المذهل كيف تبدو النساء أفضل حين يكون الطقس جميلاً في أوائل الربيع: لديهن خمر يسكر وسحر، وشيء خاص بهن لا أعرف كنهه. إنه بالضبط كالخمرة التي نشربها بعد تناول الأجبان.

التفتُّ إليها فحدجتني بنظرها - ولكن من وقت لآخر، كما فعلت صاحبتك قبل قليل. أخيراً بعد نظرات متبادلة طويلة، بدا لي وكأن أحدنا يعرف الآخر كي نستهل حديثاً، فتحدثت إليها، وأجابت. كانت بالطبع لطيفة. أسكرتني يا سيدي العزيز.

نزلَتْ في «سان كلو» فتبعتها. كانت ذاهبة لتسليم طلب. حين عادت كان القارب قد غادر. مشيت بالقرب منها. وكانت رقة الهواء تنتزع منا التنهدات... قلت لها:

«يقال إن الطقس ممتع في الغابة»، فأجابتني:

«نعم، هو كما ذكرت»..

- ما رأيك أن نقوم بجولة، يا آنستي؟

راقبتني من رأسي حتى قدمي بنظرة منها كي تقدر بشكل صحيح قيمتي، ثم بعد تردد دام قليلاً، وافقت. سرنا جنباً إلى جنب بين الأشجار. كانت أوراق الشجر، والأعشاب النامية المخضرة، كأنها ملمعة، تغمرها أشعة الشمس التي تحرك مشاعر الكائنات. من كل حدب وصوب كنا نسمع شدو العصافير. أخذت مرافقتي تجري وتقفز وقد ثملت من الهواء الطلق ودفق عطر الطبيعة. أما أنا فكنت أجري خلفها وأقفز مثلها. ألسنا أغبياء أحياناً يا سيدي؟.

ثم بدأت تغني، وتغني، ألحاناً من الأوبرا والرقصات الرعوية التي أعجبتني كثيراً وأحسست بشاعريتها... حينها!.. كدت أبكي.. كل هذا الهراء يدير رؤوسنا؛ لا تتخذ أبداً امرأة تغني في الأرياف، وبخاصة إن غنت ألحان رقصات رعوية.

أحسَّت بعد فترة بالتعب فجلست على منحدر أخضر. أما أنا فجلست عند قدميها وأمسكت بيديها المتأثرتين بإبر الخياطة، وهذا بدوره ما أثَّر بي. حدثت نفسي قائلا: «ها هي ذي علامات العمل المقدسة». آه يا سيدي، هل تعلم ماذا تعني هذه العلامات؟ إنها تعني كل ثرثرة المشغل، والبذاءات المهموسة والروح التي دنستها

كل الأوساخ التي تُحكى، والعفاف المفقود وكل حماقات الثرثرة، وكل بؤس العادات اليومية ومجمل الأفكار الضيقة لدى نساء العوام، وهذه العلامات تبدو واضحة لدى تلك المرأة التي تحمل في أصابعها علامات العمل المقدسة.

ثم حدَّق كل منّا بالآخر طويلاً.

يا لعيون المرأة كم تمتلك من قوة؛ كيف تجعلك تضطرب، ثم تجتاحك وتمتلكك وتسيطر عليك! كم تبدو عميقة الغور، ملأى بالوعود، باللانهاية! نسمي ذلك نظرة متبادلة داخل الروح! آه يا سيدي؛ يا له من مزاح! فلو أنعمنا النظر في تلك الروح لصرنا أكثر تعقلاً.

الحاصل هو أنني كنت متحمساً، مجنوناً. حاولت أخذها بين ذراعيَّ فقالت لي: «أبعد حافريك!».

ركعت قربها وفتحت قلبي؛ سكبت على ركبتيها كل الحنان الذي كان يخنقني. بدت وكأنها متعجبة من تغير مسلكي، وحدجتني بنظرة جانبية وكأنها تقول: هكذا إذن تُسْتَغَلُّ أيها الطيب؛ حسناً! سنرى.

يا سيدي، في الحب كلنا سُذَّج، أما النساء فهنَّ من صنف التجار.

كان بمقدوري أن أمتلكها بلا شك؛ وفهمت حماقتي فيما بعد، لكن ما كنت أبحث عنه، أنا، لم يكن جسداً، بل الحنان والكمال. قدَّمتُ إحساساً حين كان عليَّ أن أُحْسِنَ استخدام وقتي.

ما إن شَبِعَتْ من بوحي، نهضت وعدنا إلى «سان كلو»، ولم أتركها إلا في باريس. بدت حزينة منذ عودتنا فسألتها عن السبب، أجابتني: «أعتقد أننا حيال أيام لا تمر بنا كثيراً في حياتنا». فكاد قلبي يخرج من أضلاعي.

رأيتها ثانية يوم الأحد التالي والأحد الذي تلاه وكل أيام الآحاد. صحبتها إلى «بوجيفال»، و«سان جرمان» و«ميزون لافيت» و«بواسي» إلى كل الأمكنة حيث يجتمع الأحبة القادمون من الضواحي.

بدورها، كانت اللعينة الصغيرة تستغل شغفي.

أخيراً فقدت الرشد وتزوجنا بعد ثلاثة أشهر.

ما العمل يا سيدي! أنا موظف أعيش وحيداً بلا عائلة ولا من يسدي لي النصح! نعتقد بأن الحياة تطيب بصحبة امرأة! ثم نتزوج هذه المرأة! بعدها تنهال عليك بالإهانات صباح مساء، لا تفهم ولا تعرف شيئاً، تهذر وتثرثر بلا توقف، تغني بأعلى صوتها أغنية الرقص الرعوي، تقاتل بائع الفحم، وتحكي لبواب البناء مواضيع حميمية تخص بيتها، وتُسِرُّ لخادمة الجيران بكل ما يكتم عن مخدعها الزوجي، وتذم زوجها لدى الباعة، ورأسها محشو بقصص سخيفة ومعتقدات غبية وآراء سمجة وأفكار مسبقة رهيبة حتى إنني أبكي من الإحباط كلما حاولت محادثتها، يا سيدي.

سكت وقد أنهكه التعب والانفعال. نظرت إليه وقد أشفقت على هذا المنكود الحظ الساذج، وكنت على وشك أن أجيبه بشيء ما، حين توقف المركب في «سان كلو».

نهضت المرأة التي كانت قد تسببت باضطرابي، لتنزل. مرت بالقرب مني وهي ترمقني بطرف عينها مع ابتسامة خاطفة، ابتسامة تبعث فينا الجنون، ثم قفزت من على الجسر.

أسرعت لألحق بها، لكن جاري أمسك بي. تخلصت منه بحركة مفاجئة لكنه أمسك بقبضة يده هُدْبَ سترتي وشدني إلى الخلف وهو يكرر بصوت عالٍ: «لن تذهب! لن تذهب!» حتى استدار الجميع ليعرفوا ما يحدث.

ساد الضحك والهرج حولنا، وبقيت بلا حراك، غاضباً ولكن مجرداً من أي جرأة إزاء هذه التفاهة والفضيحة.

وانطلق المركب.

بقيت المرأة على الجسر تنظر إليَّ وأنا أبتعد وعلى وجهها إمارات الخيبة، بينما كان معذبي يهمس في أذني وهو يفرك يديه: «لقد أسديت لك اليوم خدمة ما بعدها خدمة، هيا».

٩ تشرين الأول ١٨٨١

بواتيـل

إلى روبير بانشون

اختص المعلم «بواتيل» بالأشغال القذرة. في كل أنحاء منطقته. فكلـما احتـاج الأمر لتنظيف بئر مرحاض أو مزبلة أو مجارٍ أو نتح مزراب أو غـير ذلـك ممـا شـابه، كان يستدعى هو بالذات.

يأتي مع عدة الشغل وحذائـه الملـوث بالأقـذار ويبـاشر عملـه. بعـد أن يـئن ويتأفف من مهنته. وحين كان الناس يسألونه عن سبب اتخـاذه هـذه المهنـة المقرفـة، كان يجيب باستسلام:

«والله من أجل أولادي الذين عليّ إطعامهم. فعملي هذا أكثر جدوى من غيره».

كان له بالفعل أربعة عشر ولداً، وإن سُئل عما صاروا إليه، كان يقول بلا اهتمام:

«لم يبقَ إلا ثمانية في البيت هناك، وجندي، وخمسة متزوجين».

وحين كان سائله يريد معرفة حالهم بعد الزواج، كان يردد بحماس:

«أنا لم أعارضهم. لم أعارضهم بشيء. لقـد تزوجـوا حـسبما رغبـوا. يجـب ألا نعترض على الأذواق فعاقبة ذلك وخيمة. إن كنـتُ منظفـاً للقـاذورات، ذلـك لأن أهلي عارضوا رغباتي، وإلا لأصبحت عاملاً كغيري».

إليكم ما اعترض عليه أهله.

كان خينها جندياً يقضي وقته في «الهافر»(*)، ولم يكن أكثـر حمقـاً مـن غـيره ولا أكثر حذقاً، وفيه القليل من السذاجة. خلال ساعات فراغه، كانت متعته الكبرى أن

(*) الهافر Le Havre: ميناء بحري هام غرب فرنسا يقع على مصب نهر السين.

يتمشى على رصيف الميناء حيث يجتمع بائعو الطيور. وحده أحياناً وأخرى مع أحد سكان المدينة، كان يمشي متمهلاً أمام أقفاص الببغاوات ذات الظهر الرمادي والرأس الأحمر الآتية من السنغال، وأخرى ذات الظهر الأخضر والرأس الأصفر، من الأمازون، ونوع آخر ضخم يبدو كالطيور التي تربى في أماكن خاصة، ولها ريش مزهر فتبدو ملونة بعناية كبيرة؛ إلى جانب عصافير صغيرة الحجم لا تهدأ بألوانها الحمراء والزرقاء والصفراء المبرقشة، ويمتزج صراخها مع ضجيج الرصيف حين تُفَرَّغُ السفن، وجلبة المارة والعربات مع ضوضاء حادة تصم الآذان.

كان «بواتيل» يتوقف وعيناه مفتوحتان وفي فمه ضحكة تنم عن سروره، وعن أسنانه، أمام الببغاوات السجينة التي كانت تحيي برؤوسها البيضاء أو الصفراء لون بنطاله الأحمر ونحاس زناره. حين كان يلتقي بطير يحكي، كان يطرح عليه أسئلة؛ وحين يكون مزاج الطير جيداً في ذلك اليوم، للإجابة والمحادثة، كان «بواتيل» يخزن المرح والسرور حتى المساء. أما حين يرى السعادين، فكانت السعادة تغمره، ولم يكن يتخيل بذخاً أو ترفاً، بالنسبة لإنسان غني، أكثر من أن يمتلك حيوانات كتلك مثلما يمتلك قططاً وكلاباً. هذا الميل لما هو غريب كان يجري في دمه، كما هو الميل للصيد أو للطب أو للكهنوت. لم يستطع كبح جماح رغبته، حين تفتح أبواب الثكنة، بالعودة إلى رصيف الميناء بقدر ما تشدّه رغبة أخرى.

في إحدى المرات، وقد وقف مشدوهاً أمام طير عملاق يفرد ريشه، وينحني ثم ينتصب وكأنه يؤدي تحية بَلاط في بلاد الببغاوات؛ رأى باب مقهى متصل بحانوت بائع الطيور يفتح وتخرج منه زنجية شابة، ربطت رأسها بشال أحمر، تكنس باتجاه الشارع، سدادات الزجاجات والرمل من أمام المقهى.

انتباه «بواتيل» انقسم إلى شطرين: بين الطير والمرأة، ولم يستطع يوماً أن يقرر أيهما تفرس فيه بدهشة ومتعة أكبر.

رفعت الزنجية بصرها، بعد أن أبعدت الأوساخ عن المقهى، وظلت بدورها مندهشة أمام بزة الجندي. بقيت واقفة بمواجهته ومكنستها بيدها كما لو أنها تقدم له

السلاح، بينما راح الطير يتابع انحناءاته. بعد لحظات أحس صاحبنا بالضيق من هذا الاهتمام، فانسحب بخطى بطيئة كي لا يبدو بمظهر المتقهقر.

لكنه عاد. كل يوم تقريباً، كان يمر من أمام المقهى، وغالباً ما كان يلاحظ عبر الزجاج، الخادمة الصغيرة ذات البشرة السوداء وهي تقدم كؤوس الجعة أو العرق لبحاري المرفأ. وغالباً ما كانت تخرج حين تراه؛ بعد فترة ودون أن يتحادثا، كان يبتسم أحدهما للآخر ابتسامة من يعرفه؛ وكان «بواتيل» يحس بقلبه يتحرك، حين يرى فجأة، بين سمرة شفتي الفتاة بريق أسنانها اللامعة. في أحد الأيام دخل، ودهش تماماً حين رأى أنها تتكلم لغته كغيرها من الناس. زجاجة عصير الليمون التي قبلت أن تشرب منها كوباً، بقي لها في ذهن الجندي ذكرى حلوة وطيبة؛ بعدها صارت لديه عادة أن يأتي ويشرب في ذلك المقهى الصغير، كل المشروبات اللذيذة التي كانت تسمح بها نقوده.

كان ذلك بالنسبة له عيداً وسعادة أخذت كل تفكيره وبخاصة حين يرى يد الخادمة السوداء وهي تصب شيئاً ما في كأسه، بينما كانت أسنانها تضحك بألق أكثر من عينيها. بعد ارتياد امتد لشهرين صارا من أعزّ الأصدقاء، وبعد دهشة «بواتيل» الأولى حين عرف بأن أفكار تلك الزنجية كانت متطابقة مع الأفكار الجيدة لبنات بلاده، أي أنها كانت تحترم التوفير والاقتصاد والعمل والدِّين والسلوك، ازداد حبه لها وعَشِقَها إلى درجة أنه أراد أن يتزوجها.

أخبرها بهذا المشروع الذي جعلها ترقص فرحاً؛ وكانت تملك بعض المال تركته لها بائعة محار كانت قد آوتها حين وضعها على رصيف ميناء «الهافر»، قبطان أميركي كان قد وجدها حين كانت بعمر ست سنوات، مكورّة على بالة قطن في مستودع سفينته، بعد بضع ساعات من مغادرته «نيويورك». وحين وصوله إلى «الهافر»، ترك ذلك الكائن الأسود، تحت رعاية بائعة المحار هذه وقد أخذته الشفقة عليها حين كانت مختبئة في سفينته، وهو لم يكن يعلم من تركها هناك وكيف... لما ماتت بائعة المحار، عملت الزنجيةِ كخادمة في مقهى «المستعمرات».

أضاف «انطوان بواتيل» قائلاً لفتاته:

«هذا المشروع يمكن تنفيذه إن لم يعارضه الأهل. فأنا لا أعاندهم أبداً، أتسمعين، أبداً! سوف أخبرهم ببضع كلمات في أول زيارة لهم».

بالفعل، في الأسبوع التالي، حصل على إذن أربع وعشرين ساعة، فتوجه إلى أهله وكانوا يزرعون أرضاً في «تورتفيل» قرب «ايفتو».

انتظر حتى نهاية وجبة الطعام، ساعة القهوة المعطرة بالعرق حين تنفتح القلوب، لإعلام والديه بأنه وجد فتاة تتوافق مع كل ميوله، وأنه لا يمكن أن تكون في هذه الدنيا فتاة أخرى تناسبه بهذا القدر.

عند هذه الكلمات، بدأ الشك يلعب بوالديه وطلبا منه تفاصيل أوسع. وهو في كل الأحوال لم يُخْفِ عنهما شيئاً إلا لون سحنتها.

قال إنها خادمة ولا تملك الكثير، لكنها شجاعة ومقتصدة، طاهرة الذيل وذات رأي سديد. كل هذه الأشياء كانت أفضل من مالٍ بين يدي ربة بيت سيئة. كانت تملك بعض المال، تركته لها سيدة كانت قد ربتها، مع بضع قطع كبيرة من النقود أي ما يساوي شبه بائنة صغيرة، وهي ألف وخمسمائة فرنك في صندوق التوفير. خضع العجوزان لهذا الكلام، وهما بالأصل واثقان بحصافته واستسلما شيئاً فشيئاً.

حين وصل إلى النقطة الحاسمة. قال لهما وهو يضحك ضحكة مكرهة:

«هناك شيء واحد يمكنه أن يزعجكما. ليس فيها جزء أبيض».

لم يفهما واضطر أن يشرح لهما شرحاً طويلاً وبحذر شديد، كي لا ينفِّرَهُما، وأنها تنتمي للعرق الداكن الذي لم يروا نماذج منه إلا على صور «إيبينال»(*).

بدأا يشعران بالقلق والحيرة والخوف وكأنه سيتزوج الشيطان.

قالت الأم: «سوداء؟ كم هو سوادها؟ هل يملأ كل أجزاء جسمها؟».

(*) إيبينال Epinal: مدينة فرنسية، تدين بشهرتها إلى مجموعة صور شعبية خاصة بها ذاعت شهرتها في كل أنحاء فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر.

أجاب: «بالتأكيد: في كل أجزائها كما البياض فيك كامل».

قال الوالد: «سوداء؟ هل هي بسواد القِدْر المعدنية؟».

أجاب الابن: «أقل بقليل! إنها سوداء لكنها ليست سوداء حتى القرف. ثوب أبينا كاهن الرعية أسود مع ذلك فهو ليس أكثر بشاعة من كتوّنته البيضاء».

قال الوالد: «هل هناك من هم أشد سواداً منها في بلادها؟».

أجاب الابن مقتنعاً: «بالتأكيد».

لكن أباه هزَّ برأسه وقال: «بالتأكيد هذا كريه».

أما الابن فقال: «ليس كريهاً أكثر من غيره إذ نعتاده بعد حين».

سألته والدته: «ألا تتسخ الثياب أكثر فوق بشرة كهذه؟».

- ليس أكثر من ثيابك بما أن هذا لونها.

بعد كثير من الأسئلة اتفقوا على أن يراها الأهل قبل اتخاذ أي قرار، وأن ابنهم، الذي ستنتهي مدة خدمته بعد شهر، سيأتي بها إلى البيت ليتمكنا من معاينتها عن كثب وتقرير ما إذا كان سوادها يسمح بأن تنتسب إلى عائلة «بواتيل».

أعلن «أنطوان» أنه يوم الأحد، الثاني والعشرين من أيار، أي يوم نهاية خدمته، سيذهب إلى «تورتفيل» مع فتاته.

من أجل تلك الرحلة إلى ذوي حبيبها، ارتدت أجمل ثيابها وأكثرها جاذبية. وساد فيها اللون الأصفر مع الأحمر والأزرق بحيث أنها تزينت كأنما من أجل العيد الوطني.

في محطة الانطلاق من «الهافر»، كانت محط الأنظار، وكان «بواتيل» يشعر بالفخر إذ يعطي ذراعه لشخص يجذب الانتباه.. في المقطورة ذات الدرجة الثالثة، حيث جلست إلى جانبه، فرضت الدهشة على القرويين، بحيث صعد ركاب المقصورات المجاورة على الحواجز الخشبية التي تقسم العربة... طفل كان بين الركاب بدأ الصراخ والبكاء حين شاهدها وآخر خبأ وجهه في إزار والدته.

كل شيء سار على ما يرام حتى المحطة. ولكن حين أبطأ القطار من سرعته لدى اقترابه من «ايفتو»، أحس انطوان بالضيق كما لو كان أثناء تفتيش يخص

تدريباته العسكرية. ثم دنا من الباب وانحنى فرأى أباه ممسكاً بلجام حصان ربط بعربة، ووالدته التي اقتربت من الحاجز الذي يبعد الفضوليين.

كان أول من نزل ومدَّ يده لصديقته، ومثلما كان يرافق جنرالاً، مشى إلى الأمام وتوجه نحو والديه.

حين رأت والدة انطوان تلك السيدة السوداء المبرقشة بصحبة ولدها، وقفت مذهولة فلم تستطيع فتح فمها، أما أبوه فكان يمسك بشق النفس حصانه الذي كان مهتاجاً بسبب القاطرة أو تلك الزنجية، لا أحد يعلم. لكن انطوان وقد غمره الفرح لرؤية أبويه، أسرع فاتحاً ذراعيه وقبَّل أمه وأباه بالرغم من هلع الحصان، ثم استدار نحو رفيقته التي كان المارة يحدجونها بأعينهم مذهولين، وتوقف ليقول:

«ها هي! قلت لكم إنها للوهلة الأولى لا تثير الإعجاب، لكن ما أن تعرفوها حق المعرفة لن تجدوا مثيلاً لها في الكياسة. رحبوا بها كي لا تتأثر».

تقدمت منها السيدة «بواتيل» بوجل كأنها فقدت صفاء عقلها، وحيّتها بانحناءة، بينما رفع الأب قبعته وتمتم: «آمل أن تكون حسب رغبتك». بسرعة ركب الجميع، المرأتان في صدر العربة على كرسيين يقفزان في الهواء عند كل ارتجاج على الطريق؛ أما الرجلان فقد جلسا على المقعد الأمامي.

ساد الصمت. وبدا القلق على انطوان الذي أخذ يصفّر لحناً تعلمه في الثكنة. والوالد كان يلوّح بسوطه، والوالدة تنظر من زاوية عينها وترمق الفتاة بعين ماكرة. أما الزنجية فكان جبينها وخداها يلمعان بنور الشمس مثل حذاء مُسِحَ ولُمِّعَ للتو.

استدار انطوان محاولاً كسر جليد الصمت فقال:

«حسناً! ألا نتحدث؟» أجابت والدته:

«لا بدّ أن يأتي كل شيء في وقته».

استأنف قائلاً: «هيا، اروي لها قصة بيضات دجاجتك الثمان».

هي قصة مضحكة اشتهرت بها العائلة. لكن بما أن والدته بقيت صامتة وقد شلّها التأثر، بدأ يسردها وهو يضحك ملء شدقيه. أما الوالد الذي كان يعرفها عن ظهر قلب فقد انبسطت أساريره عند كلماتها الأولى: شاركته زوجته الضحك؛

والزنجية نفسها، عند الجزء الأشد طرافة، أطلقت ضحكة مدوية كالسيل الجارف جعلت الحصان يعدو فترة من الزمن.

حدث التعارف وبدأ الحديث.

ما إن وصلوا حتى نزل الجميع، وبعد أن أخذ رفيقته إلى الغرفة لتبدل ثوبها الذي يمكن أن يتسخ حين تدخل إلى المطبخ لتحضير طبق على طريقتها، هدفه أن تستولي على الأبوين عن طريق بطنيهما، فجذب والديه أمام الباب وسألهما وقلبه يرتجف:

«حسناً، ماذا تقولان؟».

سكت الأب. أما الأم وكانت أكثر جرأة، فقد أعلنت:

«هي شديدة السواد!... لا، حقاً، هذا كثير، لقد تأثرت كثيراً..».

قال لها انطوان: «ستعتادين على ذلك».

أجابته: «هذا ممكن لكن ليس في الوقت الراهن».

دخل الجميع فتأثرت الأم حين رأت الزنجية تطبخ فساعدتها، وقد شمّرت ثيابها، فهي نشيطة رغم تقدمها في السن.

كانت الوجبة جيدة وطويلة ومرحة، حين قاموا بجولة بعدها، أخذ انطوان أباه على حدة وقال:

«حسناً يا أبي، ما رأيك؟».

لم يشأ القروي أن يتورط مطلقاً، فأجابه:

«لا رأي لي، اسأل الوالدة».

لحق انطوان بوالدته، وأوقفها قائلاً:

«وأنتِ، ما رأيك؟»، فأجابته:

«يا بني المسكين، هي شديدة السواد، والحق يقال لو كانت أقل من ذلك سواداً لما اعترضت، لكن ذلك كثير؛ لعلها شيطان!»..

لم يلح، لمعرفته بأن العناد من صفات أمه، لكنه أحسَّ بعاصفة خوف تلج قلبه. بحث عما يجب فعله أو اختراعه وقد تَفاجأ لأن فتاته لم تسيطر على أبويه كما كانت قد سيطرت عليه. وواصل الأربعة سيرهم بخطى بطيئة بين نباتات القمح وعادوا إلى صمتهم. حين كانوا يمرون قرب سياج، كان المزارعون يظهرون أمام الحاجز، والأولاد يتسلقون كومة ترابية، والجميع يهرعون إلى الدرب ليشاهدوا مرور «السوداء» التي أتى بها «بواتيل» الابن. لوحظ أن الناس كانوا من بعيد يتراكضون عبر الحقول، وكأنهم يهرعون لدى سماعهم طبل الإعلان عن حدث استثنائي صارخ، مما أدخل الرعب والحيرة في قلوب الأهل، بسبب هذه الحشرية التي تنامت حين اقترابهم، فتسارعت خطاهم، وسبقا ابنهما الذي سألته رفيقته عن رأي أهله بها.

أجابها متردداً بأنهما لم يصلا إلى قرار بعد.

ولكن في ساحة القرية كانت كتل الناس من كل المنازل تخرج ملتاعة؛ وأمام التجمع الذي بدأ يزداد ويكبر، هرب الأبوان وعادا إلى منزلهما، بينما اجتاحت انطوان ثورة غضب، فتقدم ممسكاً بذراع فتاته بجلال وأبّهة تحت العيون التي اتسعت من الدهشة.

أدرك أن الأمر قد انتهى ولم يبقَ أي أمل في أن يتزوج تلك الزنجية؛ هي أيضاً أدركت الأمر فانهمرت الدموع من عيونهما وهما يقتربان من المزرعة. وما إن دخلاها حتى خلعت فستانها ثانية لتساعد الوالدة في شغل المنزل؛ كانت تتبعها إلى كل مكان: إلى الملبنة والإسطبل وخم الدجاج، آخذة على عاتقها الجزء الأكبر من العمل، مرددةً كل الوقت: «دعيني أقوم بالعمل يا سيدة «بواتيل»، وحين حلَّ الظلام قالت الوالدة لابنها، وقد رقّت وتأثرت لكنها استمرت في عنادها: يا بني، هذه الفتاة هي حقاً رائعة، ومن المؤسف أن تكون بهذا السواد، حقاً هي كثيرة السواد ولن أستطيع التآلف معه، يجب أن تعود فهي شديدة السواد».

فقال انطوان لفتاته: «إن أمي لا تقبل بك البتة، إذ تجدك شديدة السواد، يجب أن تعودي، سأرافقك حتى المحطة، لا عليك، سأكلمها ثانية حين تغادرين».

قادها إلى المحطة مودِعاً في قلبها بعض الأمل. وبعد أن عانقها، أصعدها إلى المقطورة وظلَّ يتبعها بنظره وهي تغادر وعيناه مغرورقتان بالدموع.

حاول عبثاً التوسل إلى والديه دون جدوى.

حين يروي هذه القصة التي صار الجميع يعرفونها، كان يضيف:

«منذ ذلك الحين أغلقت قلبي أمام كل شيء، ولم تعجبني أية مهنة، وأصبحت ما أنا فيه، منظف قاذورات».

كانوا يقولون له: «مع ذلك فقد تزوجت».

فيجيب: «نعم، فأنا لا أستطيع القول بأن زوجتي لا تعجبني، لأنني رزقت منها بأربعة عشر ولداً، لكنها بالتأكيد ليست كتلك، لا، بالتأكيد لا! الأخرى، فتاتي الزنجية، كان يكفي أن تنظر إليَّ حتى أشعر بأنني طرت من السعادة».

٢٢ كانون الثاني ١٨٨٩

الخـوف

إلى أ. ج . - ك . ويسمانس

صعدنا ثانية إلى سطح السفينة بعد العشاء. البحر الأبيض المتوسط أمامنا هادئ يكاد لا يتحرك وضوء القمر ينعكس على صفحته الساكنة. المركب الواسع كان ينزلق ملقياً إلى السماء المزروعة بالنجوم افعواناً من الدخان الأسود. وخلفنا الماء الأبيض، وقد تحول إلى زبد بفعل مرور عنفة المركب السريع الثقيل، كان يحرّك أضواء تحسبها أنوار قمر تغلي.

كنّا هناك، ستة أو ثمانية رجال، صامتين مفتونين، وعيوننا متجهة نحو إفريقيا البعيدة التي كانت وجهتنا. القبطان الذي كان يدخن سيجاراً وهو جالس بيننا، استأنف فجأة حديث العشاء.

- نعم لقد خفت في ذلك اليوم. بقيت سفينتي ست ساعات وتلك الصخرة في بطنها وأمواج البحر تنهال عليها. لحسن الحظ أنقذتنا مساءً ناقلة فحم بريطانية كانت قد لمحتنا.

إذ ذاك تكلم لأول مرة رجل ضخم الجثة وفي وجهه آثار حروق، وذو مظهر وقور، واحد من أولئك الرجال الذين يشعرون بأنهم عبروا أصقاعاً مجهولة، وواجهوا أخطاراً متوالية؛ تبدو عينه قريرة، محتفظة في عمقها بشيءٍ من المناظر الغريبة التي رآها: كان من أولئك الرجال الشجعان، فقال:

- تقول يا سيدي القبطان، إنك خفت؛ أنا لا أصدق. فأنت تخطئ بالكلمة والإحساس بما قاسيت. فالرجل الهمام لا يخاف مطلقاً بوجه الخطر الداهم؛ إنه يتأثر، يضطرب، يقلق، لكن الخوف شيء آخر.

قال القبطان ضاحكاً:

- عجباً! أؤكد لكَ أني خفت.

إذ ذاك قال الرجل ذو البشرة البرونزيّة بصوت بطيءٍ رتيب:

- اسمحوا لي أن أوضح! الخوف (وأكثر الرجال شجاعة يمكن أن يخافوا)، إنه شيء مرعب، شعور فظيع، كتحلل الروح، تشنج مريع في الفكر والقلب، بحيث أن ذكره فقط يحدث ارتعاشات جزع. لكن هذا لا يحدث حين يكون المرء شجاعاً، يتصدى لهجوم ويواجه الموت المحتوم، ويجابه شتى أشكال الخطر المعروفة: هذا يحدث في بعض المناسبات غير الطبيعية، تحت تأثيرات غامضة إزاء أخطار مبهمة. الخوف الحقيقي، إنه مثل ذكرى رهبة وهمية قديمة. إن كان هناك إنسان يؤمن بالأشباح ويتخيل بأنه يرى طيفاً في الظلام، لابد أن يعاني الخوف في كل بشاعته المريعة.

أنا كشفت الخوف في وضح النهار، منذ ما يقارب عشر سنوات. وأحسست به الشتاء الماضي في إحدى ليالي كانون الأول.

مع ذلك، فقد مررت بكثير من الأخطار وكثير من المغامرات كانت تبدو مميتة. تعاركت مراراً. تركني لصوص وقد حسبوني ميتاً. حُكِمَ عليَّ بالإعدام شنقاً كمتمرد في أميركا، ورُميتُ في البحر من ظهر سفينة قرب شواطئ الصين. كل مرة كنت أعتقد بأنني هالك لا محالة؛ كنت فوراً أتخذ قراري دون تأثر، لا بل دون أسف.

على كل حال، ليس هذا هو الخوف.

استشعرته في إفريقيا. ولأنه سليل بلاد الشمال، فإن الشمس تبدده كما تبدد الضباب. لاحظوا هذا أيها السادة. لا تعني الحياة شيئاً لدى الشرقيين؛ فهم يسلمون فوراً أمرهم لله: لياليهم صافية وخالية من كل قلق مظلم يراود أدمغة سكان البلدان الباردة. في الشرق يمكن أن يعايَن الرعب، لكن الخوف غير معروف.

حسناً؛ إليكم ما حدث لي في أصقاع إفريقيا:

كنت حينها أمرُّ عبر الكثبان جنوب «أوارغلا»(*). هناك تجدون أغرب مناطق العالم. تعرفون الرمال المتجمعة، رمال الشواطئ التي لا نهاية لها على المحيط. حسناً!

(*) أوارغلا Ouaragla: مدينة جزائرية.

تخيّلوا المحيط ذاته وقد تحوّل إلى رمال وسط إعصار؛ تخيلوا عاصفة صامتة لأمواج ساكنة من الغبار الأصفر. هذه الأمواج غير متساوية، متنوعة، ترتفع تماماً كأمواج متلاحقة، غير أنها أكبر، ومخططة مثلما يُخَطط النسيج. على هذا البحر الغاضب المتلاطم والساكن، تصب شمسُ الجنوب المفترسة نارَها المحرقة المباشرة. يجب أن تتسلق هذه الأمواج الذهبية الرماد، وتنحدر ثم تتسلق ثانية بلا توقف ولا راحة ولا ظل. تسمع حشرجة الخيول وهي تغوص حتى الركب وتنزلق ثم تنحدر نحو السفح الآخر للتلال المدهشة.

كنت مع صديق، يتبعنا ثمانية فرسان وأربعة جمال مع سائسيها. لم نكن نتكلم فقد أرهقتنا الحرارة والتعب وأُصِبنا بالعطش والجفاف كتلك الصحراء المضطرمة. فجأة انطلقت صرخة من أحد رجالنا فتوقفنا جميعاً وكأن على رؤوسنا الطير، وقد فوجئنا بظاهرة غامضة يعرفها المسافرون في تلك المناطق النائية.

في مكان ما بالقرب منّا وباتجاه غير محدد، كنا نسمع طبلاً يطن وهو طبل الكثبان الغامض؛ كان يطن بوضوح، قوياً مرة، وأخرى ضعيفاً؛ يتوقف ثم يستأنف طنينه الغريب.

العرب الذين معنا، كان بعضهم ينظرون إلى بعضهم الآخر بحيرة إلى أن قال أحدهم: «الموت يحوم فوقنا». وإذا برفيقي، أو قُلْ أخي، يسقط عن ظهر جواده ورأسه إلى الأمام وقد صعقته ضربة شمس.

على مدى ساعتين من محاولتي إنقاذه بلا جدوى، كان الطبل المجهول المكان مازال يملأ أذني بطنينه الرتيب المتناوب وغير المفهوم، كنت أحس بالخوف ينزلق عبر عظامي، الخوف الحقيقي، الخوف البشع، أمام تلك الجثة الحبيبة، في تلك الحفرة المحترقة، بفعل الشمس بين أربعة جبال من الرمل، بينما كان الصدى المجهول يرسل لنا ونحن على بعد مئتي فرسخ من أي قرية فرنسية، طنين الطبل السريع.

في ذلك اليوم فهمت كنه الخوف؛ لكنني عرفته مرة أخرى بشكل أفضل...

قاطع القبطان الراوي بقوله:

- عذراً يا سيدي، ولكن ذلك الطبل، ماذا عنه؟

أجاب المسافر:

- لست أعلم، لا أحد يعلم. غالباً ما يفاجأ الضباط بهذا الضجيج الغريب، ويعزونه بشكل عام إلى الصدى المتعاظم والمتكاثر والمتضخم بشكل كبير بسبب تموجات الكثبان؛ أو وابل من حبات الرمل يصطدم بأعشاب جافة متجمعة؛ فقد لوحظ دائماً أن الظاهرة تحدث بجوار النباتات الصغيرة المحترقة بأشعة الشمس والقاسية كالرق.

إذن فإن هذا الطبل ليس سوى نوع من سراب صوتي. هذا كل شيء. لكنني لم أعرف ذلك إلا فيما بعد.

وإليكم انفعالي الثاني.

حدث ذلك في الشتاء الماضي، في غابة تقع في الشمال الشرقي من فرنسا. أعتم الليل قبل ساعتين من أوانه، من شدة ظلمة السماء. كان دليلي قروياً يمشي إلى جانبي في طريق ضيق تحت قبة من أشجار الصنوبر تصدر عويلاً كلما مرت الريح بها. بين قمم الأشجار كنت أرى غيوماً تسبح هاربة، غيوماً مضطربة وكأنها تفرُّ أمام خطرٍ محدقٍ. وأحياناً تحت وابل من المطر، كانت الغابة بأسرها تنحني بنفس الاتجاه وتصدر أنين الألم؛ والبرد كان يجتاحني بالرغم من خطاي السريعة وثيابي الثقيلة.

كان من المفترض أن نتعشى عند حارس غابة بيته لم يكن بعيداً عنّا، فأنا كنت ذاهباً للصيد.

دليلي كان يرفع بصره أحياناً ويتمتم: «طقس سيئ!» ثم أخذ يكلمني عن الناس الذين كنّا ذاهبين إليهم. كان الوالد قد قتل أحد الصيادين المخالفين قبل عامين، ومنذ ذلك الحين، كان يبدو حزيناً وكأن ذكرى تراوده؛ له ابنان متزوجان يقطنان معه.

الظلام كان دامساً، لم أكن أرى شيئاً أمامي ولا حولي وكل أغصان الأشجار المتصادمة كانت تملأ الليل عويلاً مستديماً. أخيراً لمحت ضوءاً، وبعد قليل كان مرافقي يقرع باباً. أجابنا صراخ نسوة حاد من الداخل. ثم جاءنا صوت رجل، صوت أجش يسألنا:

«من الطارق؟» ذكر مرافقي اسمه فدخلنا لنشاهد لوحة لا تنسى.

كان في انتظارنا رجل كهل أشيب الشعر وعيناه جاحظتان، يمسك بيده بندقية محشوة ويقف في المطبخ، مع شابين مفتولي العضلات وقد تسلحا بفأسين يحرسان الباب. لمحت في الزاوية المعتمة امرأتين راكعتين ووجهاهما باتجاه الحائط.

شرحوا لنا الوضع؛ وأسند الكهل بندقيته إلى الجدار وأمر بتجهيز غرفتي، وإذ رأى أن الامرأتين لم تتحركا البتة، قال فجأة:

- كما ترى يا سيدي، قتلت رجلاً منذ عامين في مثل هذه الليلة. في السنة الماضية عاد يناديني؛ وأنا في انتظاره هذا المساء.

ثم أضاف بلهجةٍ جعلتني أبتسم:

- لذلك لسنا مطمئنين.

طمأنته قدر الإمكان، وأخبرته بأنني سعيد لوصولي تلك الليلة وحضوري مشهد ذلك الهلع الخرافي. رويت قصصاً وتوصلت إلى أن أهدئ روع الجميع تقريباً.

قرب الموقد كان ينام، وأنفه بين قوائمه، كلب شبه أعمى، واحد من تلك الكلاب التي تشبه أناساً نعرفهم.

في الخارج، كانت العاصفة العنيفة تضرب جدران البيت؛ عبر زجاج نافذة ضيقة، أو فتحة الرؤية قرب الباب، رأيت فجأة على ضوء البرق مجموعة أشجار حطمتها الريح.

بالرغم من جهودي، كنت أشعر بأن رعباً عميقاً يلف أولئك الناس، وكلما توقفت عن الكلام كانت كل الآذان تصغي إلى البعيد. حين تعبت من مشاهدة تلك المخاوف الغبية، وأوشكت أن آوي إلى فراشي، وإذا بالكهل يقفز من كرسيه ويمسك ببندقيته ثانية وهو يلجلج بصوت شارد: «ها هو! ها هو! إني أسمعه!» ركعت المرأتان على ركبهما في الزوايا وخبأتا وجهيهما؛ وأمسك الشابان بفأسيهما. بدأت أحاول تهدئتهم حين استفاق الكلب من نومه فجأة، ورفع رأسه ومد عنقه واتجه بنظره الكفيف نحو النار، ثم أطلق نباحاً كئيباً يبعث القشعريرة في جسد

المسافرين مساءً في الأرياف. اتجهت إليه كل الأنظار وهو ثابت لا يبدي حراكاً وقد استند إلى قوائمه كأنما شاهد رؤيا فجعل ينبح باتجاه شيء غير مرئي، غير معروف، مرعب دون شك، لأن كل وبر جسمه قد انتصب. صاح الحارس وقد امتقع وجهه: «إنه يحس به! يحس به! فقد كان معي حين قتلته». فانضم صراخ وعويل المرأتين إلى نباح الكلب وهياجه.

بالرغم مني، شعرت بقشعريرة بين كتفيَّ. فرؤية هذا الحيوان في هذا المكان وهذه الساعة، بين هؤلاء الناس المتطيرين، كانت مفزعة.

بقي الكلب ينبح قرابة ساعة دون أن يتحرك، وكان الخوف الرهيب قد بدأ بالتغلغل في أوصالي؛ الخوف من ماذا؟ هل أعلم؟ لقد كان الخوف بذاته، وهذا كل شيء.

بقينا بلا حراك، شاحبين ننتظر حدثاً مرعباً؛ آذاننا مصغية، وقلوبنا واجفة، تضطرب لأقل حركة.. بدأ الكلب يدور في أرجاء الغرفة يتشمّم الجدران ويئن. لقد بعث فينا الجنون. حينئذ ألقى القروي الذي كان دليلي، بنفسه على الكلب، وقد وصل إلى أعلى درجات الرعب، وفتح باباً يتصل بباحة صغيرة وألقاه فيها.

صمت فوراً؛ وبقينا غارقين في صمت أشد رعباً. فجأة إذا بنا جميعاً نقفز: فقد أحسسنا بأن كائناً كان ينزلق على الجدار الخارجي نحو الغابة؛ ثم مرَّ بالباب حيث بدا أنه يجسه بيدٍ مترددة؛ ثم لم نعد نسمع شيئاً لمدة دقيقتين جعلتا منا ما يشبه الحمقى؛ ثم عاد وهو يمس الجدار؛ ثم حكَّه بلطف كما يفعل ذلك طفل بأظافره؛ فجأة ظهر رأس أمام الفتحة الزجاجية؛ رأس أبيض وعينان متألقتان كعيون حيوانات مفترسة. وخرج من فمه صوت غير مفهوم، همهمة نواح.

حينها انطلق صوت انفجار هائل من المطبخ. فقد أطلق الحارس النار فأسرع الشابان وسدّا فتحة الباب واضعين الطاولة الكبيرة وثبتاها بالخزانة.

أقسم لكم أنه حين لعلع صوت البندقية، وما كنت أتوقعه، انقبض قلبي وجسمي وروحي بشدة، وأحسست بأن قواي خارت وصرت قاب قوسين أو أدنى من الموت خوفاً.

بقينا على وضعنا حتى الفجر، لا نقوى على الحركة أو فتح أفواهنا لنقول شيئاً متقوقعين في ذهول لا يوصف.

لم نجرؤ على إزالة المتراس من المدخل حتى لاحظنا، مـن خـلال شـق إفريـز، أول شعاع من النهار.

عند أسفل الجدار، مقابل الباب، تمدد الكلب المسن وقد حطمـت الرصاصـة شدقه.

كان قد خرج من الباحة وهو يحفر حفرة تحت السياج.

صمت الرجل ذو الوجه الأسمر، ثم أضاف:

- في تلك الليلة، لم أتعرض خلالها لأي خطر؛ لكنني أفـضل أن أسـتعيد كـل اللحظات التي واجهت خلالها الأخطار الفظيعة المرعبة، من أن تتكرر تلك الدقيقـة التي أطلقت فيهارصاصة البندقية على ذلـك الـرأس الملتحـي الـذي ظهـر في فتحـة الباب.

عمي جـول

إلى أ. م . اشيل بينوفيل

فقير مسن، ذو لحية بيضاء، طلب منا صدقة؛ صديقي جوزيف دافرانش، أعطاه مئة فلس؛ عجبت لذلك فقال لي:

- هذا البائس ذكرني بقصة سأرويها لك، وذكراها تلاحقني بلا انقطاع. وها هي:

* * *

عائلتي، وأصلها من «الهافر»، لم تكن غنية. كنا نتدبر أمورنا، وهذا كل شيء. الوالد كان يعمل، ويعود متأخراً من المكتب ولم يكن يكسب الكثير. وكان لي أختان.

عانت والدتي الكثير من ضيق ذات اليد، وكانت غالباً ما تجد كلمات قاسية توجهها لزوجها، أو تلميحاً بملامة لئيمة. إذ ذاك كان الرجل يقوم بحركة تثير أعصابي، فيمرّر كفه على جبينه كمن يمسح عَرَقاً لم يكن موجوداً، ولا يجيب بشيء. كنت أحس بألمه العاجز. كنا نقتصد في كل شيء؛ لم نقبل يوماً دعوة إلى عشاء حتى لا نضطر إلى ردها؛ وكنا نشتري مؤونتنا أيام الحسومات من بقايا الدكاكين. كانت أخواتي يخطن ثيابهن بأنفسهن، وكان نقاشهن يطول حول شرائط الزينة، وسعر المتر منها خمسة عشر قرشاً. طعامنا العادي كان مؤلفاً من حساء دسم ولحم عجل متبّل بكل أنواع الصلصات. كان ذلك مفيداً للصحة ومنعشاً على ما يبدو؛ أما أنا فكنت أفضل طعاماً آخر.

كنت عرضةً للمشاحنات القاسية بسبب ضياع زر أو تمزق بنطال.

لكن كل يوم أحد كنا نذهب في جولة عند رصيف المرفأ ونحن في أجمل ثياب. كان أبي يرتدي سترة طويلة وقبعة كبيرة وقفازات، مقدماً ذراعه لوالدتي المزينة

كمركب في يوم عيد. أختاي، كانتا أول الجاهزين في انتظار إشارة الرحيل؛ ولكن في آخر لحظة تُكْتَشَفُ بقعة على سترة أبي، وكانت تنظف فوراً بخرقة مبللة بالبنزين.

كان أبي ينتظر، وقبعته على رأسه، انتهاء العملية، بينما كانت أمي تسرع، وقد وضعت نظاراتها وخلعت قفازاتها كي لا تتسخ.

وتبدأ مسيرتنا بأبهة، الأختان في المقدمة بذراعين معقودتين. كانتا في سن الزواج وتقابَلان بإعجاب أهل المدينة. كنت أسير إلى يسار والدتي.. ما زلت أتذكر مظهر الأبهة لأهلي الفقراء خلال نزهات أيام الآحاد تلك، وقسوة ملامحهما، وصرامة مشيتهما. كانا يسيران بخطوات وئيدة وقامات منتصبة وأرجل صلبة، وكأن قضية ذات أهمية قصوى، كانت تتوقف على مظهرهما.

كل يوم أحد كان والدي يردد لدى رؤيته عودة السفن الكبيرة من بلاد مجهولة، نفس الكلام:

«آه! لو أن جول كان فيها، يا لها من مفاجأة!».

عمي جول، أخو والدي، كان أمل العائلة الوحيد، بعد أن كان يجسد الرعب لها. كنت قد سمعت عنه منذ طفولتي، واعتقدت بأنني سأعرفه حين أراه للمرة الأولى، لكثرة ما فكرت فيه، إذ كنت أعرف كل تفاصيل حياته حتى يوم مغادرته إلى أميركا، على الرغم من أن أحداً لم يأتِ على ذكر هذه الفترة من حياته.

على ما يبدو، كان سلوكه سيئاً، يعني أنه خسر أموالاً، وهذا يُعد أكبر الجرائم بالنسبة للعائلات الفقيرة. فعند الأغنياء حين يتسلى أحدهم ويقترف حماقات فهو ما يسمى، مع ابتسامة، عربيداً منحلاً. ولدى المحتاجين، يدعى ولداً يُجبر الأهل على تخفيض رأسمالهم فيصبح افّاقاً، نذْلاً، وغريب الأطوار.

هذا التمييز عادل، بالرغم من أن الجرم واحد، لكن النتائج وحدها التي تحدد خطورة الفعل.

في كل الأحوال، كان العم جول قد خفض بشكل كبير الإرث الذي كان والدي يعتمد عليه، بعد أن أكل حصته حتى آخر مليم.

أركبوه السفينة إلى أمريكا، كما كان الناس يفعلون حينها، أركبوه سفينة تجارية انطلقت من الهافر إلى نيويورك.

حين صار في نيويورك، استقر كتاجر لبضاعة لا نعلم ما هي، وكتب بعد ذلك أنه يكسب القليل من المال، وأنه يأمل بتعويض والدي عما تسبب له من ضرر. أحدثت الرسالة أثراً عميقاً في العائلة. جول، الذي لم يكن يساوي فلساً، كما يقال، أصبح فجأة رجلاً شريفاً، شهماً، سليل عائلة «دافرانش» بحق، ككل أفراد هذه العائلة.

إضافة إلى ذلك فقد أعلمنا قبطان سفينة أنه استأجر متجراً كبيراً وراجت تجارته.

بعد عامين، تلقينا رسالة منه تقول: «يا عزيزي فيليب، أكتب إليك كيلا تقلق بشأن صحتي فهي جيدة. أعمالي تسير سيراً حسناً. غداً سأذهب في سفر طويل إلى أميركا الجنوبية. سيطول بي المقام دون أن أكتب إليك. فأنا إن لم أراسلك، لا تقلق. سأعود إلى الهافر حين أجمع ثروتي. آمل ألا يطول ذلك، وسنعيش معاً بسعادة...».

أصبحت تلك الرسالة بمثابة إنجيل للعائلة، إذ كانت تقرأ في كل مناسبة، ويشاهدها الجميع.

بالفعل، مضت عشر سنوات ولم تصلنا أخبار العم «جول» لكن أمل والدي كان يكبر مع مرور الزمن؛ وأمي غالباً ما كانت تقول:

«حين يعود جول، هذا الطيب، سيتغير حالنا، فهذا رجل عرف كيف يتدبر أموره!».

وفي كل يوم أحد، كان أبي يردد، وهو يرى في الأفق البواخر تنفث في الجو أفاعٍ من الدخان الأسود، عبارته الدائمة:

«لو أن جول كان فيها، كم ستكون مفاجأة!»

فنكاد نتوقع رؤيته وهو يلوح بمنديله ويصيح: «يا فيليب!»

أعددنا مئات المشاريع معتمدين على هذه العودة المؤكدة؛ كنا سنشتري بيتاً ريفياً صغيراً بمال العم جول، قرب «أنغوفيل». وأنا لن أؤكد بأن أبي لم يكن قد بدأ محادثات بهذا الشأن.

كانت أختي البكر قد بلغت الثامنة والعشرين من عمرها، والأخرى ستة وعشرين، ولم تتزوجا، وكان ذلك مدعاة غم للجميع.

أخيراً تقدم طالب زواج للصغرى، موظف ليس بالغني، لكنه مستقيم. كنت دائماً مقتنعاً بأن رسالة العم جول قد وضعت حداً لتردده، حين رآها.. قُبِلَ طلبه بسرعة؛ وتقرر بعد الزواج أن تقوم العائلة برحلة جماعية إلى «جرسي».

«جرسي» هي هدف رحلات الناس الفقراء. ليست بعيدة؛ تعبر البحر في سفينة فتصبح في أرض أجنبية. هذه الجزيرة الصغيرة البريطانية. إذن، بعد إبحار ساعتين يستطيع الفرنسي أن يشاهد شعباً مجاوراً وأن يدرس أخلاقاً، يرثى لها على كل حال، في هذه الجزيرة التي يرتفع فوقها العلم البريطاني، كما يقول الناس ببساطة.

غدت الرحلة إلى جرسي موضع اهتمامنا وانتظارنا الوحيد ومحط أحلامنا.

أخيراً ذهبنا، أذكر ذلك وكأنه بالأمس: السفينة تستعد للابحار، وأبي مربك يراقب تحميل أمتعتنا؛ أمي قلقة، تمسك بذراع أختي غير المتزوجة والتي كانت تبدو تائهة منذ أن تركتها أختها، وخلفنا كان العروسان يسيران بتؤدة وهذا ما جعلني ألتفت عدة مرات.

صفر المركب إيذاناً بالرحيل وبدأ بالابتعاد عن رصيف الميناء، على مياه هادئة كسطح طاولة رخامية خضراء، كنا نشاهد الشاطئ يبتعد هارباً، سعداء مزهوين ككل الذين نادراً ما يسافرون.

أبي وقف بكرشه المندلق تحت سترته التي تعرضت في ذلك الصباح، لإزالة بقع كانت عليها، ورائحة البنزين تنتشر من حوله كما في تلك الأيام التي يخرج فيها للنزهة أيام الأحد.

فجأة وقع بصره على سيدتين أنيقتين، وبجوارهما رجلان يقدمان لهما المحار. وبحار مسنّ رث الثياب يفتح بضربة سكين تلك الأصداف ويعطيها للسيدين اللذين بدورهما يعطيانها للسيدتين اللتين كانتا تأكلان بلباقة واضعتين قشرة الصدف على منديل ثم تقتربان بفيهما كيلا تتلوث ثيابهما، ثم تشربان السائل بحركة سريعة وتلقيان الصدف في البحر.

أبي، أغرته بلاشك طريقة أكل المحار هذه، على ظهر سفينة مبحرة، أعجب بتلك الأناقة المرهفة الراقية، فدنا من والدتي وأختيَّ وسألهن:

«هل أقدّم لكنَّ بعض المحار؟».

ترددت أمي خشية الإسراف؛ لكن أختيَّ قبلتا فوراً، فقالت أمي بنبرة مغتاظة:

«أخشى أن أصاب بألم في معدتي، قدمها للبنات، على أن لا تكثر، فقد تمرضان».

ثم استدارت نحوي وأضافت:

«أما جوزيف، فليس بحاجة لها؛ يجب ألا يدلل الصبيان».

بقيت قرب أمي وقد شعرت بظلم هذا التمييز. تابعت بعيني والدي الذي تقدم ابنتيه وصهره باعتزاز نحو البحّار ذي الثياب الرثة.

كانت السيدتان قد غادرتا للتو، وأبي كان يدل ابنتيه على كيفية أكل المحار كي لا تتركا الماء يسيل؛ حتى إنه أراد أن يعطيهما المثل فأخذ محارة وحاول تقليد السيدتين لكنه دلق فوراً كل السائل على سترته وسمعت والدتي تغمغم:

«يحسن به ألا يقدم على أكل المحار».

لكن فجأة لمحت القلق على وجه أبي؛ ابتعد بضع خطوات، وألقى نظرة على عائلته المتزاحمة حول بائع المحار، ثم بغتة شحب لونه، وبعينين غريبتي المظهر، قال لأمي بصوت يشبه الهمس:

«الأمر غير طبيعي، كم إن هذا الرجل الذي يفتح المحار، يشبه جول!».

سألت أمي بذهول:

«أي جول...؟»

«جول... أخي جول... لو لم أكن أعرف أنه ذو مركز جيد في أميركا، لاعتقدت أنه هو».

أجابت أمي متمتمة بذعر:

«هل أنت مجنون! بما أنك تعلم أنه ليس هو، لِـمَ هذه الحماقات».

«اذهبي يا كلاريس وألقي عليه نظرة؛ أفضل أن تتأكدي بنفسك وبعينيك!».

نهضت واتجهت نحو بنتيها. وأنا أيضاً نظرت إلى الرجل. كان مسناً، قذراً، قد ملأت التجاعيد وجهه، لكنه لم يكن يلتفت إلا لعمله.

عادت أمي، ولا حظتُ أنها ترتجف، وقالت بسرعة:

«أعتقد أنه هو. اذهب واسْتَقِ معلومات من الربان. كن حذراً كيلا نلتقي بهذا الفاسد الآن!».

ابتعد أبي لكنني تبعته، وشعرت بأنني شديد التأثر.

ربان السفينة، وهو رجل طويل القامة نحيلها، ذو سوالف طويلة، كان يتمشى على الجسير وكأنه قبطان سفينة بريد متوجهة إلى الهند.

دنا منه والدي بوقار وهو يسأله عن مهنته بإطراء، وعن «جيرسي» وأهميتها، وما تنتجه، وعن سكانها وأخلاقهم وعاداتهم، وطبيعة أراضيها، إلخ... فيخيل إلى سامعه أنه يتحدث عن الولايات المتحدة الأميركية. ثم تحدثا عن السفينة التي تقلنا «الإكسبرس»؛ وانتهيا بالطاقم وبصوت مضطرب قال له أبي أخيراً:

«لديك هنا بائع محار كبير السن ويبدو مثيراً للاهتمام. هل لديك أي معلومات عن هذا الرجل؟».

القبطان الذي بدأت أعصابه تثور من تلك المحادثة، أجاب بجفاء:

«إنه متشرد فرنسي وجدته في أميركا العام الماضي، وأعدته إلى وطنه؛ له على ما يبدو أقارب في الهافر، لكنه لا يريد العودة إليهم لأنه مدين لهم بمال، ويدعى جول... جول دارمانش أو دارفانش، شيء ما من هذا القبيل؛ الحاصل، يبدو أنه كان غنياً لفترة ما هناك، لكنك تدرك الآن ما صار إليه».

أبي، الذي ازداد شحوبه، وزاغت عيناه قال مختنقاً:

«آه! وآه! حسناً... حسناً جداً.. هذا لا يفاجئني... أشكرك جزيل الشكر أيها القبطان».

وذهب، بينما كان البحار ينظر إليه بذهول وهو يبتعد.

عاد إلى والدتي متشنج الوجه فقالت له:

«اجلس، فقد يلاحظ علينا شيء ما».

وانهار على المقعد وهو يتلعثم:

«إنه هو، هو بالتأكيد».

ثم سألها:

«ماذا سنفعل؟».

أجابت متأثرة:

«يجب إبعاد الأولاد، وبما أن جوزيف يعرف كل شيء سيذهب لاصطحابهن. يجب أن نحرص على ألا يشك صهرنا في شيء».

بدا أبي منهاراً فتمتم قائلاً:

«يا للمصيبة!».

أضافت والدتي وقد ثار غضبها فجأة:

«كنت دائماً أرتاب من أن هذا اللص لن يفعل شيئاً وأنه سوف يعود! وهل يُنتظر أي منفعة من أحد من آل دافرانش!..».

مرر أبي كفه على جبينه كما كان يفعل بعد توبيخ زوجته.

أضافت أمي:

«أعطِ مالاً لجوزيف ليذهب ويدفع ثمن المحار الآن. لا ينقصنا إلا أن يتعرف علينا هذا المتسول، سوف يكون لذلك وقع جميل على المركب. لنذهب إلى الطرف الآخر واحرص على ألا يقترب هذا الرجل منا».

نهضا وابتعدا بعد أن أعطياني قطعة مئة فلس.

تفاجأت أختاي وكنَّ ينتظرن أبي. أكَّدت لهما بأن وعكة أصابت الوالدة، وسألت بائع المحار:

«كم لك بذمتنا يا سيد؟» وكان بودي أن أقول: يا عمي.

أجابني: «فرنكان ونصف».

مددت يدي بقطعة المئة فلس فرد لي الباقي.

نظرت إلى يده، يد البحار المسكين المتجعدة، ثم تفرست في وجهه، وجه بائس، حزين أرهقته الهموم فقلت في نفسي:

«هذا عمي، أخو والدي، إنه عمي».

تركت له عشرة فلوس كإكرامية له، فشكرني قائلاً:

«فليباركك الله أيها الشاب» قال ذلك بلهجة فقير يتلقى إحساناً. فاعتقدت بأنه اضطر أن يستعطي هناك!.

أخذت أختيَّ المفاجأة وهما تحدقان بي ويذهلهما كرمي.

حين أعدت باقي النقود لأبي، فوجئت بأمي تسألني:

«هل كان هناك ما يساوي ثلاثة فرنكات؟... غير معقول!».

أعلنت بصوت ثابت:

«أعطيت عشرة فلوس إكرامية».

انتفضت أمي وحدقت في عيني وقالت:

«أنت مجنون! تعطي عشرة فلوس لهذا الرجل، هذا النذل!..».

توقفت بفعل نظرة من أبي الذي كان يشير إلى صهره. ثم صمت الكل.

أمامنا، عند الأفق بدأ ظل بنفسجي يطلع من البحر... ظهرت جيرسي. وحين دنونا من المرفأ، اجتاحتني رغبة جامحة لأن أرى ثانية عمي جول، أن أقترب منه وأقول له كلمات تعزيه وتواسيه؛ كلمات حنان تشجعه.

ولكن بما أنه لم يبقَ أحد هناك يأكل المحار، فقد اختفى، ونزل بلا شك إلى قاع المستودع . هناك كان يقطن ذلك البائس.

عدنا على سفينة «سان مالو» كيلا نصادفه في طريقنا، لأن القلق استحوذ على أمي.

لم أرَ عمي مطلقاً بعد ذلك.

لهذا السبب تراني يا صديقي أحياناً أعطي مئة فلس للمشردين.

٧ آب ١٨٨٣

الفهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٤م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الحلية المفقودة

مجموعة قصصية مختارة

تأليف: غي دو موباسان





www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٤م

سعر النسخة ٥٦٠ ل.س أو ما يعادلها